مطبوعات كتابي

قصة مدينتين

تشارلز ديكنز

أروع قصة في الآداب العالمية تصور أحداث الثورة الفرنسية الكبرى



مترجمة عن طبعة حديثة للقارئ العصري

بقلم حلمي مراد

التراث العالمي للقارئ العصري

تشارلز ديكنز

قصّة مَدينتين

ترجمة: حلمي مراد

A TALE OF TWO CITIES

By

CHARLES DICKENS

الثمن ١٥ قرشا

لوحة الغلاف

بريشة الفنان « جميل شفيق »

مطبوعات

كتابي

الترجمة العربية لشوامخ الكتب العالمية

صاحبها ورئيس تحريرها : حلمى مراد

الكتاب الأول

طبعة جديدة مزودة بشرح واضافات ، ودراسة تحليلية لأحداث الرواية ، وشخصياتها ، وأوضاع الحياة الاجتماعية والسياسية فى « المدينتين » : لندن ، وباريس ، فى العصر الذى جرت فيه وقائعها

التحرير : ٢٣ شارع عرابى (توفيق سابقا) ، شقة ١١١ ،
القاهرة ـ تليفون ٤٦٤٧٥

الناشر : دار الشعب ـ ٩٢ شارع قصر العينى ، القاهرة
تليفون ٣١٨١٠

هذه القصة

عزيزى القارىء ..

◎ عندما كتب ديكنز ((قصة مدينتين)) كى تنشر تباعا فى احدى مجلات لندن ، فى الفترة بين ٣٠ ابريل و٢٦ نوفمبر سنة ١٨٥٩ ، كان قد انقضى على نشوب الثورة الفرنسية قرابة سبعين عاما ، دخلت خلالها الثورة المذكورة فى التاريخ ، وانفسحت الفرصة امام الباحثين كى يمحصوا احداثها تمحيصا بدقة المؤرخ المحقق ، فيجردوا تاريخها من شوائب الحشو والاضافة والتهويل ، ويتركوه للاجيال التالية مرجعا موثوقا به لاعظم وأعنف ثورة عرفتها البشرية ..

وقد يدور بخاطرك لاول وهلة ان ((قصة مدينتين)) هى قبل كل شىء ((قصة)) من نسج خيال مؤلفها ، شتان بينها وبين التاريخ والواقع .. لكن المقطوع به فى هذا الصدد انها قصة ((تاريخية)) بكل ما يحمل هذا الوصف من معنى ، أى ان جميع حوادثها مبنية على وقائع جرت على مسرح الثورة بالفعل قبل أن يؤلف ديكنز من وحيها قصته .. فهو لم تكد تواتيه فكرتها ويشرع فى كتابتها ، حتى ارتدى عباءة المؤرخ النزيه الذى يقدر مسئولية كل كلمة يتركها للاجيال التالية من قرائه ، فلم يسمح لقلمه بان ينساق وراء اغراء خياله الروائى ، أو وراء ميل خاص يستهدف أرضاء عواطف هذا الفريق أو ذاك من انصار الثورة أو خصومها .. وانما سيطر على قلمه سيطرة مثالية فريدة ، فخلت القصة من أى تحيز فى الحكم او ميل الى فريق دون فريق .. بل ان ديكنز كان متزنا الى أبعد الحدود ، فنصب فى يده ميزان العدالة الصارم ، بحيث لم يورد صغيرة أو كبيرة الا وقد استمدها من الحقائق الثابتة التى قام عليها أكثر من دليل ، أو على حد تعبيره فى تقديمه للقصة :

((لقد حققت ما قاساه أشخاص القصة وما فعلوه ، كما لو كنت قد قاسيته كله بنفسى وفعلته .. وحيثما ترد فى صفحات القصة أية اشارة - ولو ضئيلة - الى أحوال الشعب الفرنسى ، سواء قبل الثورة أو أثناءها ، فهى اشارة صادقة مستقاة من يقين شهود عدول .. وكل أملى ان اكون قد اضفت وسيلة جديدة تيسر فهم ذلك العصر الرهيب .. ولو أن أحدا لا يستطيع ان يطمع فى اضافة مزيد الى فلسفة تلك الثورة كما أرخها مستر ((توماس كارليل)) فى كتابه الخالد عنها ..))

وجريا على هذا المبدأ الذى رسمه ديكنز لنفسه فى كتابته للقصة ، لم يحاول ان يغض أو يغالى فى وصفه لتطرف الثوار ، فلم يفقد عهد الارهاب على صفحات القصة شيئا من الوانه الصارخة الدامية التى سجلها التاريخ .. ولا فقدت مذابح سبتمبر ، وسجون الثورة ، وعربات الموت ، والمقصلة .. ذرة من رهبتها ودلالاتها المروعة .. وهكذا رأينا غضب الثوار حين يفتك بحائكة ثياب بريئة ، عقابا لها على تهمة وهمية .. وعشنا مع الجماهير الصاخبة وقد أطلقت لعنفها العنان فعلقت فوق حرابها رأسا مبتورا لفتاة !

لكن ديكنز وهو يعالج ـ بامانة ـ تطرف الثوار ، لا يسمح لنفسه بأن ينسى لحظة طغيان النبلاء القدامى ، وتلك الحقبة الطويلة من المظالم والاضطهادات التى سبقت الثورة وكانت السبب المباشر الذى مهد لها ثم أطلقها من عقالها .. ومن ثم رأينا القصة تجمع فى مشاهدها المتناوبة بين تطرف هؤلاء ، وتطرف أولئك ـ فتتلاعب بعواطفنا من النقيض الى النقيض ! ـ دون أن تخل بموازين التقدير السليم والحياد الشريف ، العسير ، اللذين بقيا بمنجاة من كل شائبة .. يشهدان بعظمة ديكنز الخالدة .

وحبكة « قصة مدينتين » فى عنفها وقوتها ، تجمع كل العناصر الرئيسية لمآسى « أسخيلوس » اليونانية : فالنقمة التى تصيب فى الاولى أسرة « أفريموند » هى بعينها النقمة التى تصيب فى الاخيرة أسرة « أتريوس » .. والفطرسة فى الاثنين هى نفس الفطرسة ، التى تلد القسوة المتجردة من الانسانية .. وهذه تلد بدورها الجريمة .. والجريمة تولد الانتقام .. الخ. ـ حتى لا يبقى ثمة مخرج للقصتين آخر الامر غير استئصال شأفة الاسرتين اللتين كتبت عليهما اللعنة ! .. ولكن بالنسبة لكليهما ، يبرز فى اللحظة الاخيرة منقذ غير متوقع : ففى المأساة اليونانية تتدخل « بالاس أثينا » ، بحكمة آلهة جبل الاولمب الرصينة ، كى تنقذ « أوريستيس » المطارد من قبضة الناقمين ! .. وفى الثانية لا تقيض الاقدار لسليل أسرة افريموند منقذا من الآلهة الخالدين ، لكنها تسوق اليه منقذا من البشر لا تقل تضحيته السامية عن أفعال الآلهة !

مغزى العنوان !

ولعنوان القصة مغزاه الذى يوحى بقصد المؤلف الذى توخاه منه ، فهو قد أراد منه أن يقارن بين الفوضى التى كانت ضاربة أطنابها ـ فى وقت واحد ـ فى كل من فرنسا وانجلترا ، خلال الاعوام السابقة مباشرة لنشوب الثورة فى الدولة الاولى ، (ولو ان سوء الحالة فى فرنسا كان راجح الكفة فى هذه المقارنة) .. فلئن كانت محاكمة جاسوس وضيع فى محكمة

« أولد بيلى » الانجليزية حادثا كريها فى ذاته ، لكنه لا يعد شيئا بالقياس الى خطابات « الوشاية » التى زجت بطبيب برىء فى غياهب سجن « الباستيل » الفرنسى الرهيب ، دون أى اتهام أو محاكمة !

بقيت ملاحظة أخيرة عن شخصيات الرواية ، تتصل بطابع ديكنز الغالب فى قصصه ، وأعنى به تركيزه أكبر قدر من الجاذبية فى أشخاص « الصف الثانى » ، بحيث لا يملك القارىء الا أن يخصهم بنصيب من اعجابه يفوق نصيب بطل القصة أو بطلتها اللذين يحتلان المكان الاول من مسرح الحوادث ! .. والا فلتقارن شخصية « دافيد كوبرفيلد » مثلا بشخصية « مستر ميكوبر » .. أو قارن شخصيتى « دارنى » و « لوسى مانيت » ، بشخصية « سيدنى كارتون » فى قصتنا هذه ، تشعر بهذا الشعور الذى أحدثك عنه .. ولا سيما حين ساق ديكنز على لسان كارتون فى الفصل الختامى عبارات خالدة لعلها أروع ما كتب فى جميع رواياته على الاطلاق ـ بل ربما كانت من أروع ما كتب فى تاريخ الادب العالمى قاطبة ! ـ فأنت حين تقرأها للمرة الاولى ، أو للمرة العشرين ، لن تملك عينك الا أن تدمع ، وقلبك الا أن يدمى ، وضميرك الا أن يرتعش تأثرا وانفعالا ..

أما « ديفارج » ـ الزوج والزوجة ـ فيقفان فى صف وحدهما .. فهما من أعظم وأرهب مخلوقات ديكنز ، بل ربما مخلوقات الادب القصصى بأسره .. وهما لا يملكان الا أن يذكراك بمخلوقى شكسبير الخالدين أيضا : « ماكبث » ، و « ليدى ماكبث » ! .. فمثل ليدى ماكبث نرى مدام ديفارج وكأنها تخاطب زوجها المتخاذل فى أكثر من موقف : « أيها المتردد الواهن .. أعطنى الخنجر ! » .. ومع ذلك فان ليدى ماكبث أجفلت عن قتل « دنكان » العاجز بيديها حين رأته يشبه أباها وهو نائم ! .. أما مدام ديفارج فما كانت لتستشعر هذا « الضعف » ، أو تسمح له بأن يحيد بها عن هدفها .. فكان جوابها على كل مناشدة للرحمة أو الاعتدال : « قل للرياح والنار متى ينبغى أن تقف .. أما أنا فلا ! » .. ومع ذلك فنحن قد نلتمس لمدام ديفارج بعض العذر ، فان دوافعها كانت أقوى من دوافع بطلة شكسبير .. فهى لم تكن مدفوعة بمجرد المطامع الرخيصة ، وانما بذكريات المظالم القاسية التى صرخت فيها تطلب الانتقام ممن اضطهدوا قومها .. فلبث مدام ديفارج

نداءها ، متنقلة بين جماعة بعد جماعة من النسوة المنهمكات فى أشغال الابرة ، فى حى « سان انطوان » ، وكأنها رسول للنقمة والبغضاء ، والحقد والكراهية .. لكنه رسول تحسن الدنيا صنعا اذا لم تنجب مثيلا له مرة أخرى !

عزيزى القارىء ...

⦿ والآن ، أتركك لتطالع هذه الترجمة للطبعة الحديثة الملخصة عن النص الاصلى ، تلخيصا يناسب احتياجات القارىء العصرى ، (على نسق ما قدمته اليك فى العدد السابق « ٧٤ » من مجموعات كتابى ، الذى تضمن رواية تولستوى الخالدة « أنا كارنينا » فى نفس القالب العصرى) .. وقد تلقيت بشأن العدد السابق سيلا من رسائل الترحيب بهذا القالب ، وان كان هذا لا يعنى عدولى عن المضى فى نشر الترجمة «الكاملة» للشوامخ العالمية ، وفى مقدمتها هاتين الروايتين : أنا كارنينا ، وقصة مدينتين ، اللتين أتوق الى اليوم الذى أستطيع فيه أن أقدم لك الترجمة « الكاملة » لهما ، مهما بلغ حجمها .. واذا فسوف لا يغنى أحد القالبين عن الآخر ، وانما أعتزم باذن الله أن يسير القالبان جنبا الى جنب ، فيقرأ عشاق النص الكامل الطبعة المطولة التى تروقهم ، اما الذين يضيق وقتهم - أو صبرهم - عن قراءة النص الكامل ، ففى وسعهم أن يجدوا بغيتهم فى مثل هذه الطبعة العصرية المختصرة ..

دراسة تحليلية لعصر الرواية ، واحداثها ، وشخصياتها ..

⦿ وقد حرصت على أن أقدم لك فى الملزمة الاخيرة من هذه الطبعة الجديدة التى بين يديك ، دراسة تحليلية وافية - فى نحو ثلاثين صفحة - لشخصيات الرواية ، وأهم أحداثها ، والعصر الذى جرت فيه ، ووصفا ممتعا للاوضاع والحياة الاجتماعية والسياسية ، فى « المدينتين » اللتين أشار اليهما « ديكنز » فى عنوان الرواية ، وهما : لندن ، وباريس ..

والله ولى التوفيق .

حلمى مراد

المؤلف
١٨١٢ - ١٨٧٠



● ولد « تشارلز ديكنز » فى ٧ فبراير سنة ١٨١٢ من أبوين فقيرين .. واشتغل فى صباه « نقاشا » ، وفى شبابه الباكر كاتب محام ، ثم مخبرا صحفيا . لكنه كان يهوى الكتابة والأدب ، فثابر عليهما حتى ذاع صيته كمؤلف روائى - يعتبره الانجليز اليوم أعظم كتابهم الروائيين فى جميع العصور ! - وقد نبغ ديكنز فى وصف الشخصيات والأماكن ، ولا سيما من الطبقات الفقيرة والأحياء الفقيرة .. كما نبغ فى السخرية والدعابة ، وكرس قلمه اللاذع فى أكثر رواياته لاصلاح المفاسد الاجتماعية عن طريق شن حملات قاسية عليها ، الأمر الذى كان له فى حالات كثيرة أثره المباشر فى مبادرة الحكومات الى تصحيح هذه الاوضاع وازالة تلك المفاسد .

(اقرأ قصة حياة ديكنز مفصلة فى العدد ١٧ من « كتابى »)

مقدمة الكتاب

● كان العصر خير العصور ، وكان أسوأ العصور .. كان عصر الحكمة ، وكان عصر الحماقة .. كان عصر الايمان ، وكان عصر الشك والكفران .. كان موسم النور ، وكان موسم الظلام .. كان ربيع الأمل ، وكان شتاء اليأس .. كان المستقبل يعدنا

بكل شيء ، ولم يكن أمامنا مجال للأمل فى شيء .. كنا جميعا فى طريقنا المباشر الى النعيم ، وكنا جميعا فى طريقنا الى الجحيم .. وبالاختصار ، فقد كان ذوو السلطان يومئذ يصرون على أن يكون التطرف طابع العهد ، سواء فى الخير أو الشر !

وكان يجلس على عرش انجلترا ملك ذو فك بارز ، وملكة ذات وجه قبيح (١) .. وكان يجلس على عرش فرنسا ملك ذو فك بارز ، وملكة ذات وجه مليح ! (٢) .. وفى كلا البلدين ، كان واضحا وضوح الشمس لسادة الدولة أو الأوضاع فى مجموعها قد استقرت الى الأبد !

كان العام عام ألف وسبعمائة وخمسة وسبعين .. وكانت فرنسا تنحدر بسرعة من القمة التى تربعت فوقها زمنا . كانت تطبع أوراقا مالية وتنفقها ، وتتسلى الى جانب ذلك ـ تحت زعامة رؤسائها الدينيين ـ بطائفة من الأفعال « الانسانية » ، كأن تحكم على شاب بأن تقطع يداه ، وينتزع لسانه « بالكماشة » ، ويحرق جسمه وهو حى ! لا لذنب سوى أنه لم يخر ساجدا على ركبتيه ، اثناء انهمار المطر ، تحية واجلالا لموكب جماعة من الرهبان المارين على مرمى البصر ، على بعد أربعين أو خمسين مترا !

ولست استبعد انه ـ ساعة اعدام ذلك الشاب التعس ـ كانت تنمو فى غابات فرنسا أشجار كتب لها الحطاب الأعظم ـ القدر ـ أن تقطع يوما وتصنع منها منصة المقصلة التى خلد التاريخ فيما بعد سيرتها الرهيبة .. كما لست استبعد أن فى المخازن المتواضعة لبعض فلاحى الريف ، كانت تحتمى من قسوة الطقس فى ذلك اليوم المطير بالذات ، عربات نقل (كارو)

---

(١) جورج الثالث ، وزوجته صوفيا شارلوت .

(٢) لويس السادس عشر ، وزوجته مارى أنطوانيت .

ملطخة بالوحل ، وبقاذورات الخنازير وفضلات الدجاج .. وقد ادخرها الفلاح الأعظم — الموت — كى تكون هى بعينها ، فى عهد الثورة ، « عربات الموت » التى تحمل النبلاء المحكوم عليهم الى ساحة الاعدام !

لكن ذلك الحطاب وزميله الفلاح ، برغم أنهما كانا يعملان بلا انقطاع ، الا أنهما كانا يعملان فى صمت .. وهكذا لم يسمعهما أحد وهما يواصلان سيرهما الحثيث ، بخطوات مكتومة ، كان يكفى أن يرتاب انسان فى يقظة أصحابها كى يعد كافرا ، وخائنا ..

*

● **أما انجلترا ، فكان فيها من النظام والأمن ما يكفى كى يبرر التفاخر القومى ، أو الكبرياء الوطنى !.. كانت السرقات الجريئة بواسطة العصابات المسلحة ، وأعمال النهب والسلب وقطع الطريق ، تقع فى قلب العاصمة كل ليلة !.. وكانت العائلات تحذر علنا من مغادرة المدينة — ولو لأقصر فترة من الزمن — الا بعد أن تنقل أولا أثاث بيوتها الى مخازن عامة آمنة ، لحمايتها من اللصوص !**

وكان قاطع الطريق فى الليل ، هو بعينه التاجر الشريف فى النهار .. وكان لا يعدم فرصة يتعرف فيها عليه نفر من زملائه التجار الذين اعترض طريقهم وسلبهم أموالهم وهو متنكر فى زى (القبطان) ، فيطلقون الرصاص على رأسه فى شهامة ثم يواصلون سفرهم !

وكان كثيرا ما يحدث أن يعترض « عربة البريد » سبعة من قطاع الطرق ، فيقتل حارسها ثلاثة منهم قبل أن تنفد ذخيرته فيقتله الأربعة الباقون ويفوزون بغنيمتهم من المسروقات فى سلام !

وكان المسجونون فى سجون لندن يشتبكون فى معارك مع حراسهم ، ساخرين من سطوة القانون .. واللصوص ينشلون الصلبان الماسية من رقاب السادة النبلاء فى صالونات البلاط الملكى !.. والفرسان يقتحمون مبنى « سان جايلز » بحثا عن البضائع المهربة ، فيطلق الغوغاء النار على الفرسان .. ويطلق الفرسان النار على الغوغاء .. دون أن يرى أحد فى هذه الحوادث خروجا يعتد به على القانون والنظام !

وأثناء ذلك كله ، كان الجلاد مشغولا كالعهد به على الدوام : آنا يسوق أمامه صفوفا من المجرمين المختلفى النزعات .. وآونة يشنق يوم السبت لصا ضبط يسرق منزلا يوم الثلاثاء .. آنا يحرق أيادى العشرات من الناس عند بوابة (نيوجيت) ، وآونة يحرق المنشورات أمام باب قاعة وستمنستر ! اليوم ينتزع حياة قاتل أثيم ، وغدا حياة نشال تعس نشل من صبى فلاح مبلغا زهيدا قد يكون ستة بنسات !

*

● كل هذه الأشياء ، وآلاف مثلها ، كانت تحدث فى ذلك العام المبارك ، عام ألف وسبعمائة وخمسة وسبعين .. بينما الحطاب والفلاح يعملان بلا توان .. وذينك الملكان ، بفكيهما البارزين .. وتينك الملكتان ، بوجهيهما القبيح والمليح .. يطأون الأرض بخيلائهم ، وضجيجهم ، وهرجهم ، ويمارسون حقوقهم الالهية بسطوة جبارة .. ويد من حديد !

كل ذلك وعام ألف وسبعمائة وخمسة وسبعين ، يقود أصحاب الجلالة ــ كما يقود ربوات من المخلوقات الصغيرة الحقيرة ، وأفراد الجماهير الغفيرة (الذين من بينهم أبطال هذه القصة) ــ فى الطريق المحتوم الذى يترامى أمامهم !

الفصل الأول

حانة مسيو ديفارج

● **كان** حى « سان أنطوان » من أفقر أحيـاء باريس .. يطالعك على وجوه أطفـاله ، وفى أصواتهم الحزينة ، ذلك الذبول الذى هو طابع الكهول من الرجال . وقد ارتسم الجوع على وجه كل رجل وامرأة من ساكنيه ، وخلت حوانيته الا من أردأ بقايا اللحوم ، وأخشن ارغفة الخبز .. بحيث لم يكن فى الشـارع شيء بهيج سوى حوانيت بيع الاسلحة ، التى كانت تحـوى أحد السـكاكين ذات النصـال اللامعـة ، وأفتـك البنادق !.. وكأنما كانت هذه الأسلحة البراقة قابعة فى انتظار اليوم الذى تنطلق فيه من مكانها لتؤدى مهمتها الرهيبة !

وفى اليوم الذى تبـدأ فيه قصتنا كان برميل كبير من النبيذ قد سقط من احدى العربات فى شارع سان انطوان ، فانكسر وتدفق منه النبيذ الأحمر فوق أرض الشارع الحجرية ، وانساب بين شقوق الحجارة الخشنة ، وتكونت منه بحيرات صغيرة فى جحورها المنخفضة ..

وسرعان ما ترك أهل الحى القريبون من المكان أعمـالهم وهرعوا لينالوا نصيبا من النبيذ قبل أن تبتلعه الأرض ، فركع بعضهم وحاول أن يجمع جرعات منه فى يديه ، ولكن أكثره كان ينساب بين أصابعهم قبل أن يبلغ أفواههم !.. وجاء نفر منهم بأكواب وحاولوا أن يملأوها .. بينما غمس آخرون خرقا من القماش فى النبيذ وعصروها فى حلوقهم .. وهكذا رنت فى شارع الفقر والبؤس بعض الضحكات الجذلة ، لبضع لحظات .. ولـكن سرعان ما جف كل النبيـذ ، وماتت الضحكات ، وعاد التعساء الى ماكان يشغلهم من قبل ..

وغمس رجل طويل القامة اصبعه فى وحل الطريق ، الذى احمر من لون النبيذ ، ثم كتب على الحائط أربعة حروف كبيرة

قانية : « الدم ! » .

ولسوف يأتى يوم تسيل فيه الدماء فى شوارع حى « سان أنطوان » فتحيل أرضها الى حجارة حمراء !

*

● **كان** برميل النبيذ فى طريقه الى الحانة الواقعة عند منعطف الشارع ، فلما انكسر خرج صاحبها « مسيو ديفارج » على صوت الهرج ليرى ما يجرى . وكان الرجل قوى البنية ، فى نحو الثلاثين ، عارى الرأس ، ذا وجه تبدو عليه الطيبة فى مجموعه ، لكنه ينبىء عن قوة العزم ، والبعد كل البعد عن الضعف .. فهو من ذلك الطراز من الرجال الذين اذا استثيرت عداوتهم صاروا مبعثا للرهبة والخوف !

وقف مسيو ديفارج ينظر الى المعركة الناشبة حول النبيذ برهة ، ثم قال يحدث نفسه : « لا شأن لى بما حدث ، فما دام البرميل قد انكسر فعليهم أن يأتوا لى بغيره ! » .. وحينئذ أبصر بالرجل الذى كتب تلك الكلمة الدموية الرهيبة على الحائط ، فهتف به : « هل جننت يا جاسبار ؟ لماذا بربك تكتب هكذا فى الطريق العام ؟ أليست هناك أماكن أفضل من الشارع لتكتب فيها مثل هذه الكلمات ؟ » .

وعاد الى داخل الحانة ، حيث كانت تجلس زوجته مدام ديفارج – **وكانت امرأة فى مثل سنه ، ذات عينين نفاذتين ، ووجه صارم القسمات .. وان بدت حركاتها وتصرفاتها غاية فى الهدوء والاناة ! – فلما اقبل زوجها سعلت سعلة خفيفة وأشارت له بعينيها الى اتجاه معين ، لتسترعى انتباهه الى أشخاص دخلوا الحانة قبل لحظات ..!**

أدار صاحب الحانة بصره حواليه فى الاتجاه الذى أومأت اليه .. حتى استقرت عيناه على كهل تصحبه غادة فى مقتبل العمر ، وقد انتحيا ركنا من المكان .. وبرغم أنه كان فى الحانة رواد آخرون ، فقد كانوا جميعا مألوفين لصاحبها ، ما عدا

هذين الغريبين . فلما مر بهما لاحظ أن الكهل قد أومأ الى صاحبته كما لو كان يريد أن يقول لها : « هذا هو رجلنا ! » .

فحدث ديفارج نفسه : « ترى ماذا يفعل هذان الشخصان هنا ؟ اننى لا أعرفهما ! » .

وتظاهر بأنه لم يتنبه للغريبين ، واشتبك فى حديث مع ثلاثة رجال كانوا يشربون فى « البار » .. فقال له أحدهم : « كيف الحال يا **(جاك)** ؟ هل فرغ النبيذ كله من البرميل الذى انكسر ؟ » .

فأجابه ديفارج : « حتى آخر قطرة يا **(جاك)** » .

فقال الرجل الثانى : « انه ليس من المألوف أن يذوق هؤلاء التعساء طعم النبيذ ، بل طعم أى شىء سوى الخبز الأسود ، والموت ! أليس كذلك يا **(جاك)** » .

فأجاب مسيو ديفارج : « هو ذاك يا **(جاك)** » .

ووضع الثالث كأسه على المنضدة ، وهو يقول : « رباه ! ان هذا القطيع البائس ما يفتأ يحس بمرارة الحياة فى فمه .. فلكم يقاسى هؤلاء التعساء من شظف العيش ومشقته . ألست على حق يا **(جاك)** ؟ » .

فأجاب مسيو ديفارج : « انك لعلى حق يا **(جاك)** » .

ثم استرعت انتباهه حركة بدرت من مدام ديفارج ، فقال لمحدثيه : « أيها السادة ، ان الحجرة التى ترغبون فى رؤيتها تقع فى أعلى السلم .. فامضوا الى الدهليز ، وقد سبق لأحدكم أن عرف طريقه ، وهو سيقودكم .. » .

وعندئذ دفع الثلاثة حساب ما شربوا من النبيذ ومضوا .. واذ ذاك تقدم الكهل الغريب من مسيو ديفارج وطلب أن يتحدث اليه . وكان حديثهما قصيرا ، بدت خلاله علائم الانتباه العميق جلية على وجه مسيو ديفارج من البداية .. وبعد هنيهة أومأ لمحدثه برأسه وخرج . وعندئذ أشار الكهل الى الفتاة التى بصحبته واتجها ناحية الدهليز ..

.. بينما واصلت مدام ديفارج شغل الابرة ، دون أن يبدو عليها أنها لاحظت شيئا !

أما الكهل – وكان يدعى مستر « جارفس لورى » – ومرافقته « لوسى مانيت » ، فقد لحقا بصاحب الحانة فى الدهليز الذى كان قد أرشد الرجال الثلاثة اليه منذ برهة .. وهناك بدر من ديفارج تصرف غريب : ركع على احدى ركبتيه ولثم يد الفتاة بشفتيه !

كان ديفارج فى وقت ما خادما للدكتور مانيت ، والد لوسى مانيت ! وقد ماتت والدة لوسى والابنة لا تزال طفلة ، واختفى الأب فى ظروف غامضة بحيث لم يعلم أحد ما حدث له !.. وكانت أمواله مودعة فى مصرف « تلسون » بانجلترا ، فلما اختفى جاءوا بالصغيرة لوسى الى لندن حيث أقيم مستر « جارفس لورى » – الموظف ببنك تلسون والصديق القديم لوالدها – وصيا على أموالها ومتكفلا بأمر تنشئتها وتعليمها .. فعهد بها الى مربية انجليزية تدعى « مس بروس » كى تتولى تربيتها ورعايتها . وكانت هذه المرأة من الطيبة بحيث صارت لها بمثابة الأم ، ووهبتها حياتها طائعة مختارة ..

وها هى ذى « لوسى » قد غدت امرأة ، وهرعت اليوم الى باريس بصحبة مستر لورى سعيا الى التحقق من نبأ غريب بلغهما ، مؤداه **أن الوالد المفقود « الدكتور مانيت » الذى حسبه الجميع قد مات ، انما هو لا يزال على قيد الحياة ! وقد كان سجينا فى سجن باريس الكبير « الباستيل » ثم أطلق الآن سراحه ونقل الى حيث يقوم على رعايته خادمه القديم ديفارج ..**

ولم يكد ديفارج يعرف شخصية زائرى حانته الغريبين ، حتى انتصب واقفا وقد أصاب سحنته تغير ملحوظ ، بدد منها كل أثر للمرح أو الرضى ، وأحل مكانه نظرة غضب وكراهية .. لأولئك الذين ارتكبوا اثما شنيعا فى حق رجل يحبه !

وقال ديفارج وهو يقود الزائرين الى الدهليز المؤدى الى أعلى : « ان درجات السلم عالية ، فلنصعد على مهل .. » .

فهمس لورى يسأله : « هل الدكتور مانيت بمفرده ؟ » .

ــ طبعا ، لقد ألف الوحدة منذ أمد طويل بحيث لم يعد يحتمل صحبة انسان آخر !

ــ وهل تغير كثيرا ؟

ــ تغير ؟ انك سوف لا تعرفه !

فلما اقتربوا من نهاية السلم أخرج ديفارج من جيبه مفتاحا .

ــ هل توصد دونه الباب ؟

ــ أعتقد أن ذلك أسلم له ..

ــ لمـــاذا ؟

ــ لمـاذا ؟ لأنه عاش فى السجن دهرا طـويلا حتى صار يرتاع اذا ترك بابه مفتوحا !

فقال مستر لورى وقد تملكه العجب :

ــ رباه .. أهذا ممكن ؟

فأجاب ديفارج فى مرارة :

ــ نعم ، ممكن .. بل ان مثل هذه الأمور ليست ممكنة فحسب فى عالمنـا الجميل ، وانما هى تحدث فى الواقع كل يوم .. هذا ما صارت اليه الحال فى فرنسا !

تبودل هذا الحوار بصوت خافت كالهمس ، بحيث لم يبلغ حرف منه مسامع الفتاة .. وبرغم ذلك فانهم لم يصلوا الى نهاية السلم حتى ارتعدت لوسى وبدا على وجهها من علائم الجزع والفزع ما جعل مستر لورى يحاول التسرية عنها ، فقال لها متلطفا :

ــ تشجعى يا عزيزتى !.. تشجعى ! فلن تمر لحظات حتى ينقضى أسوأ احتمال .. فلا تفكرى الا فى السعادة التى ستغمره حين يراك !

وأخيرا اقتربوا من نهاية السلم ، فلم يكادوا يدورون حول المنحنى الأخير حتى رأوا ثلاثة رجال ينظرون الى داخل احدى الغرف خلال شرخ فى الباب .. فلما سمع هؤلاء وقع الأقدام الصاعدة استداروا وانتصبوا .. فاذا هم أولئك الثلاثة بعينهم الذين كانوا يشربون فى الحانة قبل دقائق .. فقال لهم ديفارج : «اتركونا أيها الرفاق ، فان أمامنا مهمة نؤديها هنا» .

فانسحب الثلاثة وهبطوا السلم دون أن يجيبوا بكلمة .. بينما التفت مستر لورى الى ديفارج وهمس له وقد بدا عليه الغضب : « ماذا .. أو تجعل من مسيو مانيت مسخا يتفرج عليه الناس ؟ »

ــ بل اننى لا أعرضه الا على قليلين .. على من يفعل فيهم المنظر فعله ! وهم جميعا يحملون اسما بعينه : « جاك » .. لكنك انجليزى ولن تفهم ، فأرجوك أن تنتظر هنا قليلا ..

ودق ديفارج الباب بمفتاحه كما لو كان يريد أن يعطى انذارا للشخص الموجود فى الداخل .. ثم وضع المفتاح فى القفل وأداره فى بطء ، حتى اذا انفتح الباب أطل داخل الغرفة وقال شيئا .. فأجابه صوت خافت . واذ ذاك التفت خلفه وأشار الى مرافقيه بالدخول .. فوضع مستر لورى ذراعه حول خصر الفتاة وجذبها قائلا : « ادخلى ، ادخلى .. » .

فأجابت وهى ترتعد : « اننى خائفة ! » .

ــ خائفة من ماذا ؟

ــ اننى خائفة منه .. من أبى !

فطوق رقبته بذراعها المرتعدة ، وجذبها الى داخل الغرفة .

كان يجلس فى الداخل ــ فوق مقعد خشبى عريض ــ رجل أبيض الشعر ، يولى ظهره نحو الباب ووجهه نحو النافذة التى أمامه ، وقد انحنى فى جلسته على شىء .. كان منهمكا ، منهمكا للغاية .. يصنع أحذية !

الفصل الثانى
صانع الأحذية

● **قال** مسيو ديفـــارج وهو ينظر الى الرأس الأبيض المنكفىء على العمل : « يوم سعيد » .

وارتفع الرأس الأبيض هنيهة ، ثم أجاب صوت خافت : « يوم سعيد » .

ــ انك مازلت تعمل عملا متواصلا فيما أرى ؟

وبعد سكوت طويل ارتفــع الرأس مرة أخرى ، وأجاب الصوت الخافت : « نعم ، اننى ما زلت أعمل .. » .

وكان خفوت الصوت مدعاة للاشفاق والرثاء ، وقد بدا أنه لم يبلغ هذه الدرجة من الوهن نتيجة للضعف الجسمانى فحسب ، وانما نتيجة لسبب آخر أيضـــا ، هو « عدم الاستعمال» زمنا طويلا !.. وكان الكهل يرتدى أسمالا بالية ، وله لحية بيضاء ، ووجه ضامر ، وعينان صافيتان للغاية ، حتى لتبدوان أوسع من عيون سائر الناس ..

ولم يبـــد أدنى مبـــالاة بزائريه ، بل بدا كأنه لم يحس أو يعلم حتى بوجودهم فى المكان !.. فقد كان واضحا أن عقله أصيب باختلال من جراء السجن الطويل ..

وتقدم مستر لورى منه فى هدوء ، تاركا « لوسى » عند الباب .. فقال ديفارج يخاطب المسكين : « ان لديك ضيفا ، فاعرض عليه الحذاء الذى صنعته . واشرح له من أى نوع من الأحذية هو .. » .

فأجاب الصوت الواهن : « انه حذاء سيدة ، حذاء سيدة صغيرة . وهو من آخر طراز .. مع أنى لم أر حذاء مثله من قبل ، لم أر سوى تصميم مصغر .. » . ونظر الى الحذاء فى شىء من الفخر والمباهاة ، بصنعة يديه !

بينما سأله مستر لورى : « وما اسمك ؟ » .

ـ اسمى ؟ مائة وخمسة ، البرج الشمالى ..
ـ ماذا ؟ أهذا كل شيء ؟
ـ مائة وخمسة ، البرج الشمالى ..

وسأله مستر لورى : « ولكن مهنتك الأصلية ليست هى صناعة الأحذية ، أليس كذلك ؟ » .

سكت الكهل المسن هنيهة ثم أجاب : « كلا . ليست مهنتى صناعة الأحذية . ولكنى تعلمتها فى السجن .. فقد أذنوا لى بذلك ! » .

وحدق مستر لورى فى وجهه بنظرة ثابتة ، ثم سأله : « دكتور مانيت ، ألا تتذكرنى ؟ » .

وسقط الحذاء من يد الكهل على الأرض .. ونظر الرجل متعجبا للزائر الذى مضى يلحف فى سؤاله :

ـ دكتور مانيت ، ألا تتذكر مسيو ديفارج الواقف هنا ؟ ألا تتذكر جارفس لورى ، الموظف القديم بالبنك ؟

نقل سجين السنين الطويلة بصره من رجل الى آخر .. وبدا أن علامة ادراك قد غشيت وجهه .. ثم اختفت ! عاد الظلام فطمس عقله من جديد .. فالتقط الحذاء من الأرض ، واستأنف العمل فيه ..

وببطء .. ببطء شديد .. اقتربت لوسى من مقعد صانع الأحذية ، ووقفت بجانبه .. وهو مكب على عمله ..

ووقعت منه السكين ، فلما انحنى ليلتقطها ، وقعت عينه على طرف ثوب الفتاة .. فنظر اليها مرتاعا ، وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة .. أما الرجلان فقد تملكهما الخوف والوجل ، فقد كانت السكين فى يده ، وكانت هى قريبة جدا منه !.. ولكنها لم تبد أية علامة تنم عن الخوف ..

وسألها الكهل : « من أنت ؟ هل أنت ابنة السجان ؟ » .

فأجابت وهى تتنهد : « كلا .. » .

ـ من أنت اذن ؟

لم تقو على الكلام ، ولكنها جلست بجانبه على المقعد .. فابتعد عنها .. ولكنها وضعت يدها على ذراعه ، فسقطت السكين من يده .. وفى هذه المرة لم يتحرك لالتقاطها ، بل ظل ساهما ينظر الى الفتاة ..

كان شعرها الذهبى نائما فى خصلات على كتفيها . وفى تهيب وضع يده ليلمسه . ثم ندت عنه تنهدة عميقة ، وواصل عمله فى صنع الحذاء ..

وبعد هنيهة توقف مرة أخرى ، فلمس شعر لوسى ثانية ، وجعل يتأمله بامعان .. ثم قال أخيرا : « أنه هو نفسه ، ولكن كيف يمكن أن يكون هذا ؟ » .

ومد يده الى رقبته فتناول خيطا قد أسود لونه ، ينتهى بخرقة بالية ملفوفة .. وفتحها بعناية على ركبته . كانت تحوى بضع شعرات .. شعرات قليلة طويلة ذهبية ، كان من زمن بعيد جدا يلفها حول اصبعه !

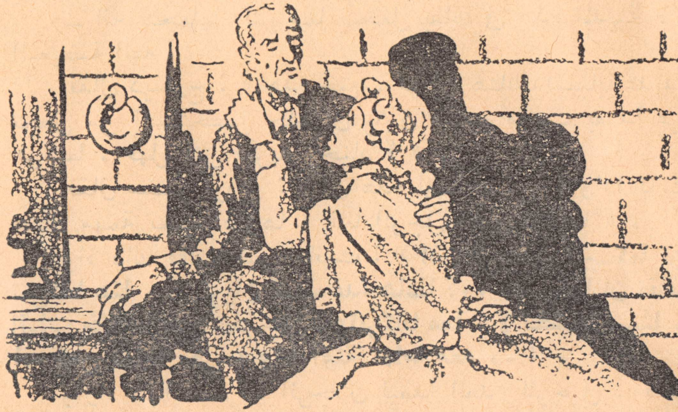
ثم أخذ شعرها فى يده مرة أخرى ونظر اليه مليا .. وأردف :

ــ انه هو بذاته . ولكن كيف يمكن ذلك ؟ لقد وضعت رأسها على كتفى فى تلك الليلة حينما استدعونى .. وعندما ذهبوا بى الى « البرج الشمالى » وجدت هذه الشعرات على سترتى ..!

واستدار اليها على غرة بلفتة مفاجئة مخيفة .. ولكنها ظلت رابطة الجأش !.. وحين تأهب ديفارج ومستر لورى ليخفا الى نجـــدتها ، ابتدرتهما فى هدوء : « أرجوكما .. لا تقتربا منا ، أو تنطقا بكلمة ، أو تأتيا بحركة ..! » .

فصاح الكهل : « صوت من هذا ؟ ما اسمك ؟ » .

ــ أوه ، يا سيدى ، فى وقت آخر سوف تعرف اسمى ، ومن كانت أمى ، ومن كان أبى ... فانى لن أستطيع أن أبوح لك بذلك الآن ، ولا فى هذا المكان . كل ما يمكننى أن أقوله



لك اننى أحبـــك ، واننى أضرع اليـــك أن تقبلـــنى ، وأن تباركنى ! » .

وأحاطت عنقه بذراعها ، وأراحت رأسه على صدرها .. كما لو كان طفلا !.. ثم راحت تهدهده :

ـ أشــكر الله على أن تعاستك الطويلة قد انتهت .. ولسوف نرحل من هنا الى انجلترا لنعيش فى سلام ، وفى راحة .. نعم : راحة ، راحة تامة .. فشكرا لله الذى بعد كل ما قاسيت ، أعاد اليك السلام أخيرا ! .

ولبثا هكذا وقتا طويلا ، وذراعها حوله . ثم تسلل منها فى رفق الى الأرض .. وساد سكون عظيم بعد العاصفة . لقد نام فى سلام وسكينة ، كطفل !

وانحنى مستر لورى على الكهل النائم ، وقال : « ينبغى أن نمضى به الآن ، فورا ! » .

فقالت لوسى : « ولكن هل يتحمل مشقة السفر ؟ » .

ــ انه يتحملها أكثر مما يتحمل بقاءه فى هذه المدينة .. البغيضة اليه !

فقال ديفارج : « هذا حق . ثم أن هنالك أسبابا عديدة تجعل من المستحسن جدا أن يكون مسيو مانيت بعيدا عن فرنسا . فهل آتى بعربة وجياد ؟ » .

فقال مستر لورى : « ان هذه لمهمة عسيرة ، واذا كانت هناك مهمة يجب أداؤها ، فأنا الرجل الذى يؤديها » .

واذ ذاك قالت مس مانيت : **« اذن فرجائى اليكما أن تتركانا هنا . أو تريان كيف غدا هادئا ؟.. حسبكما أن تغلقا الباب خلفكما حين تخرجان ، واتركانا معا . لا تخشيا شيئا . انه آمن تماما معى ، وأنا آمنة تماما معه .. »** .

وازاء هذا انصرف الرجلان ليعدا العدة للرحيل . فلما ذهبا ، جلست الابنة تراقب أباها . واشتد تكاثف الظلام شيئا فشيئا ، والكهل مستغرق فى سبات عميق .. حتى تسلل ضوء الفجر من شق فى الباب ، مؤذنا بحلول وقت الرحيل ..

وحين عاد الرجلان أطاع الكهل ثلاثتهم ، شأن من اعتاد طويلا أن يؤمر فيطيع ، فأكل وشرب ما أعطوه ، وارتدى الملابس التى جاؤوه بها .. ثم غادر الغرفة معهم وقد أخذت لوسى ذراعه ، بينما تناول هو يدها بين يديه وظل ممسكا بها ..

وبدأ الجمع يهبط السلم .. وحين بلغوا الشارع لم يكن أمام الحانة مارة يشهدون رحيلهم .. لم يشهده غير شخص واحد ، هو مدام ديفارج .. التى اتكأت على منضدتها عند مدخل الباب وهى تواصل أشغال الابرة ، وقد بدت كأنها لم تر أو تلحظ شيئا !

الفصل الثالث

المحاكمة

● **كان** بنك تلسون فى لندن من الأبنية المعتبرة من الطراز العتيق ، حتى فى سنة ١٧٨٠ ! فقد كان صغيرا جدا ، ومظلما جدا ، وقبيحا جدا ، ولكن أصحابه كانوا فخورين بصغره ، وبظلمته ، وقبحه .. لاعتقادهم انه لو بدا فى حالة أحسن من هذه ، فانه يكون أقل احتراما فى أعين العملاء !

ولم يكن الناس ليبصروا بين الموظفين القائمين بالعمل ، فى هيبة ، ووقار ، داخل جدرانه ذات التقاليد المشرفة .. سوى العجائز الذين أكل عليهم الدهر وشرب ! بحيث كان الاعتقاد السائد أنه اذا اشتغل شاب فى البنك ، فانهم يخفونه حتى يغدو متقدما فى السن الى الدرجة التى تؤهله لأن يظهروه بعد ذلك أمام الناس !

وفى صبيحة يوم من أيام شهر مارس ، أرسل موظف من أقدم المستخدمين فى البنك يستدعى اليـه المدعو « جيرى كرانشر » (وهو الساعى الذى يمضى وقته فى العادة جالسا خارج الباب) .

وقال المستخدم المسن : « هل تعرف المحكمة المسماة (أولد بيلى) ؟ » .

فقال جيرى فى شىء من القلق : « نعم يا سيدى » .

ـ وهل تعرف مستر لورى ؟

ـ أعرفه خيرا مما أعرف الـ « أولد بيلى » يا سيدى .

ـ حسنا جدا . اذهب اذن الى بواب المحكمة وأبرز له هذه الرسالة الموجهة الى مستر لورى ، فيسمح لك

بالدخول . وعندئذ قـدم نفسك الى مستر لورى المذكور ، وانتظر حتى يطلبك .

أخذ جيرى الخطاب وانحنى للمستخدم ، ثم انطلق الى المحكمة .. فلما وصل اليها ، وجد أن عليه أن يشق طريقه بين زحام شديد من جماهير المتفرجين القذرين الذين جذبهم من كل حدب وصوب شوقهم الملح الى مشاهدة المحاكمة التى ستجرى فى ذلك اليوم ، كى يمتعوا أنفسهم بلذة التفرج على المتهم المقبوض عليه !

وكانت الأبواب كلها مخفورة بحراسة شديدة ، ولكن لم يكد جيرى يبرز الخطاب للحـراس ، حتى فتحوا له أحد الأبواب ليدخل منه ..

وسأل جيرى رجلا قريبا منه : « ما هى القضية التالية ؟ »

ـ قضية « تشارلس دارنى » ، المتهم بالتعاون مع أعداء ملك انجلترا !

واذ ذاك رأى جـيرى بواب المحكمـة يذهب الى مستر لورى ، حاملا الخطاب الذى فى يده . وكان لورى جالسا بين المحامين فى المكان المخصص لهم فى قاعة المحكمـة .. وكان محامى دارني ـ ويدعى سترايفر ـ جالسا وقد تناثرت أمامه أوراق كثيرة .. بينما جلس فى مواجهته شخص آخر يبدو كأن كل التفاته منصرف الى تأمل السقف !.. فلما وقعت عين مستر لورى على جيرى كرانشر أومأ اليه فى هدوء .

ودخل القاضى قاعة الجلسة فانقطع كل حديث .. ثم سيق المتهم الى القاعة ، فتطلعت اليه جميع الأنظار وأشرأبت الأعناق .. ما عدا ذلك الشخص الذى كان يتأمل السقف فى غير مبالاة ، ويرتدى ثيابا يبدو عليها الاهمال .. وكان يدعى « سيدنى كارتون » .

وكان المتهم « تشارلس دارنى » شابا فى نحو الخامسة

والعشرين ، بادى التهذيب والهدوء .. وقد انحنى للقاضى فى أدب ، ثم خيم على قاعة المحكمة سكون شامل ، وكان قد أعلن فى جلسة الأمس أنه برىء من التهمة الموجهة اليه ، وهى تهمة التجسس لحساب لويس ملك فرنسا فى حروبه ضد ملك انجلترا ، والتنقل لهذا الغرض بين انجلترا وفرنسا لاخطار الفرنسيين بما كان ملك انجلترا يعده من جيوش ينوى ارسالها الى كندا وشمال أمريكا .. **وقد أنصت المتهم لكل هذه الادعاءات الموجهة اليه ، فى هدوء .. حتى حانت منه نظرة الى يساره فوقع بصره على شخصين لم يكد يراهما حتى تغيرت سحنته الى درجة لفتت اليهما انتباه كل من فى القاعة !**

كان هذان الشخصان : غادة لم تكد تجاوز العشرين ، وكهل كلل المشيب الناصع شعره وبدا جليا أنه أبوها . وكانت الابنة — لوسى مانيت — تأخذ احدى ذراعيه فى يدها ، وهى ترمق المتهم بنظرة تنطق بالاشفاق البالغ ! وقد عرف جيرى كرانشر من الجمهور الذى يحيط به أن الفتاة وأباها قد حضرا كشاهدين ضد المتهم !

* * *

ووقف المدعى العام ليشرح القضية للمحكمة ، فقال : « لقد اعتاد المتهم التنقل بين انجلترا وفرنسا لبعض أعماله ، التى ما كان يمكن لأحد أن يعرف ماهيتها ، حتى حدث أن اكتشف أمرها بالمصادفة رجل مخلص هو جون بارساد ، الذى كان فى يوم من الأيام صديقا للمتهم .. كما أن خادم المتهم « روجر كلاى » وجد فى جيوبه وفى حجرته أوراقا كان من بينها قوائم بتعداد الجيوش الانجليزية واتجاهاتها . وهذه القوائم وان لم يمكن اثبات أنها بخط المتهم ، الا أن

هذا يدلنا على أنه رجل ذكى وحريص ، وقد حاول بهذه الطريقة أن يغطى مظاهر نشاطه ! »

واستدعت المحكمة « جون بارساد » المذكور ، وسمعت شهادته بصدد هذه التهمة .. ثم استجوبه مستر سترايفر محامى المتهم :

– ألم تكن جاسوسا من قبل ؟

– طبعا لا .

– ألم يحكم عليك يوما بالسجن ؟

– لا ..

– ألم تدخل أبدا سجن المدينين المماطلين ؟

– لست أرى علاقة بين ذلك وبين موضوعنا ..

– أجب ، ألم تدخل أبدا سجن المدينين ؟

– بلى .

– كم مرة ؟

– مرتين أو ثلاثا ..

– ألم يحكم عليك فى جريمة مخلة بالشرف ؟

– كان ذلك فقط فى لعبة قمار . وقد نسبوها الى ظلما وهم سكارى .

– أأنت متأكد أنك تعرف المتهم جيدا ؟

– نعم .

– هل كنت تنتظر أن تعطى أجرا نظير ما أدليت به من معلومات ؟

– طبعا لا !

ثم جاء بعده روجر كلاى ، فقال انه رأى مرارا مثل هذه القوائم حينما كان يرتب ملابس المتهم . وقد وجد القوائم الحالية – المقدمة الى المحكمة – فى حجرة المتهم ، ورآه يعرضها ذات مرة على رجل فرنسى فى (كاليه) ..

فلما سأل مستر سترايفر الشاهد هل كان لصا فى يوم من الأيام ، أجاب بالايجاب !

ثم جاء بعد ذلك دور مستر لورى . فسئل عما اذا كان قد رأى المتهم من قبل ، فأجاب بأنه رآه يصعد الى ظهر السفينة فى (كاليه) ..

ـ فى أى وقت صعد الى السفينة ؟

ـ بعد انتصاف الليل بقليل .

ـ من كان يرافقك فى السفر يا مستر لورى ؟

ـ رفيقان .. رجل وسيدة ، وهما هنا .

ـ « مس مانيت » !

واذ نوديت الفتاة التى اتجهت اليها الأنظار كلها من قبل ، نهضت لتؤدى الشهادة :

ـ مس مانيت ، انظرى الى المتهم .

لقد كان من الصعب على تشارلس دارنى أن يواجه هذا الجمهور الذى ازدحمت به قاعة المحكمة ، ولكنه حتى الآن كان يبدو هادئا رابط الجأش . الا أنه أمام ذلك الشباب ، وذلك الجمال ، وذلك الاشفاق الذى أبدته نحوه لوسى مانيت .. اختلجت شفتاه انفعالا !

ـ مس مانيت ، هل رأيت المتهم من قبل ؟

ـ نعم يا سيدى

ـ أين ؟

ـ على ظهر السفينة التى ورد ذكرها الآن .

ـ وهل تحدثت معه ؟

ـ عندما أتى الى ظهر السفينة ، لاحظ أن والدى كان متعبا جدا وفى حالة صحية سيئة للغاية ، فتكرم وساعدنى فى حمايته من الريح وقسوة الطقس ..

ـ وهل صعد الى ظهر السفينة بمفرده ؟

ـ كلا .

ـ كم من الأشخاص كانوا معه ؟

ـ رجلان فرنسيان .

ـ هل تبودلت بينهم أوراق ، كهذه القوائم مثلا ؟

ـ لقد رأيت معهم أوراقا ، ولكننى لا أعلم من أى نوع كانت ..

ـ وماذا قال لك المتهم ؟

ـ لقد كان مثالا للطيبة والشفقة ، وقدم لوالدى عونا كبيرا .

وهنا تساقطت دموع الشاهدة تأثرا وأردفت : « وانى آمل ألا أكافئه اليوم على صنيعه بما يؤذيه ! » .

ـ كلنا نعلم يا مس مانيت أنك جئت الى هذه المحكمة بغير اختيارك ، كى تؤدى واجبا عليك .. فاستمرى فى الادلاء بمعلوماتك .

ـ لقد قال لى انه مسافر فى مهمة دقيقة ، ولذلك فانه يتخذ لنفسه اسما مستعارا . وأضاف أنه قد يضطر الى أن يسافر بين فرنسا وانجلترا مرات عديدة فى المستقبل .

ـ هل قال شيئا عن أمريكا ؟

ـ لقد حاول أن يوضح كيف بدأت هذه الحرب ، وكان من رأيه أن انجلترا مخطئة فى موقفها ، ثم أضاف مازحا أن جورج واشنجتون سوف يكون مشهورا فى التاريخ مثل جورج الثالث .

رفع القاضى بصره عن أوراقه فى دهشة وغضب عند سماعه هذه الكلمات ، ولاحظ كل من فى القاعة مبلغ الجزع الذى بدا على الشاهدة بمجرد تفوهها بها ..

ثم استدعى بعد ذلك « الدكتور مانيت » ، وسئل عما اذا كان قد رأى المتهم من قبل ؟

ـ مرة واحدة ، عندما زارنى فى لندن .

ـ هل سافر معك على ظهر السفينة ؟

ـ لا يمكننى أن أجيب على هذا السؤال !

ـ هل هناك أى سبب خاص يدعوك الى هذا الامتناع؟

ـ نعم .

ـ هل كان من سوء حظك أن قاسيت عذاب السجن الطويل فى وطنك ، بدون محاكمة أو اتهام ؟

ـ نعم ، كان سجنا طويلا .

ـ هل كنت حديث العهد باطلاق سراحك ، حين التقيت بالمتهم على ظهر السفينة ؟

ـ لقد قالوا لى ذلك ..

ـ ولكن ألا تتذكر أنت شيئا بهذا الشأن ؟

ـ لست أتذكر شيئا مما جرى فى الفترة بين وقت اشتغالى بصناعة الأحذية فى السجن ، والوقت الذى وجدت فيه نفسى أعيش فى لندن مع ابنتى العزيزة !

ثم نودى على شاهد آخر ، قرر أنه رأى المتهم فى أحد الفنادق بمدينة ذات أهمية عسكرية خاصة ، كان فيها حوض لبناء السفن ومعسكر للجنود . وقد حاول ممثلو الاتهام التدليل من ذلك على أنه ذهب الى هناك ليحصل على معلومات هامة !

وطوال الوقت الذى استغرقته شهادة الشهود السالفين ، كان المدعو سيدنى كارتون يبدو كمن لا يلاحظ شيئا مما يجرى حوله ، مكتفيا بالجلوس فى مكانه بلا حراك ، والتطلع الى السقف ! **لكنه على أثر سماعه العبارات الأخيرة خرج من عزلته فكتب بضع كلمات على ورقة وناولها لمستر سترايفر ، الذي لم يكد يقرأها حتى سأل الشاهد :**

– هل أنت واثق من أن الشخص الذى رأيته كان هو المتهم ؟

– تمام الثقة .

– ألم تر قط شخصا آخر يشبه المتهم ؟

– لم أر من يشبهه الى الدرجة التى أخطىء معها فى التعرف عليه ..

– اذن انظر جيدا الى هذا السيد ، صديقى المحامى الجالس هناك !

قال سترايفر ذلك مشيرا الى الرجل الذى أعطاه الورقة .. ثم استطرد قائلا :

– هل تظن أنه يشبه المتهم ؟

وعلى الرغم من أن صديقه كان زرى الثياب وبادى الاهمال فى مظهره ، وكان يرتدى زى المحامين ، فقد استطاع كل من فى المحكمة أن يلحظ الشبه العجيب الذى بينهما !

.. وعندئذ استطرد مستر سترايفر : « اذا كان قد وجد فى



هذه المحكمة بالذات ـ بمحض المصادفة ـ رجل آخر يشبه المتهم الى هذا الحد .. فانه يحتمل جدا أن يكون قد وجد فى ذلك الفندق شخص آخر يشبهه بنفس الدرجة !

وبذلك باتت هذه الشهادة معدومة القيمة او الدلالة .. واذ لم يبق هناك شهود آخرون تسمع شهادتهم ، سمعت المرافعات الختامية ، وأبدى القاضى ملاحظاته ، ثم غادر المحلفون الاثنا عشر قاعة المحكمة كى يخلوا للمداولة تمهيدا لاصدار حكمهم ..

ولابد أن مستر كارتون كان يلاحظ ما يدور فى الجلسة بانتباه يفوق ما بدا عليه ، اذ لم يكد يغمى على مس مانيت حتى كان هو أول من صاح :

ـ أيها الضابط ، ساعد السيد كى يأخذ الآنسة الى خارج المحكمة ! ألا ترى أنها على وشك السقوط ؟

وبدا على المتهم أنه تأثر تأثرا عميقا بالاضطراب الذى سببه لمس مانيت ، فسأل مستر كارتون أن يعرب لها عن بالغ أسفه لكونه تسبب فى ازعاجها ..

وغاب المحلفون ساعة ونصف ساعة ، وخلال هذا الوقت راح كرانشر فى سبات عميق .. فلما أيقظته عودتهم الى القاعة ، اتجه من فوره الى مستر لورى ، الذى ناوله ورقة كتب عليها فى عجلة ظاهرة هاتين الكلمتين : « حكم بالبراءة ! » .

الفصل الرابع

سيدني كارتون



⊙ **وكان** فى استقبال « تشارلس دارنى » خارج المحكمة أصدقاؤه : الدكتور مانيت ، ولوسى مانيت ، ومستر لورى ، ومستر سترايفر الذى تولى الدفاع عنه .. ثم مستر كارتون ، مساعد سترايفر .

وكان من العسير على من يرى الدكتور مانيت الآن أن يتعرف فيه على « صانع الأحذية » الذى رأيناه فى باريس.. فقد كان ظاهراً أنه عوفى تماما من تجربته القاسية ، وغدا بشوش الوجه معتدل القامة ، بادى الصحة والقوة .. غير أن ذكريات سجنه كانت تعاوده أحيانا ، فتغشى وجهه منها سحابة سوداء ! .. وفى مثل هذه اللحظات لم يكن فى مقدور أحد سوى ابنته المحبوبة لوسى أن يدفع عنه تلك الغيمة ..

وحين أقبل مستر دارنى على مستقبليه من الأصدقاء ، بدأ بأن لثم يد مس مانيت فى امتنان ، ثم وجه شكره بحرارة الى محاميه مستر سترايفر ، الذى قال له : « اننى مسرور لكونى قد أنقذت حياتك وشرفك يا مستر دارنى .. فقد كانت التهمة الموجهة اليك تهمة حمقاء ولكنها بالغة الخطورة .. » .

فأجاب دارنى : « لقد أنقذت حياتى ولن أنسى ذلك أبدا ! » .

بينما قال مستر لورى : « لقد كان يوما مزعجا لنا جميعا : فالآنسة لوسى تبدو مريضة ، ومستر دارنى قضى ساعات رهيبة ، وقد أنهكنا التعب جميعا . فدعونا نعود الى منازلنا وننام » .

فقال مستر سترايفر : « أنت تتكلم عن نفسك . أما أنا فأمامى عمل سأقضى فيه الليل بأكمله .. » .

واتجه الدكتور ببصره الى دارنى ، وبدت فى عينيه وهو يفعل ذلك نظرة غريبة .. نظرة كراهية ، بل نظرة خوف !

وقالت لوسى لأبيها وهى تضع يدها فوق يده : « يا أبى ، هل نعود الى البيت ؟ » .

فزفر زفرة طويلة وأجاب : « نعم » .. ثم استدعيت عربة ركبها الأب وابنته ، وانصرف فى أعقابهما مستر سترايفر بدوره ، يتبعه مستر لورى . وهكذا لم يبق سوى دارنى وكارتون .

وقال كارتون : « يبدو عليك الاعياء يا مستر دارنى » .

فأجاب دارنى : « أشعر فعلا بالاعياء الشديد .. » .

ـ اذن تعال واشرب معى بعض النبيذ ، فانى أعرف حانة يقدم فيها نبيذ جيد .

وسرعان ما كان الرجلان جالسين فى مواجهة أحدهما

الآخر .. فسأل كارتون شبيهه : « هل تشعر أنك عدت الى الحياة مرة أخرى ؟ » .

ـ نعم .. انى ما زلت مضطربا ، ولكننى أشعر بما تقول !

وملأ كارتون كأسه بالنبيذ ، وأفرغها فى جوفه .. ثم قال : « ان هذا الشعور لا بد أن يمنحك راحة وطمأنينة .. أما أنا ، فان رغبتى العظمى هى أن أنسى أننى أنتسب الى هذا العالم .. فليس فيه ثمة شيء طيب يستطيع أن يمنحنى اياه .. ولا فى أنا شيء صالح ينفعه .. » .

لم يعرف تشارلس دارنى كيف يجيب على هذا القول .. بينما استطرد كارتون : **« ان مس مانيت غادة مكتملة الجمال ياصاحبى .. فما أروع أن يكون الانسان موضع عطف ورثاء حسناء فاتنة مثلها ! ؟ أنها تعطف عليك وتبكى من أجلك ، لقد رأيت ذلك بنفسى ! »** .

ومرة أخرى لم يجب دارنى ، وانما اكتفى بأن شكر محدثه من أجل معاونته الفعالة له أثناء المحاكمة .. فأجابه كارتون : « لست أريد منك شكرا ولا أنا أستحقه .. ولكن دعنى أسألك يامستر دارنى : هل تظننى حقا أشبهك ؟ » .

ـ الحقيقة يامستر كارتون ، أننى لم أفكر فى ذلك من قبل ..

ـ حسنا ، فكر فيه الآن اذن ..

فأجاب دارنى : « لقد تصرفت كما لو كنت تشبهنى ، ولكنى لا أظنك كذلك » .

ـ ولا أنا أظن ذلك أيضا !

فقال دارنى : « ومع هذا فليس ثمة ما يمنع أن نفترق صديقين . دعنى أدفع الحساب » .

فقال كارتون : « أو تنوى حقا أن تدفع الحساب عن كلينا ؟ » .

فأجاب دارنى : « نعم ، سأفعل » .

فقال كارتون : « اذن اعطنى كأسا أخرى من النبيذ أيها الساقى ، ثم تعال وأيقظنى فى الساعة العاشرة » .

ودفع دارنى الحساب ، وحيا زميله تحية المساء . **فلما صار هذا وحيدا ، قام ونظر الى نفسه فى مرآة معلقة على الحائط .. فرأى فيها رجلا لديه مواهب عظيمة من الفكر ، ونبل الشعور ، ولكن مواهبه ضائعة لم يحسن استغلالها .. لقد أحنقه على دارنى أنه كان يشبهه شبها كبيرا فى مظهره ، ولكنه كان يتفوق عليه تفوقا كبيرا فى أمور أخرى ! .. ومرت بخاطره لوسى ، فملأت ذكراها قلبه بالكراهية لرفيقه الذى انصرف منذ حين !**

وبعد أن شرب كارتون المزيد من النبيذ ، انكفأ بوجهه على ذراعه ، وراح فى النعاس ..

وبعد ساعات أيقظه الساقى كما أوصاه ، فنهض ومضى الى مكتب زميله ورئيسه مستر سترايفر ، ليساعده فى تحضير قضاياه التى ستنظر فى اليوم التالى ..

وفيما كان سيدنى كارتون يقوم بهذا العمل ، كان سترايفر مضطجعا على كنبة يراقبه .. وكان الاثنان يتقاسمان زجاجة من الخمر ــ ففى ذلك العهد كان أكثر الناس يشربون بل يفرطون فى الشراب ! ــ فلما أتم كارتون تحضير الأوراق أعطاها لمستر سترايفر ، ثم تناقشا فى القضايا معا .. وشربا قدرا آخر من النبيذ ..

فقال سترايفر : « الآن قد فرغنا يا سيدنى . والحق أنك حضرت قضية اليوم تحضيرا بارعا جدا .. نعم لقد كنت بارعا

حقا وكان لكل سؤال أعددته أثره المباشر ، حتى فندت أقوال أولئك الشهود تفنيدا تاما ! » .

فأجاب كارتون : « أنا دائما بارع ، ألست كذلك ؟ » .

ـ لست أنكر ذلك . ولكن مالى أراك ضيق الصدر فى هذه الليلة ؟ انك دائما كعهدى بك ، نفس سيدنى كارتون القديم الذى كان معى فى المدرسة : آنا يبدو متفائلا مرحا ، وآونة أخرى متشائما يائسا !

ـ نعم ، انى ما زلت نفس الشخص ، ولى نفس الحظ العاثر . حتى فى المدرسة كنت أكتب الواجبات المدرسية للتلاميذ الآخرين بدلا من أن أكتبها لنفسى !

ـ لقد كان الخطأ دائما خطأك وحدك .. فان جهودك تخلو على الدوام من كل نشاط أو هدف مرسوم .. والا فلماذا تحسبنى نجحت كل هذا النجاح بينما فشلت أنت هذا الفشل ؟

ـ ان بعض السبب فى هذا أنك تعطينى أجرا لكى أساعدك ، لكنك كنت دائما فى المقدمة ، وكنت أنا دائما فى المؤخرة ..

فقال سترايفر : « نعم . لقد أخذت أنت مكانك الذى تستحقه ، وأخذت أنا مكانى الذى أستحقه » .

فعاد كارتون يقول : « **حتى عندما كنا تلميذين معا فى باريس ، كنت أنت ظاهرا فى كل مكان ، وكنت أنا منزويا عن كل مكان ! »** .

ـ وغلطة من كانت هذه ؟

ـ بربك دعنا من الكلام فى ذلك .

ـ حسنا اذن ، فلنشرب كأسا أخيرة .. فى صحة الشاهدة الجميلة .

ـ انها ليست جميلة ..

ـ بل انها لكذلك .. وقد كانت موضع اعجاب كل من فى المحكمة .

ـ ان تلك المحكمة ليست حكما فى تقدير الجمال !

ـ انك تدهشنى . لقد ظننت حينذاك أنك شديد الاعجاب بتلك الفتاة .. حتى لقد كنت أسرع الجميع فى التنبه الى اغمائها !

ـ كل الحاضرين تنبهوا الى ما حدث لها .. والآن ، لقد فرغ ما عندى من النبيذ . فلأمض اذن الى فراشى ..

وغادر المنزل ، فدلف خلال الشوارع الباردة الكئيبة .. ثم صعد الى غرفة عالية فألقى بنفسه هنالك على سرير مهمل ، كان قد طالما بلل وسائده بدموعه العقيمة ..

لقد كان رجلا نابها ، طيب القلب ، ومع ذلك فانه لم يكن قديرا قط على أن ينفع نفسه ، أو أن يجد السلام وسكينة النفس !

الفصل الخامس

الدكتور مانيت فى لندن

● فى أحد أيام الأحد ، بعد أربعة أشهر من محاكمة تشارلس دارنى ، كان المستر جارفس لورى يسير فى الشوارع المشمسة ، فى طريقه الى حيث يتناول الغداء فى منزل صديقه الدكتور مانيت .. وكان الدكتور يشغل طابقين من عمارة فى شارع هادىء من شوارع لندن ، وهناك كان فى استطاعته أن يكسب ما يفى بحاجته ، من استقبال المرضى الذين كانوا يفدون اليه فى طلب مشورته الطبية .

فلما وصل مستر لورى الى المنزل دق جرس الباب ، حتى اذا فتحه له الخادم سأله :

ـ هل الدكتور مانيت موجود ؟

ـ انه لم يعد بعد يا سيدى .

ـ هل المس لوسى موجودة ؟

ـ انها لم تعد بعد يا سيدى .

ـ هل المس بروس موجودة ؟

ـ لست متأكدا يا سيدى .

ـ حسنا . سأصعد وأنتظر ..

وكانت ابنة الطبيب قد جعلت المنزل مريحا وبهيجا ، فقد كانت لها يدان بارعتان وذوق رفيع . وكان كل طابق يتكون من ثلاث غرف تصلها الأبواب ببعضها البعض بحيث يمر الهواء طليقا بينها جميعا . **وفيما كان مستر لورى مارا بين الحجرات لاحظ فى ركن من أركان الحجرة الثالثة منضدة صانع الأحذية التى لم تعد تستعمل ، والأدوات التى كان الدكتور مانيت**

يشتغل بها أثناء اقامته فى حانة ديفارج بباريس .. فتساءل مستر لورى بصوت مرتفع : « اننى لفى عجب من احتفاظه بأشياء تذكره بما قاسى من متاعب وآلام ! » .

فأجابه على غرة صوت مس بروس الحاد ، بحيث كاد يقفز من المفاجأة :

ـ ولماذا يأخذك العجب من ذلك ؟

ثم أردفت المربية تسأله : « كيف حالك ؟ »

ـ على ما يرام ، أشكرك .. وكيف حالك أنت ؟

ـ اننى جد قلقة على سيدتى ..

ـ هل لى أن أسأل عن السبب ؟

ـ ان أناسا أكثر من اللازم ، ممن لا يناسبونها بحال ، لا يفتأون يأتون لزيارتها !

وكان مستر لورى يعلم أن مس بروس كانت تغضب كلما أبدى الناس اهتماما بلوسى .. كما أنه كان يعرف عن المربية أيضا **أنها من أولئك النساء غير الأنانيات ، المستعدات لأن يجعلن من أنفسهن ـ بدافع من الحب البرىء والاعجاب الخالص ـ عبيدا بمحض اختيارهن للشباب عندما يفقدنه .. وللجمال الذى لم يكن لهن فى يوم من الأيام .. وللآمال اللامعة التى لم تشرق قط على حياتهن المظلمة !.. وكان لورى يعرف أيضا أنه لا شىء فى الحياة أفضل من الخدمة المخلصة الصادرة عن القلب . وقد احترم مس بروس أكثر من كثير من السيدات المثريات اللواتى كن يكتنزن المال فى بنك تلسون !**

وأردف يقول للمرأة معقبا على كلامها : « دعينى أسألك سؤالا : ألا يتناول الدكتور مانيت قط ، فى حديثه مع لوسى ، الوقت الذى كان فيه يصنع الأحذية ؟ » .

ـ مطلقا !

ـ أليس هذا عجيبا ؟ اننا جميعا نعلم أنه برىء من أية جريمة ، فلماذا يحرص على تجاهل تلك الأيام ؟

ـ أعتقد أنه يخاف من الموضوع كله .. وربما كان يخشى أن يفقد ذاكرته مرة أخرى ، وهذا مما يجعل الموضوع غير سار بالنسبة اليه !

ـ هذا صحيح ..

ـ انه يستيقظ أحيانا فى منتصف الليل ، ويذرع غرفته جيئة وذهابا .. فتوافيه سيدتى الصغيرة ويظلان يمشيان فى الغرفة حتى يهدأ اضطرابه ويفرخ روعه .. لكنه لا يصارحها قط بشىء عن سبب قلقه وانزعاجه ..

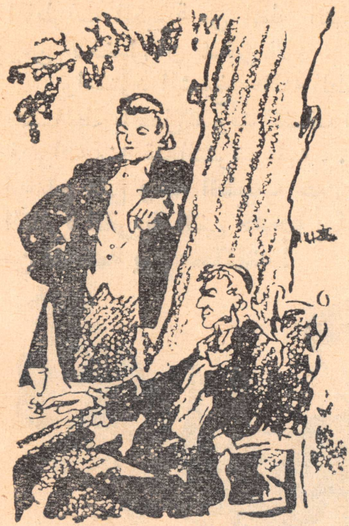
وهنا بدأ يتردد فى الشارع صدى أقدام ، كما لو كانت الاشارة الى التمشى المضنى جيئة وذهابا قد تسببت فى تجسمه الآن فى هذا الصدى !.. فقالت مس بروس : « ها هم قد أتوا .. » .

وقد بدت البهجة على المربية الطيبة وهى تعين حبيبتها لوسى على خلع ردائها وقبعتها ، ثم وهى تمر بيدها على شعرها الفاخر .. كما ابتهجت لوسى بدورها بذلك وشكرتها .. فابتسم الدكتور وهو يقول ان مس بروس قد اتلفت ابنته بذلك الحنان العظيم الذى تغمرها به !

وبعد تناول العشاء خرجوا فجلسوا فى الحديقة . **وفيما هم هناك جاء مستر دارنى ليزورهم ، فاستقبله الدكتور مانيت ولوسى بترحاب وبشاشة ، وان ظهر الاستياء على مس بروس فغادرت المكان !**

وأثناء جلستهم تشعب بهم الحديث وتطرق الى موضوع أبنية لندن القديمة ، فقال دارنى للطبيب أثناء الحديث : « هل رأيت جزءا كبيرا من برج لندن ؟ » .

ـ لقد ذهبنا ، لوسى وأنا ، الى هناك .. فرأينا منه ما يكفى لأن نعتبره أثرا يستحق المشاهدة .



واذ ذاك قال دارنى بشىء من الضيق : « لقد كنت فيه كما تعلمان ، حينما اعتقلونى بتهمة العداء للملك .. لكنى لم أتمكن من رؤية أكثره . وقد قالوا لى وقتئذ شيئا عجيبا .. » .

فسألت لوسى : « وما هو ؟ »

ـ لقد اكتشف العمال أثناء اجراء بعض الاصلاحات هناك حجرة قديمة مهجورة ، ازدحمت جدرانها بالتواريخ ، والأسماء ، والصلوات ، وغير ذلك مما كتبه المسجونون القدامى .. وكانت احدى هذه الكلمات المكتوبة كلمة : أحفر !.. فلما فحصت الأرضية بعناية وجدوا تحت أحد الأحجار رماد بعض الأوراق وبقايا حقيبة من الجلد . ترى ماذا كتب السجين المجهول فى تلك الأوراق ؟ هذا ما لن يتسنى لأحد أن يعرفه أبدا .. لكنه كتب شيئا على أى حال !

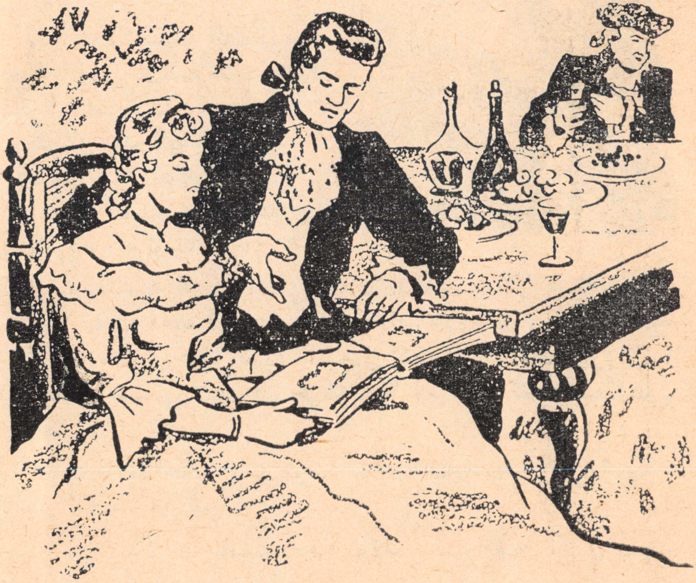
وهنا صاحت لوسى وقد حانت منها نظرة الى أبيها : « أبى ! أأنت مريض ؟ » .

فقفز الدكتور مانيت فجأة وقد وضع يده على رأسه وأزعجتهم جميعا نظرته :

ـ كلا يا عزيزتى : لست مريضا .. وانما هى تلك

القطرات الكبيرة من المطر التى تساقطت فجعلتنى أقفز .. ومن الأفضل أن ندخل الآن .

واسترد الشيخ حالته الطبيعية على الفور .. وكان المطر يتساقط بالفعل ، وقد كشف الطبيب ظهر يده لمجالسيه فاذا قطرات منه قد انتثرت عليه .. **وعندئذ خيل الى مستر لورى أنه لمح على وجه الطبيب حين استقر بصره على دارنى نفس النظرة الغريبة التى حدجه بها حين التقى به على أثر خروجه من المحكمة يوم محاكمته !**



وعندما حان موعد تناول الشاى أقبل « سيدنى كارتون » ووقف متكئا على أفريز النافذة .. بينما جلس الباقون بالقرب منها يراقبون المطر المنهمر فى الخارج ..

وقال الدكتور مانيت : « ان عاصفة على وشك الهبوب ، ولو أنها مقبلة ببطء .. » .

فقال كارتون : « لكنها مقبلة بغير شك .. » .

وقد أقبلت العاصفة أخيرا .. وكان اندفاع المطر وزمجرة الرعد والبرق من العنف بحيث لم يعد فى الامكان سماع صوت أحد خلالها .. واستمرت العاصفة الى ما بعد بزوغ القمر عند منتصف الليل ..

وأثناء خروج الضيوف دق جرس كاتدرائية « سان بول » الضخم دقة واحدة ، تجاوبت فى الجو الذى عاد صحوا .. فقال لورى : « مساء الخير يا مستر كارتون .. مساء الخير يا دكتور مانيت .. ترى هل سنشهد ليلة أخرى كهذه معا ؟ » .

الفصل السادس

حادث فى باريس

● **غادر** المركيز « افريموند » قصر ملك فرنسا ومضى يهبط « السلاملك » الفخم متجها نحو فناء القصر ، ثم صعد الى عربتــه فانطلقت به على الفور . وكان المركيز فى حالة نفسية سيئة ، فان الملك لم يلق اليه بالا ، ولا تحدث اليه أحد ممن كانوا فى القصر !

وفى مثل هذه الظروف ، كان يلذ له أن يرى عامة الشعب يتفرقون مذعورين أمام خيوله الجامحة ، ناجين بأنفسهم من أن يقعوا تحت حوافرها فتسحقهم العربة تحت عجلاتها !.. فقد كان الحوذى يقود العربة وكأنه يطارد عدوا ، ولم يبذل سيده أدنى محاولة للحد من اندفاعه . وكانت قد تكررت الشكوى والتذمر من اندفاع النبلاء الوحشى بعرباتهم خلال الشوارع الضيقة ، الأمر الذى يهدد حياة قاطنيها الفقراء بأشد الأخطار .. لكن شيئا لم يعمل لوقف أسباب هــذه الشكاوى ، وترك المساكين لينقذوا أنفسهم اذا استطاعوا ..

وانطلقت عربة المركيز تنهب الطــرقات والمنعطفات ، والنسوة يصرخن أمامها وهن يختطفن أطفالهن من طريقها .. وحين بلغت منحنى أحد الشوارع ، بجوار نافورة للمياه ، دهمت احدى عجلاتها صبيا صغيرا !.. وارتفعت صرخة عالية من عدة أصوات ، فجذب الحوذى ألجمة جياده .. ووقفت العربة آخر الأمر .

وتساءل المركيز فى هدوء وهو يطل من نافذة عربته : « ماذا حدث ؟ » .. بينما كان رجل طويل القامة قد التقط جثة الصغير وأرقدها بجوار النافورة ، ثم راح يبكى عليها وينتحب بصوت مرتفع ..



وقال أحد الواقفين هناك : « عفوا يا سيدى المركيز .. انه طفل » .

ــ ولكن لماذا يحدث الرجل مثل هذه الضجة المزعجة ؟ هل الطفل ابنه ؟

ــ عفوا يا سيدى المركيز .. انه ابنه .

وانتصب الرجل الطويل فجأة من على الأرض وجرى مسرعا نحو العربة ، فوضع المركيز يده على سيفه ..

وصاح الرجل ، رافعا ذراعيه فوق رأسه : « لقد قتل ! لقد مات ! » .

وتجمهر الناس ، ونظروا جميعا الى المركيز .. لم يقولوا شيئا ، ولكنهم نظروا اليه والكراهية تطل من عيونهم !

أما المركيز فنظر اليهم جميعا كما لو كانوا فيرانا خرجت من جحورها .. ثم أخرج كيسا من النقود وقال : « انه ليدهشنى أنكم أيها العامة لا تستطيعون المحافظة على أنفسكم وعلى أطفالكم ، فأنتم دائما تعترضون العربات فى وسط الطريق .. من أدرانى أنكم لم تلحقوا أذى بالخيل ؟.. اسمع يا هذا ، أعطه هذه النقود .. » .

وألقى من النـافذة بقطعة من العملة الذهبية ، فاتجهت جميع الأنظار الى حيث سقطت .. بينما صاح الرجل الطويل مرة أخرى : « لقد مات ! » .

وتفرقت الجماهير ، مفسحة الطريق لرجل آخر لم يكد يراه الرجل الطـويل حتى ألقى بنفسه على كتفيه منتحبا ، وأشـار الى نسوة كن منحنيات فوق الجثمان الصـغير ، وأخريات كن يرحن ويجئن حوله فى رفق ، لائذات بالصمت .. شأنهن شأن الرجال أيضا .

وقال القادم الأخير : « لقد رأيت ما حدث .. وانى لأعرف كل شىء .. **كن شجاعا يا عزيزى جاسبار ، فلعله أفضل للطفل الصغير المسكين أن يموت من أن يعيش . لقد مات فى لحظة ، بغير ألم ، فهل كان فى استطاعته أن يعيش بغير ألم ؟ »**

فناداه المركيز قائلا : « أنت يا هذا ! يبـدو أنك رجل حكيم .. فماذا يسمونك ؟ » .

ـ أنهم يسموننى « ديفارج » .

ـ وما صنعتك ؟

ـ بائع خمر ..

ـ التقط هذا ، أيها الرجل الحكيم ، بائع الخمر ..

قالها المركيز وهو يلقى اليه بدوره قطعة أخرى من العملة الذهبية ، ثم استطرد : « انفقها كيفما تشاء .. ولكن ترى هل أصيبت الخيل بمكروه ؟ » .

ودون أن يكلف نفسه عناء النظر الى الجمهور مرة أخرى ، اضطجع السيد فى مقعده وتأهب لمواصلة المسير ، وقد بدا عليه مظهر الرجل الرفيع المقام الذى كسر بالمصادفة شيئا عاديا ثم دفع ثمنه .. ولكن فجأة أزعجته قطعة من العملة الذهبية طارت الى داخل العربة ثم رن صوت سقوطها على أرضها !

فصاح المركيز بحوذيه : « قف .. أوقف الخيل .. من الذى ألقى هذه ؟ » .

ونظر الى المكان الذى كان يقف فيه ديفارج ، ولكنه لم يجد له أثرا .. وانما كانت تقف فى مكانه امرأة سمراء مليئة الجسم ، تشتغل بالابرة !.. فقال المركيز ، فى هدوء ودون أن يرفع صوته : « **يا كلاب ، اننى مستعد لأن أدوس عمدا على أى واحد منكم .. ولو عرفت من الذى ألقى بهذه لما ترددت فى سحقه تحت عجلات عربتى !** » .

لكنهم كانوا كالعبيد .. يرتعدون فرقا من النبلاء بحيث لم يجرؤ واحد منهم على أن يرفع بصره الى المركيز !.. ومع ذلك فان المرأة التى كانت واقفة تشتغل بالابرة جرؤت على النظر اليه .. بل انها ثبتت نظرتها فى وجهه مباشرة ! فتظاهر بأنه لم يلاحظها ، واضطجع فى مقعده الى الوراء .. ثم أمر حوذيه بالمسير ..

❊

● وانطلقت به العربة مسرعة عبر شوارع باريس التعسة التى تخيم عليها معالم الفقر .. ومنها تابعت سيرها الى الخلاء الرحب ، فدرجت فيه خلال طريق ريفى جميل ، لا يغض من جماله غير فقر محصولات الغلال فى الحقول .. الذى لا يدانيه غير فقر العمال الأجراء الذين كانوا يحاولون أن يحصدوها .. وكأن الأرض شاركت الأهلين بؤسهم وفاقتهم !

وقرب غروب الشمس ، أخذت العربة تصعد فى بطء تلا وعرا .. **فتطلع اليها عامل من المشتغلين باصلاح الطريق . تطلع اليها وقد ارتسمت الدهشة فى عينيه .. ثم جرى يسابقها الى قمة التل ، وهناك حدق فيها مرة أخرى وهى تمر به ، ثم وهى تنحدر مسرعة نحو أسفل التل** ، فى اتجاه

قرية فقيرة كان أهلها جميعهم يعانون شظف العيش ، وقد جلس أكثرهم أمام أبواب بيوتهم يحضرون للعشاء ما استطاعوا جمعه من طعام ضئيل .. ولم يكن يرى فى القرية غير أطفال قليلين ، أما الكلاب فلم يكن لها وجود على الاطلاق !

ذلك أن الضرائب الباهظة قد قتلت القرية أو أوشكت : ضريبة الدولة .. وضريبة الكنيسة .. وضريبة الأرض .. والضريبة المحلية ، والضريبة العامة .. الخ — بحيث كان الذى يدعو للدهشة حقا أن يبقى فى القرية نفر من أهلها على الاطلاق !

ودلفت العربة الى داخل القرية ، فتطلع الفلاحون اليها ، ونظر المركيز الى الأهالى .. وكان عامل اصلاح الطرق قد هبط من أعلى التل ، فصاح المركيز بحوذيه :

— أحضر هذا الشخص الى هنا !

وأحضر الشخص ..

— لقد مررت بك فى الطريق !

— نعم ياسيدى . كان لى الشرف أن مررت بى فخامتك .

— لقد مررت بك مرة على سفح التل ، ثم مرة أخرى فوق قمته .. فلماذا كنت تنظر الى العربة تلك النظرة الغريبة ؟

— سيدى ، لقد كنت أنظر الى الرجل .. كان هناك رجل تحت العربة ، قد تعلق بمؤخرتها !

— ومن كان هذا الشخص ؟ أنت تعرف كل أهالى المنطقة ، فمن كان ذلك الشخص ؟

— عفوك يا سيدى . انه لم يكن من هذه المنطقة .. كان غريبا عنا ، لم أره قط من قبل !

— وماذا كان شكله ؟

— سيدى ، انه كان مغطى كله بالغبار الأبيض ، كالشبح .. وكان طويلا كالعفريت !

ــ وماذا حدث له ؟ هل فر ؟

ــ لقد انطلق يعدو نحو أسفل التل ، كما لو كان يطارده شيطان !

فقال السيد : « يا لك من مغفل ! لعله كان لصا ومع ذلك فإنك لم تقل شيئا .. اغرب عن وجهى !.. مسيو جابيل ، مسيو جابيل ! » .

كان جابيـل وكيل المركيز ، الذى يجمـع له الضرائب والايجارات .. فلما خف على نداء سيده ، قال له :

ــ اذا جاء ذلك الرجل الى القـرية فلتعتقـله فورا يا جابيل ..

ــ يسعدنى يا سيدى أن أنفذ أوامرك ..

ــ والآن انطلق الى مهمتك ..

*

كانت الظلمة قد أطبقت تماما على الكون حين عاد المركيز الى قصره ، فأقبل الخدم لاستقباله والمصابيح فى أيديهم .. وحين فتحوا له الباب الكبير ابتدرهم بقوله :

ــ اننى انتظر ابن أخى « تشارلس » القادم من لندن . فهل وصل ؟

ــ لم يصل بعد يا سيدى ..

الفصل السابع

دارنى ، وعمه المركيز

● صعد المركيز الدرجات العريضة لقصره ، وقد تقدمه خادم يحمل مصباحا ، ثم عبر الصالة الكبرى وصعد السلم الداخلية الى حجراته الثلاث الخاصة ، حيث أعدت فى الحجرة الثالثة منها مائدة عشاء لشخصين ..

وقال المركيز : « اذن فابن أخى لم يصل بعد .. أحسبه لن يصل الليلة ما دام قد تأخر حتى الآن . ومع ذلك فلتتركوا المائدة كما هى .. وسوف أتناول العشاء بعد ربع ساعة » .

وفيما كان يتناول عشاءه سمع صوت عربة قادمة ، فأمر باخطار ابن أخيه بأن مائدة العشاء تنتظره . وبعد برهة قصيرة جاء ابن الأخ — وكان معروفا فى انجلترا باسم « تشارلس دارنى » ! — فلم يكد يأخذ مجلسه حول المائدة حتى قال لعمه المركيز :

— هل غادرت باريس أمس يا سيدى ؟

— نعم .. وأنت ؟

— لقد جئت رأسا من لندن .

— اذن فقد مكثت فى الخارج وقتا طويلا ..

— عاقتنى عن العودة مشاغل مختلفة .

فقال العم : « بلا شك » .

— ولقد تعرضت لخطر جسيم أثناء وجودى هناك . واننى لأتساءل عما اذا كنت قد عملت على اثارة المزيد من الشكوك حول الظروف التى أحاطت بى !

فقال العم مازحا : « كلا ، كلا ، كلا » .

لكن ابن الأخ نظر الى المركيز نظرة ملؤها الارتياب العميق

.. ثم استطرد قائلا : ((أعلم أنك كنت لتوقفنى عن نشاطى لو استطعت .. والواقع أننى مغتبط لتضاؤل نفوذك فى القصر ، فلو كان لك نفوذ أعظم لزججت بى فى السجن !)) .

فقال العم فى هدوء عجيب : ((يحتمل .. فمن أجل شرف العائلة ربما كنت ألجأ حتى الى ذلك !)) .

ـ أرى أنك ـ لحسن الحظ ـ قد استقبلت فى القصر مرة أخرى ببرود !

فأجاب العم : ((يؤسفنى أن أقول ان مظاهر الحظوة ـ حتى البسيطة ـ للعائلات الكبيرة ، صارت الآن عسيرة المنال .. فما أكثر الساعين اليها هذه الأيام ، بعكس الحال فى الماضى .. ولكن فى كل هذه النواحى تغيرت فرنسا تغيرا كبيرا ، نحو الأسوأ .. فلقد كانت لآبائنا سلطة الحياة والموت على العامة والدهماء فى المناطق المحيطة بهم ، ولكننا فقدنا الكثير من حقوقنا .. وقد صارت الأمور كلها غاية فى السوء .. غاية فى السوء !))

فقال ابن الأخ فى لهجة حزينة : ((الواقع أننا أسأنا التصرف بما ارتكبنا من حماقات ، سواء فى الماضى أو الحاضر ، بحيث أعتقد أن اسمنا بات مكروها أكثر من أى اسم آخر فى فرنسا !))

ـ دعنا نأمل ذلك .. فالكراهية انما تدل على الاحترام !

ـ ان الاحترام الوحيد الذى أراه حولنا هو الاحترام الناشىء عن الخوف والعبودية . اننى أمقت تلك التقاليد التى خلفها لى والدى ، أخوك .. صحيح اننى عنصر منها ، لكنى عنصر عاجز ، أحاول أن أطيع آخر رجاء توجهت الى به أمى وهى تحتضر : أن أكون رحيما ، وأصلح ما سلف من أخطائنا ، وأكفر عن المظالم التى ارتكبت ..

ـ اذا كنت تبغى منى مساعدة فى هذا الشأن ، فانك عبثا سوف تنتظرها !

– ان أملاك الأسرة ، وفرنسا ، قد أصبحت بالنسبة لى بمثابة الأشياء المفقودة .. لقد تخليت عنها !

– لكنها لم تصر بعد ملكا لك ..

– اذا آلت الى غدا ، فانى لن أقبلها !

– أعتقد أن هذا أمر بعيد الاحتمال ..

– ان هذه الممتلكات قد قامت على البؤس والخراب .. انها « برج » شيد من الاسراف والتبذير ، وسوء الادارة ، والدين ، والجوع والآلام !

فهتف المركيز فى لهجة الارتياح : « ها ! »

– فاذا أصبحت ملكا لى فى يوم من الأيام ، فاننى سأعطيها لشخص يمكنه أن يحررها من الثقل الذى يجذبها الى القاع !

فقال العم : « وأنت ؟ كيف تنوى أن تعيش ؟ »

– سأعمل ..

– فى انجلترا على ما أظن ؟

– نعم . فان اسم العائلة لن يتأذى منى هناك .. لاننى لن أحمله .

فسأله المركيز : « هل تعرف رجلا فرنسيا وجد الأمان والطمأنينة هناك ؟ »

– نعم .

– طبيب وابنته ؟

– نعم .

– انك متعب فيما أحسب .. طابت ليلتك .

واذ حنى رأسه فى أدب ، كان فى نظرته غموض أقلق ابن أخيه وصدمه .. لكنه كان يعلم أن لا جدوى من توجيه اية أسئلة اليه ..

وعاد العم يكرر : « طابت ليلتك ! أتمنى لك يوما هنيئا ! »

ثم قال للخادم : « أضىء لابن أخى الطريق الى مخدعه » ..

وأضاف هامسا لنفسه : « .. واحرقه فى فراشه اذا شئت ! »

وبعد أن ذهب ابن الأخ ، مضى المركيز بدوره الى مخدعه .. وخيم الظلام على القصر العظيم ، كما خيم على كل المروج المحيطة به .. فحلم الجائع بالطعام الشهى ، والمتعب بالراحة والهناء .. ثم أقبلت طلائع يوم جديد ، حين غمرت الشمس بضيائها القصر والأشجار ، والحقول وما فى القرية من ديار .. وقام كل رجل وامرأة فى زمهرير الصباح الباكر منطلقين الى أعمالهم : البعض ليفلح الأرض ، والبعض ليقود أبقاره العجفاء الى ما قد تجده من حشائش نابتة على جانبى الطريق ..

واستيقظ القصر أخيرا .. ففتحت النوافذ ، وأطلت الخيل من فوق أكتافها الى ضياء البكور وصباحته اللذين يتدفقان من مداخل الأبواب .. ونبحت الكلاب وهى موثقة فى سلاسلها ، تتعجل لحظة اطلاقها منها .. وكانت هذه كلها أحداث الصباح المألوفة التى تتكرر كل يوم .. **ولكن لماذا كان الجرس الكبير للقصر يدق ؟ ولماذا كان رجال يهرعون صاعدين وهابطين درجات السلم ؟ ولماذا أسرج آخرون خيولهم وامتطوها على عجل ثم انطلقوا بها ينهبون الأرض نهبا ؟ وماذا كانت تعني كل هذه العجلة .. وما سر هذه الضوضاء ؟**

كان السر يكمن فى فراش المركيز ، حيث انغرس فى قلب جثته الهامدة المسجاة فوق الفراش ، نصل سكين ! وحول مقبض السكين قصاصة ورق كتب عليها بخط ردىء هذه الكلمات : « سوقوه سريعا الى قبره .. هذا من (جاك) ! »

الفصــــل الثامن

دارنى يبوح بحبه

⊙ **ومر** اثنا عشر شهرا استقر خلالها تشارلس دارنى فى لنــدن كمدرس للغة الفرنسية والأدب .. وكان يقضى بعض وقته فى كمبريدج ، حيث ذاع صيته كمعلم ممتاز لطلبتهـــا الذين يدرسون اللغات الحديثة ..

على أن دارنى كان شابا ، لشـــبابه عليه حق .. فلم يكن غريبـــا ان أحب .. **أحب « لوسى مانيت » منــذ الساعة التى تعرض فيها للخطر .. فانه ما سمع قط صوتا أعذب من صوتها اللطيف ، ولا رأى وجها أحلى من وجهها الذى طالعــه حين وقف على حافة القبر !.. لكنه لم يفاتحها يوما فى الأمر .. وها قد انقضى عام منذ غادر فرنســـــا ، وما تزال ذكرى القصر ، ومصرع عمه ، تطوف بخياله كحلم مزعج .. بحيث لم تواته الظروف كى يتحدث فى أمر حبه الى انسان !**

والآن .. هذا هو فى يوم من أيام الصيف ، وقد عاد أخيرا من « كمبريدج » عاقدا العزم على أن يصارح الدكتور مانيت بحبه للوسى .. وهكذا خرج من مســكنه قاصــدا الى بيت الطبيب ، بعد أن اختار لهذه المهمة موعدا قدر أن تكون الابنة فيه خارج البيت ، بصحبة مربيتها مس بروس ..

وحين وصل ، وجـد الدكتور فى مقعـده الطويل بجوار النافذة ، وكان قد استرد الى حد ما حيويته التى أعانته على احتمال آلامه الرهيبة فى أيام محنته ، فغدا الآن قوى العقل والجسم .. وصار يكثر من الدراسة والاطلاع على الجديد من كتب الطب ، الذى عاد يزاوله من جديد ..

وكان دكتور مانيت فى العادة رجلا مرحا بادى الانشراح ، يندر جدا أن تغيم على صفاء ذهنه سحابة سوداء .. فلما دخل عليه دارنى وضع الكهل الكتاب الذى كان يقرأه ومد يده الى ضيفه هاشا ، قائلا : « تشارلس دارنى ! لكم يبهجنى أن أراك ، فنحن ننتظرك منذ أيام . وقد كان مستر سترايفر ومستر كارتون هنا أمس ، وكرر كلاهما القول انك قد تأخرت فى الحضور أكثر من عادتك .. »

لم يشعر دارنى بالارتياح وهو يسمع نبأ زيارة هذين الرجلين للبيت ! لكنه أخفى شعوره واستفسر عن صحة مس مانيت ..

ـ انها بخير .. وقد خرجت بصحبة مس بروس ولكنها ستعود حالا ..

ـ دكتور مانيت ، لقد كنت أعلم أنها خارج البيت ، ولهذا انتهزت فرصة غيابها كى أتحدث اليك ..

وسكت قليلا .. فاستحثه الطبيب فى لهجة توجس : « نعم ؟ هات كرسيك وحدثنى .. »

ـ لقد أسعدنى خلال الثمانية عشر شهرا الماضية أن أكون زائرا كثير التردد على منزلك ، وأملى كبير فى أن يكون الموضوع الذى سأتكلم فيه ..

ـ هل الموضوع يتعلق بلوسى ؟

ـ نعم .. اننى يا عزيزى الدكتور مانيت أحب ابنتك حبا كبيرا ، عميقا ، مخلصا .. ولو صح أن فى الدنيا حبا صادقا متفانيا فأنا أحبها اياه ! .. وأنت نفسك قد أحببت ، فدع حبك القديم ينوب عنى فى التحدث اليك !

كان الطبيب جالسا وقد أدار وجهه عن محدثه .. فلما سمع عبارات دارنى ارتسمت فى عينيه نظرة ألم عميق ، وهتف يناشده : « الا هذا يا سيدى ! لا تتحدث فى هذا الموضوع ، أرجوك ! »

وكانت صرخته كأنها صرخة صادرة عن ألم جسمانى ، وقد مد يده كما لو كان يتوسل الى دارنى أن يصمت !

.. وصمت دارنى برهة ، ثم استدرك الطبيب فى نغم خافت : « أرجو معذرتك ، فلست أشك فى حبك للوسى .. ولكن ترى هل فاتحتها فى الأمر ؟ »

ـ كلا يا سيدى ، ولم أكتب اليها .. وأنت تعرف السبب : فأنا أعلم مقدار حبك لابنتك وقدرها عندك .. وأعلم أنها كانت لك منذ عودتك الى الحياة أكثر من ابنة ، أو زوجة .. كما أعلم أن حبها لك وحبك لها هما أعظم الأشياء فى حياة كليكما ..

لبث الدكتور مانيت صامتا وقد أطرق برأسه الى أسفل ، وتتابعت أنفاسه مسرعة ، لكنه لم يبد علامة أخرى تشى بالانفعال العنيف الذى كان يعانيه .. بينما استطرد الشاب :

ـ يا عزيزى الدكتور مانيت . لقد كنت أرى مقدار تعلق كل منكما بالآخر ، فكبحت جماح نفسى أطول مدة فى طاقتى .. ولكنى أحبها ، والسماء شاهدتى على أننى أحبها !

فأجاب الأب فى لهجة حزينة : « انى أصدق ذلك »

ـ لا تخش أن أفرق بينكما فيما لو أسعدنى الحظ ففزت بلوسى شريكة لحياتى .. فليس فى نيتى شىء من ذلك الآن ، ولا فى المستقبل !

ثم وضع يده على ذراع الطبيب ، وأردف : **« كلا يا سيدى ، فأنا مثلك قد شردنى من فرنسا فساد الحكم وبؤس الشعب .. وأنا مثلك أكسب عيشى هنا فى أرض أجنبية .. وكل مناى أن أشاركك حظك وحياتك وآمالك ، وأن أكون مخلصا لك حتى الموت .. فلست أريد أن أقف حائلا بينك وبين لوسى ، بل أن أضيف حبى الى ذلك الحب الذى يربط بينكما بأوثق رباط .. »**

رفع الوالد بصره عن الأرض ، وقد نشب فى ذهنه

صراع !.. كان فى وجه دارنى شىء أعاد اليه ذكريات مريرة ، ذكريات طالما حاول أن يطردها من مخيلته !.. وأخيرا قال :

ــ انك تتكلم فى رجولة ونبل يا تشارلس دارنى ، واننى اشكرك على ذلك .. ولذلك سأكون صريحا فى حديثى معك : فهل لديك أى دليل يجعلك تعتقد أن لوسى تبادلك حبك ؟

ــ أبدا .. لا دليل حتى الآن .

ــ هل تريد اذنا منى بالتحدث اليها ؟

ــ كلا يا سيدى ، لم يحن الوقت المناسب لذلك بعد ..

ــ اذن فماذا تريد منى ؟

ــ أريد منك وعدا بأنك لو حدث واعترفت لوسى لك بحبها لى فلن تقول فى كلمة سوء ، وانما تنقل اليها ما قلته لك الساعة .. فأنا أعلم أنها لن تقبلنى زوجا لها اذا ما ارتابت فى أن ذلك سوف ينغص سعادتك !

فقال الطبيب : « أعدك بأنه اذا حدث أن صرحت لى فى أى وقت بأن لا غنى عنك لسعادتها فسوف أعطيك اياها . ولن يحول دون ذلك شىء ، ولا حتى ذكرى السنوات الضائعة من حياتى ، والمظالم المروعة التى لحقت بى ! »

ــ أشكرك .. وان ثقتك بى لجديرة بأن أقابلها بثقة مماثلة من جانبى .. ولذلك أصرح لك بأن اسمى الحالى ، ولو أنه لا يختلف الا قليلا عن اسم والدتى ، الا أنه ــ كما ذكرت لك من قبل ــ ليس اسمى الحقيقى .. وأنا أريد أن أصارحك باسمى الحقيقى ، وبالسبب الذى من أجله أقيم فى انجلترا .

فقاطعه الطبيب : « صه ! لا تقل شيئا »

ــ بل اننى أريد أن أكاشفك بذلك حتى أنال ثقتك ، وحتى لا يكون ثمة سر أخفيه عنك ..

ــ كفى ! لا أريد أن أسمع شيئا ! قل لى ما تشاء عندما اطلب منك ، وليس الآن .. فاذا وفقت الى الفوز بامنيتك ،

وأحبتك لوسى ، فعندئذ يمكنك أن تصارحنى بها عنـــدك فى صبيحة يوم زواجك .. فهل تعدنى بذلك ؟

ـ بكل سرور .

ـ هات اذن يدك .. والآن ، لقد حان موعد عودة لوسى الى البيت ، ويحسن ألا ترانا معا الليلة . فاذهب ! وليباركك الله !

وكان الظـلام قد هبط حينما تركه دارنى ، وبعـد برهة عادت لوسى الى المنزل فهرعت الى الغرفة بمفردها ـ اذ كانت مس بروس قد صعدت الى الطـابق العـلوى ـ وكم كانت دهشتها حين رأت المقعد الطويل خاليا من أبيها !.. فصاحت جزعة : « أبى ! .. أين أنت ؟ »

لكن أحدا لم يجبها ، وانما سمعت طرقا خفيفا صادرا من مخدعه .. فاتجهت اليه فى هدوء وأطلت من الباب .. واذ ذاك عادت مفزوعة تحدث نفســها صارخة فى رعب شـديد : « ماذا أفعل ؟ ماذا أفعل ؟ ! »

لكن ترددها لم يطل غير لحظة يسيرة ، استدارت بعـدها الى غرفته مرة أخرى وطرقت الباب فى رفق ، ثم نادته بصوت رقيق .. فتوقف الطرق لدى سماع صوتها ، ثم خرج اليها الوالد فراحا يذرعان المكان جيئـة وذهابا فترة طويلة ، وهى تحدثه وتسامره فى هدوء ودعة ..

وأثناء الليل نهضت فى سكون فتأملته مليا وهو نائم . كان مستغرقا فى نوم عميق .. وكانت كل أدوات صناعة الأحذية والأجزاء القديمة التى لم تتم ، فى مكانها المألوف ، فتنفست الصعداء وعادت الى غرفتها وهى تلهج بالشكر لله ..

الفصــل التاسع

كارتون يحذو حذوه

● فى نفس الليلة ـ أو بالأحرى فى نفس الصباح ـ قال سترايفر يخاطب مساعده : « سيدنى .. امزج لى قدحا آخر من الشراب ، فعندى ما أقوله لك ! »

كان سيدنى قد أنفق عدة ليال يعمل عمــلا متواصــلا فى تصفية أوراق مكتب سترايفر ، لمناسبة أغلاق المحــاكم حتى شهر نوفمبر . وقد انتهى سيدنى من مهمته أخيرا ، لكنه خرج منها مرهقا .. وأردف سترايفر يحدثه : **« والآن ، اسمع .. سأخبرك بشىء سيكون مفاجأة لك : لقد اعتزمت أن أتزوج ! »**

ـ يا للسماء ! وهل أعرفها ؟

ـ خمن !!

ـ لن أخمن فى الساعة الخامسة صــباحا ! .. لن يقوى عقلى على ذلك ..

ـ حسنا ، اذن فسأصارحك بالأمر ـ اذا كان فى مقدورى أن أجعلك تفهم ! ـ أنت تعــلم اننى رجل أكثر منك رقة .. رجل يحرص على أن يجعل نفسه أكثر .. أكثر ..

ـ فلنقل : أكثر ايناسا ..

ـ بالضبط .. أكثر ايناسا فى حضرة النساء !.. ولقــد ترددت أنت على بيت الدكتور مانيت مثلما ترددت أنا ، فكنت أخجل من مسلكك السىء . انك شخص لا يعرف فن الايناس يا سيدنى !

فأخذ سيدنى جرعة من كأسه وضحك .. بينمــا أردف سترايفر : « اصغ الى . اننى ـ بحكم كونى رجلا ناجحا ـ أقل

منك حاجة الى التلطف مع الناس .. فلماذا أحرص مع ذلك على أن أكون لطيفا ؟ انما أفعل ذلك لأن الحكمة تقتضيه .. وهكذا أشق طريقى فى الحياة !

ـ حسنا . ومن هى المرأة التى اخترتها ؟

ـ انها مس مانيت .. فما رأيك ، هل تقرنى على هذا الاختيار ؟

فقال سيدنى : « ولم لا أقرك ؟ »

ـ انك تتقبل الأمر ببساطة أكثر مما كنت اتوقع . والواقع يا سيدنى اننى مللت هذا اللون من الحياة بلا شريك يبدد تشابه الأيام الرتيب .. وقد بدأت اشعر بمبلغ المتعة التى يجدها الرجل فى ان يكون له بيت يأوى اليه حين يطيب له أن يأوى ، ويخرج منه حين يطيب له ان يخرج . ثم اننى أعتقد أن مس مانيت تناسبنى ، فهى مخلوقة جذابة ، فى وسعها أن تكفل لى الاستمتاع بحياتى .. وهى من الناحية الأخرى سوف تجد فى الآن رجلا واسع الثراء ، يرتقى سلم النجاح بسرعة واضطراد .. وبهذه المناسبة ، لم لا تتزوج أنت ؟ انك لابد ستشيخ وتمرض يوما ، وعندئذ سوف تحتاج الى من تعتنى بك !

فقال سيدنى : « سأفكر فى الأمر .. »

*

واذ استقر رأى سترايفر على الزواج ، فقد رأى أن خير البر عاجله ، وانه من الأصوب أن يبدأ عطلته بزيارة مس مانيت ومكاشفتها بما يدور فى خاطره .. وكان الطريق الى بيتها يمر بمصرف (تلسون) ، ففكر فى الدخول لمقابلة مستر لورى ، الذى كان يعلم أنه صديق حميم لأسرة مانيت ، كى يحدثه عن المشروع الذى يعده لمستقبله السعيد !

وابتدره محييا بصوت مرتفع : « هالو .. كيف حالك ؟ »

.. فأجابه لورى فى صوت هادىء ، آملا أن يجاريه محدثه فيه : « أية خدمة أستطيع أن أؤديها لك ؟ »

فقال سترايفر وهو يتكىء على مكتب صاحبه : « أوه ، انها مسألة خاصة . لقد اعتزمت أن أتقدم للزواج من صديقتك الصغيرة اللطيفة مس مانيت »

فهتف لورى وهو يحك ذقنه وينظر الى زائره نظرة ارتياب : « آه ، حقا !؟ »

فكرر سترايفر صيحته متسائلا : « آه ، حقا يا سيدى .. ماذا تعنى ؟ »

— ان ما أعنيه شىء ودى ولا شك . ولكن .. الحقيقة .. انك تعلم يا مستر سترايفر ..

لكنه لم يكمل عبارته ، وانما صمت وهز رأسه ..

— ماذا تريد أن تقول يا سيدى ؟ هل أنا شخص غير مناسب ؟ ألست غنيا ؟ ألست رجلا ناجحا ؟

— أوه ، لا يستطيع أحد أن يشك فى ذلك !

— اذن فماذا تعنى بربك ؟

— الواقع ، اننى ... هل أنت ذاهب الى هناك الآن ؟

فأجاب سترايفر وهو يضرب المنضدة بيده : « مباشرة! »

— لو كنت مكانك لما ذهبت ..

— لماذا ؟ أوضح السبب !

— ما كنت لأذهب بغير أن يكون لدى سبب قوى للاعتقاد بأننى سأنجح فى مهمتى ..

فصاح سترايفر غاضبا فى حدة : « لقد ذكرت لك منذ لحظة ثلاثة أسباب قوية تبرر النجاح ! »

— اننى عندما أقول النجاح ، فانما أعنى النجاح مع الفتاة نفسها ..

فقال سترايفر وهو يطلق ضحكة غضب : « اذن فأنت تنصحنى بعدم الذهاب ؟ »

ـ كنت على وشك أن أقول لك انك قد تتألم اذا تبينت أنك كنت مخطئا فى فهم شعورها .. كما ان الدكتور مانيت بدوره قد يجد من المؤلم أن يصارحك بالحقيقة .. وكذلك قد تتحرج مس مانيت نفسها من الادلاء برأيها !.. أفلا ترى من الأفضل أن أحاول أنا مثلا استطلاع حقيقة شعورها ، قبل أن تذهب ؟ »

ـ حسنا جدا .. ولتنبئنى بالنتيجة فى أقرب فرصة . طاب يومك .

واندفع خارجا من المصرف ، وقد اعتزم أن يجد حلا للموقف دون أن يظهر مبالاة بالأمر !

*

● **وبالفعل** ، عندما زار مستر لورى صاحبه سترايفر فى ذلك المساء ، بدا على الأخير كأنه نسى الموضوع من أساسه .. لكن لورى ابتدره قائلا : « لقد كنت فى زيارة الأسرة ، ولست أشك فى أنى كنت محقا فى نقاشى معك هذا الصباح .. فما أظنك ستنجح مع الآنسة مانيت !.. »

فأجاب سترايفر : « **انى أرثى لهما .. فلننس الأمر كله .. فما داما مجردين من الادراك السليم الى هذا الحد ، فخير لى أن أنسحب . والواقع ان الفتيات كن حمقاوات منذ القدم !.. على أى حال لم يصبنى ضرر ، فأنا لم أفاتح الفتاة يوما فى أمر الزواج ، وأعترف لك انى لست واثقا من أننى كنت سأقدم على الزواج منها بالفعل .. فشكرا جزيلا لك على ما تكبدت من مشقة** »

دهش مستر لورى لسماع هذا الكلام الى درجة انه وجد نفسه خارج البيت قبل أن يستطيع جمع شتات أفكاره .. ثم سار ميمما شطر بيته وهو يسائل نفسه عن حقيقة شعور مستر سترايفر !

وحين التقى سترايفر بسيدنى كارتون فى المرة التالية ذكر له أنه قد أعاد النظر فى أمر الزواج ، فانتهى الى العدول عنه ! .. وبعد أيام سافر ليقضى فترة من عطلته فى « ديفونشاير »

*

أما سيدنى فقد بقى فى لندن .. وذات يوم توجه لزيارة لوسى مانيت ، التى لم تكن قد أنست يوما اليه أو أحست بالارتياح فى مجلسه .. فلم تكد تتطلع الى وجهه حتى قالت « أخشى أن تكون مريضا يا مستر كارتون ! ؟ »

— كلا .. كل ما فى الأمر ان الحياة التى أحياها ليست حياة صحية ..

— اغفر لى تطفلى ، ولكن أليس مما يؤسف له حقا أن لا تحيا حياة أفضل ؟

واذ نظرت اليه مرة أخرى ، أدهشها وأحزنها أن ترى فى عينيه .. دموعا ! كما كانت فى صوته أيضا دموع وهو يجيبها : « لقد فات أوان اصلاح الحال ، ولن أكون يوما خيرا مما أنا .. بل انى سأنحدر كل يوم الى أسفل ، فأسفل ! »

وغطى وجهه بيديه . لم تكن لوسى قد رأته يوما مرهف الاحساس ، فتأثرت لحاله أعمق التأثر . أما هو فلم يلبث أن استطرد : « اغفرى لى يا مس مانيت . فان ما أريد أن أقوله لك يسبب لى اضطرابا شديدا . فهلا أصغيت الى ؟ »

— بكل سرور ، اذا كان هذا يسعدك يا مستر كارتون ..

— فليباركك الله يا مس مانيت . لا تخشى من الاصغاء الى ، فاننى أشبه بشخص مات فى شبابه !.. والواقع أن حياتى كلها كانت خليقة بأن تكون أفضل ، لكن أوان ذلك قد فات ..

— كلا يا مستر كارتون ! أنا واثقة ان المستقبل قد يكون ما يزال يطوى صفحته على الجزء الأفضل من حياتك !

وكانت ترتجف وهى تتكلم ، وقد شحب وجهها أشد الشحوب .. فقال كارتون : « حتى لو أمكنك يا مس مانيت أن تبادليني حبى ، فلن أجلب عليك غير البؤس والأسى ، وسأجذبك معى الى حضيض الشقاء .. لكننى أعلم جيدا انك لا تضمرين لى أدنى ميل ، ولست أسألك شيئا من ذلك .. بل انى لأشكر الله الذى جعل مثل هذا الميل مستحيلا ! »

ـ وهل لا أستطيع أن أنقذك بغير هذا الميل يا مستر كارتون ؟

ـ كلا ، بل ان أقصى ما تستطيعين أن تفعليه من أجلى هو أن تصغى الى . أريدك أن تعلمى أنك غاية أمنيات روحى وأحلامى .. وأن رؤياك مع والدك ، ورؤية هذا البيت الذى يبدو فى كل ركن منه طابع يديك ، قد أيقظ فى أعماقى أطيافا قديمة كنت أحسبها قد ماتت !.. فمنذ عرفتك أمضنى الأسى على حياتى الكئيبة الموحشة ، حتى لقد فكرت أن أبدأ حياتى من جديد . انها أضغاث أحلام ! لكننى أريدك أن تعلمى أنك الموحية بها ..

ـ أليس ثمة أمل فى أن يبقى من هذه الأحلام شيء ؟ أوه ، بربك كرر المحاولة يا مستر كارتون !

ـ كلا ، لا فائدة .. فقط دعينى أحمل ـ خلال ما بقى من حياتى التعسة ـ ذكرى اننى فتحت قلبى لك دون البشر جميعا .. فهلا وعدتنى بما يطمئننى ـ كلما عاودتنى ذكرى هذا اليوم ـ الى أن سرى يرقد مصونا فى قلبك ، لا يشاركك فيه انسان !؟

ـ اذا كان هذا يريحك .. أعدك !

ـ أشكرك .. ومرة أخرى ، أسأل الله أن يباركك .

ورفع يدها الى شفتيه فلثمها .. ثم اتجه الى الباب وهو يقول :

« .. ولتثقى اننى لن أخوض فى هذا الموضوع مرة أخرى

.. وحسبى عزاء اننى عندما يحضرنى الموت سأتذكر أن اعترافى الأخير كان اليك ! »

وكان بادى التغير عن طبيعته المألوفة ، بحيث عز على لوسى أن تفكر فى مبلغ ما تبدد من أحلامه .. فبكت وهو يتطلع الى الخلف ليلقى عليها نظرة أخيرة !

ــ لا تبكى ، فلست أستحق منك هذا الشعور النبيل .. ولن تمضى ساعة أو ساعتان حتى أعود ثانية الى صحبة رفاقى ذوى النفوس الوضيعة . **ولكن قبل أن أنصرف ، لى عندك رجاء أخير .. أعلم أن لا جدوى من مصارحتك به ، لكنه ينبثق من أعماق روحى ، وهو اننى دائما على استعداد لأن أفعل أى شىء من أجلك ومن أجل أى شخص من أعزائك .. لن أحجم عن تضحية ما كى أساعدك وكل من تحبين .. ولتذكرى على الدوام ، فى الأيام السعيدة المقبلة عليك ، أن هناك رجلا لن يتردد فى أن يبذل حياته راضيا كى يحفظ لك حياة شخص تؤثرينه بحبك !**

ثم أردف : « .. والآن ، وداعا .. وليباركك الله » .. وتركها وانصرف ..

الفصل العاشر

عامل الطرق

لبث أهالى حى « سان انطوان » أياما ينتظرون أنباء عن مصير صديق لهم ، هو المدعو « جاسبار » . وكان رجال البوليس قد ألقوا القبض عليه وأخذوه الى حيث زجوا به فى سجن القرية التى ارتكب فيها جريمته (قتل المركيز) .. وذات يوم كان القوم يرتقبون عودة مسيو ديفارج ليقفوا منه على الأخبار ، وقد انتظر بعضهم فى الحانة لهذا الغرض ساعات طويلة .. بينما كانت مدام ديفارج جالسة فى هدوء وصمت ، تشتغل بالابرة !

وأخيرا ، قرب الظهر ، أقبل عبر الطريق شخصان مغبرا الثياب : كان أحدهما ديفارج صاحب الحانة ، والآخر عامل من المشتغلين بتعبيد الطرق ، يضع على رأسه قلنسوة زرقاء . وبرغم أن عيونا كثيرة رأتهما ، لكن أحدا لم يتبعهما وهما يمران ، أو ينطق بكلمة وهما يدخلان الحانة .. وان اتجهت اليهما جميع الأنظار !

وقال مسيو ديفارج : « طاب يومكم أيها الرفاق » .. وللحال فك عقال كل لسان وانطلقت من الجميع صيحة واحدة تجيبه : « طاب يومك »

وأردف ديفارج وهو يهز رأسه : « الجو سىء يارفاق ! » .

وهنا نظر كل شخص الى جاره ، ثم أطرق الجميع الى الأرض ولاذوا بالصمت .. بينما نهض أحدهم فانصرف !

وقال ديفارج يخاطب زوجته : « لقد قطعت مسافة طويلة مع هذا الرجل الطيب من عمال الطرق . انه رفيق مخلص ، يدعى (**جاك**) .. فقدمى له شيئا من الشراب »

وهنا نهض رجل آخر فانصرف !.. ووضعت مدام ديفارج قدح الخمر أمام عامل الطرق المدعو (جاك) ، الذى خلع

قلنسوته تحية للجماعة ثم شرب نخبهم .. وعندئذ نهض ثالث وانصرف !

وأنعش مسيو ديفارج نفسه هو الآخر بشيء من الخمر ، دون أن تبدر منه نظرة الى أحد من الحاضرين ، أو ينظر أحد منهم اليه .. ولا حتى مدام ديفارج ، التى تناولت شغل الابرة من جديد وانهمكت فيه !

وبعد برهة سأل صاحب الحانة رفيقه : « هل فرغت يا صديقى ؟ » .. واذ أجابه شاكرا بالايجاب ، استطرد ديفارج : « هيا بنا اذن ، كى أريك الغرفة التى أعددتها لك ، والتى ستجدها مناسبة للغاية »

وخرجا من الحانة الى الفناء ، ثم صعدا السلم الصعبة الارتقاء الى غرفة ضيقة ، نفس الغرفة التى جلس فيها يوما كهل أشيب الشعر ، يصنع الأحذية ..

لكن الغرفة لم يكن بها الآن كهل أشيب الشعر ، وانما كان بها ثلاثة رجال — نفس الثلاثة الذين نظروا يوما من ثقب الباب الى ذلك الكهل ، ونفس الثلاثة الذين تسللوا من الحانة منذ برهة كل على انفراد : الثلاثة الذين يدعى كل منهم (جاك) !

وأغلق ديفارج الباب بعناية وقال هامسا : « أيها الرفاق ، جاك رقم (١) وجاك رقم (٢) وجاك رقم (٣) ، اليكم الشاهد الذى التقيت به أنا جاك رقم (٤) ، طبقا للأمر الصادر الى . وهو سيخبركم بكل شيء .. تكلم يا جاك رقم (٥) ! »

مسح عامل الطرق وجهه بقلنسوته الزرقاء ، وتساءل : « من أين أبدأ يا سيدى ؟ »

— ابدأ من البداية .

— رأيت (جاسبار) لأول مرة منذ نحو عام ، وكان متعلقا بالسلسلة فى أسفل عربة المركيز ، وكانت العربة تصعد تلا صعب المرتقى ..

فقاطعه جاك رقم (٣) : «كيف تعرفت عليه فيما بعد ؟!»

ـ من قامته الطويلة .. حتى أننى عندما سألنى المركيز عن شكله ، أجبته بأنه « طويل كالشبح ! »

فعلق جاك رقم (٣) : « كان ينبغى أن تصفه بأنه قصير ! »

ـ انه فى ذلك الوقت لم يكن قد ارتكب شيئا ! .. ما علينا ، لقد فر يومئذ .. ثم ارتكب الجريمة .. واختفى عن الأنظار !.. بحثوا عنه فى كل مكان ، كم شهرا : عشرة ، أحد عشر ؟

فقاطعه ديفارج : « دعنا من ذلك .. من سوء الحظ أنه قبض عليه أخيرا . استمر .. »

ـ وعدت الى عملى فى سفح التل .. وذات يوم رأيت ستة من الجنود مقبلين ، وفى وسطهم رجل مديد القامة موثق اليدين الى جنبيه . وكانوا جميعا مغبرى الثياب ، وأثناء مرورهم تعرفت على الرجل الطويل ـ الذى كان عاجزا فى هذه المرة عن الفرار الى أسفل التل ـ **وكان قائد القوة يقول لجنوده : ((هيا ، سوقوه سريعا الى قبره)) ، وعندئذ دفعوه نحو أسفل التل فى الطريق الى القرية ، فسقط على وجهه .. وحين أعانوه على النهوض ضحكوا اذ رأوا وجهه ملطخا كله بالدم ، الذى لم يسمح له وثاقه حتى بأن يمسحه .. ثم جاءوا به الى القرية ، فخرج أهلها جميعا ليتفرجوا عليه وحراسه يسوقونه خلال شوارعها ، مارين بالطاحونة ، ومنها الى السجن .. وهناك فتحت بوابات السجن وابتلعته ، هكذا ..**

وفتح الراوى فمه بأوسع ما استطاع ثم أغلقه دفعة واحدة .. بينما قال ديفارج يستحثه : « استمر ، يا جاك رقم (٥) »

ـ وتهامس أهل القرية بجوار النبع فترة ، ثم تفرقوا جميعاليناموا . وفى نومهم حلموا بالرجل التعس القابع هناك وراء القضبان ، والذى لن يخرج من سجنه الا الى قبره !.. وفى الصباح لمحوه وراء نافذة زنزانة ضيقة فى أعلى السجن ،

يطل من خلف قضبانها الحديدية على الخلاء الذى لن يطأ أرضه مرة ثانية !

تبادل المستمعون الأربعة نظرات عابسة ، وقد ارتسمت الرغبة فى الانتقام واضحة على كل وجه ، وان بدت عليهم وهم يصغون الى عامل الطرق سمات قضاة فى محكمة من محاكم العدالة .. ثم استطرد الراوى ، جاك رقم (٥) :

ـ وبقى الرجل هناك سبعة أيام ، والقرية كلهــا تتطلع اليه ولكن فى الخفاء ، خوفا من السلطات . وكل مساء ، عند اجتماع أهل القرية بجوار النبع ، كانت الأنظار جميعا ترتفع الى نافذة السجن ، وتكثر بين القوم الأقاويل والتكهنات عن مصير السجين .. حتى لقد قال البعض أنه لن يعدم ، لأن أحدهم رفع الى الملك التماسا يقول فيه ان الرجل قد جن على أثر مصرع طفله تحت عجلات عربة المركيز !

فقال جاك رقم (١) يقاطع الراوى : « هذا صحيح ، فقد قدم الالتماس الى الملك بالفعل . وكلنا ـ ما عداك ـ رأينــا الملك يتسلمه فى عربته أثناء مروره بها فى الطريق ، وقد جلس فيها بجوار الملكة .. وقد كان ديفاج ، هذا ، هو الذى خاطر بحياته فانطلق يعدو أمام الجياد ملوحا بالالتماس فى يده ! »

وأضاف جاك رقم (٣) : « .. وكلنا نعلم كذلك أن حراس الملك أحاطوا به وأوسعوه ضربا ! »

وقال ديفارج يخاطب الراوى : « استمر » .. فاستطرد هذا : « وفى صبيحة الاثنين استيقظت القرية لترى مشنقة ارتفاعها أربعون قدما قد نصبت بجوار النبع ! » .. وأشار المتحدث بيده كأنما ليعبر عن مـدى ارتفاع المشنقة ، ثم مضى فى قصته : « وتوقفت كل الأعمال فى القرية ، فلم يخرج أحد أبقــاره من حظائرها ، وانما تجمع الأهالى كلهم بجوار النبع . وعند الظهر سمعت دقات طبول ، وجىء بالسجين من سجنه وقد أحاطت به ثلة من الحراس . وكان موثقا كالعادة ،

وفى فمه قطعة من القماش كى تمنعه من الكلام .. وهكذا ، دون أن ينطق بكلمة ، شنقوه هناك ، ثم تركوه معلقا فى الهواء على ارتفاع أربعين قدما .. كان المنظر مخيفا ، ولا أدرى كيف جرؤت النسوة يومئذ على أن يستقين ماء من النبع ، وكيف استطاع الأطفال أن يلعبوا بجواره وذلك الشيء المعلق فوقهم يلقى ظلاله على المكان ! ؟

« كان المنظر مخيفا حقا .. وفيما أنا أغادر القرية مساء الاثنين ، تلفت الى الخلف فرأيت ظل المشنقة الطويل يترامى على بناء الكنيسة ، والطاحونة ، بل ويصل الى السجن أيضا ! .. ثم التقيت بهذا السيد ـ كما أرشدت من قبل ـ وحضرنا سويا ، نمشى آنا ونركب آنا ، طيلة يوم أمس وليلته .. وها أنذا بينكم »

وبعد فترة صمت طويلة قال جاك رقم (١) : « حسنا جدا ، انك قد تصرفت وتحدثت باخلاص .. فهل لك أن تنتظرنا قليلا خارج الغرفة » .. فأجاب عامل الطرق : « بكل سرور » واذ ذاك نهض ديفارج فرافقه الى قمة السلم ثم عاد الى رفاقه . وهنا قال رقم (١) : « ما رأيك فى هذا يا جاك ؟ هل ندرجهم فى القائمة ؟ »

فأجابه ديفارج : « فى قائمة الهلاك ؟.. نعم » .

فتساءل الأول : « أعنى هل نضع فى القائمة القصر وكل أسرة افريموند ؟ »

فأجاب ديفارج مؤمنا : « القصر وكل الأسرة ! » .

وعاد رقم (١) يقول : « هل أنت واثق أن القائمة فى أمان ؟ صحيح أنها مكتوبة بشفرة سرية لا يستطيع فهمها غيرنا ، ولكن ماذا لو قبض علينا مثلا ؟ هل تستطيع زوجتك أن تقرأها عند اللزوم ؟ » .. فأجابه ديفارج فى لهجة الثقة : **« لا تخش شيئا يا جاك ، فليست زوجتى فى حاجة الى القائمة . وانما يكفى أن يدرج فيها اسم ما ، كى يسجل هذا**

الاسم فى ذاكرة زوجتى ! انها تظل تكرر الاسم لنفسها وهى تنسج بالابرة ، وتنسج كل اسم فى ذاكرتها .. وما من حرف من اسم سوف يفلت من قائمة مدام ديفارج المحبوكة ! »

غمغم الجميع بكلمات الاستحسان ، وسأل أحدهم : « وماذا بشأن عامل الطرق ؟ هل ينبغى اعادته توا ؟ انه ساذج للغاية ، أفلا يكون مصدرا للخطر ؟ » .. فأجاب ديفارج : « انه لا يعلم شيئا ، وسأتولى أمره . انه يتوق الى رؤية عالم المترفين ، والملك ، والملكة ، والبلاط .. وسوف يراهم يوم الأحد ، وبعد ذلك أعيده من حيث أتى ! »

ـ ماذا ! أمن الحكمة أن ندعه يرى الملك والنبلاء ؟

ـ جاك .. اذا أنت أريت القط لبنا ، اشتاق الى أن يشربه .. واذا أريت الكلب أرنبا ، فسيأتى يوم يصطاده فيه ويقتله !

وعند هذا انفض عقد المجتمعين ، وتفرق كل الى سبيله ..

*

بقى عامل الطرق أياما نزيل الحانة . وكانت حياته فيها جديدة وشائقة ، وان كانت مدام ديفارج قد أفزعته ! كانت دائما صامتة ، دائما تشتغل بالابرة ، ولم تلق بالا الى وجوده .. وكان كلما نظر اليها ارتجفت أوصاله . وكم أفسد عليه نشوة يوم الأحد الموعود أن علم أنها ستصحبه الى جانب زوجها فى الرحلة الى (فرساى) ، حيث مقر الملك ..

وكالعادة ، أخذت مدام ديفارج معها شغل الابرة ، وانهمكت فيه حتى فى العربة العامة التى حملتهم الى هناك .. ولفت ذلك انتباه أحد المسافرين فقال لها : « انك تعملين جادة يا سيدتى ! »

فأجابته : « نعم ، فلدى قدر كبير يجب أن أنجزه »

ـ وما هذا الذى تنسجين يا سيدتى ؟

ـ أشياء كثيرة ..

ـ مثلا ؟

ـ أكفان للموتى مثلا ..

انكمش الرجل فى مقعده وابتعد عنها بقدر ما وسعه . واضطرب عامل الطرق بدوره لدى سماعه كلماتها .. لكنه لم يلبث أن نسى كل شىء حين وقع بصره على الملك والملكة الشقراء فى عربتهما الذهبية ، يحف بهما رجال القصر ووصيفات البلاط .. ذلك الحشد من النساء الضاحكات والسادة المترفين .. وتلك الحلى والجواهر المتألقة ، وهذا الحرير والديباج اللامع ، والوجوه الأبية المترفعة !.. كل ذلك أنسى عامل الطرق نفسه ، فرفع قلنسوته ولوح بها هاتفا بأعلى صوته : « عاش الملك .. عاشت الملكة »

وحين انتهى مرور الموكب قال له ديفارج : « ها ! يا لك من رجل طيب » .. فبدأ عامل الطرق يسأل نفسه عما اذا كان قد ارتكب حماقة ؟ ولكن كلا ، فقد همس ديفارج فى أذنه : **« انك بالضبط الرجل الذى يلزمنا ، فأنت تدخل فى روع هؤلاء الحمقى أن سلطانهم سيدوم الى الأبد .. وهكذا تغدو مهمتنا أكثر سهولة ! »**

وهز عامل الطرق رأسه موافقا .. بينما استطرد ديفارج : « ان هؤلاء الأغبياء غافلون عن كل شىء .. انهم يحتقرونك ويفكرون فى جيادهم وكلابهم أكثر مما يفكرون فيك .. فلنمض فى خداعهم فترة أخرى ، وسيأتى يومنا ! » .. ونظرت مدام ديفارج الى عامل الطرق فى برود ، وقالت : « اصغ الى يا هذا .. لو عرض عليك سرب من الطيور العاجزة عن الطيران ، وقيل لك أن تنتزع ريشها كى تنتفع به ، أفلا تبدأ بانتزاع أجمل الريش أولا ؟ »

ـ بلى يا سيدتى ، بلا شك ..

وعندئذ أردفت مدام ديفارج وهى تلوح بيدها فى الاتجاه الذى سلكه الموكب الملكى : « لقد رأيت طيورا جميلة اليوم .. والآن ، انصرف الى بيتك »

الفصل الحادى عشر

الجاسوس

● **وفيما** كان ديفارج وزوجته عائدين الى حانتهما عبر الشوارع الغارقة فى الوحل الأسود ، قالت مدام ديفارج لزوجها : « ماذا قال لك جندى البوليس جاك ؟ »

ـ لم يقل لى شيئا يذكر الليلة .. لكنه قال أن هناك جاسوسا جديدا فى طريقه الى هذا الحى !

ـ أوه ، حسنا ! اذن فينبغى أن نضيفه الى القائمة .. وما اسمه ؟

ـ جون بارساد .. وهو انجليزى .

ـ عظيم . وهل عرف شيئا عن شكله ؟

ـ ان سنه تدور حول الأربعين ، وطوله حوالى خمسة أقدام وتسع بوصات ، وشعره أسود ، وهو ذو وجه نحيل طويل ، وأنف معوج الى اليسار !

ـ انها أوصاف مميزة .. سأضيفه الى القائمة .

وبلغا الحانة فى منتصف الليل .. فبدأت مدام ديفارج باحصاء النقود التى أنفقت فى غيابهما ، بينما راح زوجها يذرع المكان جيئة وذهابا وهو يدخن غليونه . ورغم انهماكها فى عد النقود فانها لاحظت أنه بدا متعبا ومكتئبا ، فابتدرته : « انك الليلة واهن النفس »

فأجابها : « قليلا .. ان الطريق أمامنا طويل ! » .. فأمنت على قوله فى هدوء : « **نعم ، ان الطريق طويل .. لكن الانتقام يلزم لاعداده وقت طويل ، فعلينا أن نتذرع بالصبر . ولنذكر أن كل يوم يمر يدنينا من الانتقام .. فانظر حولك الى الفساد والتذمر المستشريين فى أنحاء البلاد . أتعتقد أنهما يمكن ان يدوما ؟** »

ـ انك على حق ، ولكن قد لا تحين ساعة الخلاص فى عهدنا ..

ـ حتى لو حدث ذلك فاننا نكون قد ساهمنا فى تقريبها . وما من شيء نفعله يذهب سدى .. لكننى شخصيا أعتقد أننا سنعيش حتى نرى النصر .

*

وعند ظهر اليوم التالى كانت مدام ديفارج جالسة فى ركنها المعتاد تشتغل بالابرة ، حين دخل الحانة رجل غريب .. فلم تكد تلمحه حتى غرست وردة فى شعرها ، وفى الحال توقفت أكثر الأحاديث فى الحانة .. وأخذ الجالسون فيها يتسللون منها واحدا بعد الآخر !

وقال الغريب : « طاب يومك يا سيدتى » .. فأجابته : « طاب يومك يا سيدى » ، ثم أضافت فى سرها : « ها ! السن حوالى الأربعين ، والطول خمسة أقدام وتسع بوصات ، والشعر أسود ، والوجه طويل نحيل ، والأنف معوج الى اليسار .. طاب يومك ! »

وبعد أن طلب الغريب قدحا من الخمر قال للمرأة : « انك تشتغلين بالابرة بمهارة كبيرة يا سيدتى ! »

ـ بحكم العادة .

ـ ولماذا تتكلفين هذه المشقة ؟

ـ لقتل الوقت .

ـ وهل أحوال العمل على مايرام ؟

ـ بل انها سيئة للغاية ، فالناس جميعا يشكون الفقر .

ـ آه ، يا للمساكين .. انهم يعاملون أسوأ معاملة ، كما تقولين .

فقاطعته مصححة : « بل كما تقول أنت ! »

ـ عفوا ، لقد كنت أنا الذى قلت ذلك ، ولكن لا شك أن هذا رأيك ..

فانبرت له المرأة محتجة : ((رأيى ؟ اننى وزوجى لدينا ما يكفينا من مشاغل ادارة هذه الحانة ، بحيث لا يتسع وقتنا لأى تفكير فيما عدا ذلك . كل ما نفكر فيه هو كيف نعيش ..))

لكن الجاسوس الذى جاء ليجمع أية معلومات يستطيع الحصول عليها ، لم يدع خيبة أمله تظهر على وجهه ، وانما استطرد مثابرا : ((لقد كانت نهاية سيئة ، نهاية جاسبار المسكين !)) .. فقالت المرأة فى هدوء : ((اذا كان الناس يلجأون الى المدى فى مثل هذه الأحوال ، فعليهم أن يدفعوا الثمن))

فقال الجاسوس وهو يخفض صوته : ((أعتقد أن أهل هذا الحى قد فاضت قلوبهم بالشفقة على ذلك المسكين ، وأحنقهم اعدامه !))

ــ حقا ؟ آه ! هذا زوجى مقبل ..



وقال الجاسوس للقادم وهو يلمس قبعته محييا : « طاب يومك يا جاك ! » .. فتوقف ديفارج فجأة وحدجه بنظرة فاحصة . لكن الجاسوس كرر عبارته : « طاب يومك يا جاك ! » .. وعندئذ أجابه صاحب الحانة : « انك مخطىء ، فليس هذا اسمى . اننى أدعى أرنست ديفارج »

فقال الجاسوس وقد خاب فأله مرة أخرى : « سيان ، طاب يومك ! » .. فأجابه ديفارج فى هدوء : « طاب يومك ! » .. لكن الجاسوس واصل محاولاته : « كنت أقول للسيدة أن أهل الحى تفيض نفوسهم شفقة وحنقا من أجل جاسبار المسكين » .. فأجاب ديفارج فى ثبات : « لم أسمع شيئا من هذا القبيل .. ولا أعلم شيئا عنه »

واذ فرغ الجاسوس من احتساء قدحه ، طلب قدحا آخر .. واستطرد : « ان اسمك يا مسيو ديفارج يذكرنى



بسيدك القديم الدكتور مانيت . أحسبه حين أطلق سراحه لجأ اليك ؟ »

ـ هذا صحيح .

ـ لقد عرفت دكتور مانيت وابنته فى انجلترا . هل لديك أنباء عنهما هذه الأيام ؟

ـ كلا .

ـ ان الفتاة على وشك الزواج ، ولكن من رجل غير انجليزى .. وعلى ذكر جاسبار المسكين ، من الغريب أنها ستتزوج من ابن أخى المركيز الذى قتله جاسبار !.. وقد ورث الشاب بالطبع ثروة عمه القتيل ولقبه . لكنه يعيش مجهولا فى انجلترا ، متجردا من لقبه ، مطلقا على نفسه اسم تشارلس دارنى ـ الذى حرفه من اسم أسرة أمه المعروفة بـ « دولنى »

لم يبد على مدام ديفارج أدنى اهتمام بهذه الأنباء ، وان بدا ذلك على زوجها ، الذى برغم محاولته التظاهر بالهدوء التام ، عجز عن منع يده من الارتعاش وهو يشعل غليونه .. وما كانت دلالة هذه الحركة لتخفى على عين جاسوس محترف !

واذ أحرز بارساد على الأقل هذا النصر الوحيد المتواضع ، دفع ثمن شرابه وغادر الحانة .. لكن الزوجين بقيا عدة دقائق فى نفس الوضع الذى تركهم عليه ، خشية أن يعود ثانية !.. وأخيرا قال ديفارج بصوت خفيض : « أيمكن أن يكون قوله صحيحا ؟ » .. فأجابته زوجته : « ما دام هو الذى قاله فقد يكون النبأ مكذوبا .. ولكن يحتمل أن يصدق ! »

ـ ان صح النبأ ، وجاءت النهاية فى أيامنا ، فانى أرجو أن يبقى القدر زوجها بعيدا عن فرنسا !

ـ ان القدر سيحمله الى حيث كتب له ، وسيقوده الى النهاية التى هى من نصيبه .. هذه هى عقيدتى التى أومن بها !

*

◉ وكانت مدام ديفارج قد اعتادت أن تنفق كل مساء فى التنقل من مكان الى مكان فى حى سان أنطوان لزيارة النسوة اللواتى يشتغلن أشغال الابرة مثلها . وكن ينسجن أشياء عديمة الفائدة ، لكن هذا العمل الآلى كان يلهيهن عن طلب الطعام والشراب ، وكأن حركة اليدين تغنى عن حركة الفم .. فلو توقفت الأصابع النحيلة لتنبهت المعدة أكثر فأكثر الى الجوع الذى تعانيه .

وحين هبط الظلام ، كان ظلام آخر يطبق على فرنسا !.. واذا أجراس الكنائس التى كانت تدق دقاتها البهيجة فى سكون الليل تتأهب لليوم الذى تصهر فيه كى تصنع منها بنادق .. والصوت الذى كان فى تلك الليلة يجلجل قويا فى الفضاء سوف يخرسه الموت .. والنسوة اللواتى يشتغلن بالابرة فى حى سان أنطوان لن يلبثن أن يمارسن هوايتهن هذه بجوار شىء لم يكن قد شيد بعد ، وهن يحصين الرءوس التى تسقط من هذا الشىء .. سوف يشتغلن بالابرة تحت ظل المقصلة (١) .

◉ (١) كانت المقصلة تتكون من سكين ثقيلة مائلة تسقط بين مجريين .. وقد استعملت لاول مرة فى ايطاليا حوالى عام ١٣٠٠ ، ثم اقترح طبيب يدعى الدكتور جيلوتين فكرة استعمالها فى الثورة الفرنسية .. فهى لم تكن من اختراع الدكتور جيلوتين وانما اخترعها شخص يدعى « انطوان لويس » ، وقد أطلق عليها فى البداية اسم « لالويزون » ، نسبة الى اسمه .

الفصل الثانى عشر

غبطة .. وأسى

● **كان** اليوم يوم زفاف لوسى مانيت وتشارلس دارنى ، وقد سطعت شمس الصباح بأشعتها المشرقة .. وجلس مستر لورى ، ولوسى ، ومس بروس ، خارج غرفة الطبيب ، بينما اختلى تشارلس والدكتور مانيت فى الداخل يتحدثان .. ولم يكن باقيـــا على موعد ذهاب الجميع الى الكنيسة غير فترة وجيزة .

وبدت العروس رائعـــة الحسن ، بحيث لم يكن مستر لورى ومس بروس مغاليين فى اطرائهما البالغ لها !.. وقال مستر لورى : « وهكذا يا عزيزتى ، من أجل هذا اليـــوم أحضرتك فى أمان وأنت طفلة بين ذراعى عبر القنال الانجليزى .. وخليق بمستر تشارلس أن يعترف بجميلى ، ألا تعتقدين ذلك يا مس بروس ؟ »

فأجابت مس بروس : « هراء ! انك لم تفعل صنيعك من أجله ، ومن ثم فليس لك عليه دين ولا جميل » .. فقال مستر لورى : « لعلك على حق ، ولكن لماذا تبكين ؟ »

فالواقع أن مس بروس كانت من السعادة بحيث التمعت الدموع فى عينيها ! ولكنها كانت تطوى جوانحها على داع خفى للأسى : هو أن أخاها العزيز الغـــالى سولومون (سليمان) ــ الذى سلبها مالها وهجرها منذ سنوات بعيدة ، وان كانت ما تزال تحبه ــ لم يكن هو زوج عزيزتها لوسى !

وقالت تجيب لورى : « لست أبكى ، بل انى أرى الدموع فى عينيك أنت ! » .. فرد عليها محتجا : « فى عينى أنا ؟ هراء !.. والآن يا عزيزتى لوسى ، دعينى أقبلك وأباركك قبل أن يخرج الينا تشارلس ويطلب الاستئثار بك » .. وفى هذه اللحظة فتـــح باب غرفة الطبيب وخرج منه الدكتور مانيت

وبصحبته تشارلس دارنى .. وكان وجه الأول شاحبا شحوب الموتى ، لا أثر للحيوية فيه ، لكن مسلكه كان هادئا حتى لقد بدا عليه البشر واضحا .. على أن عين مستر لورى الفاحصة ما كانت لتنخدع بمثل هذا التظاهر ، فقد أدرك أن شيئا ما لا بد قد حدث داخل الغرفة فصدم الكهل بشدة !

وقدم الطبيب ذراعه لابنته وقادها الى أسفل حيث كانت تنتظرهما العربة التى استأجرها مستر لورى لهذه المناسبة .. ثم تبعهما الباقون فى عربة أخرى ، وسرعان ما وصل الركب الى كنيسة قريبة ، عقد فيها قران العروسين فى غير حضور أحد من الغرباء .

وعاد الجميع الى البيت ليتناولوا الافطار ، فى جو يسوده المرح والانشراح . وكان يتألق على ذراع لوسى سوار من الماس أهداها اياه مستر لورى .. ولم تلبث لوسى أن ودعت أباها لتنصرف . وكان الفراق قاسيا عليه ، سيما وهو لم يفترق عنها يوما منذ اجتمع شملهما فى حانة ديفارج بباريس .. على أن هذا الفراق لم يكن ليطول ، فقد كان مقدرا أن يلحق الأب بالعروسين بعد أسبوعين ، ليقضى الثلاثة معا الأيام الباقية من شهر العسل ثم يعودوا سويا الى دارهم .

وخلص الأب رقبته من ذراعى ابنته وهو يقول لزوجها : « خذها يا تشارلس ، فهى لك » .. وسرعان ما كانت يدها تلوح لهم من نافذة العربة مودعة ، بينما وقف والدها ومستر لورى ومس بروس يلوحون لها حتى اختفت العربة عن الأنظار .

وبرغم أن الطبيب كان بادى المرح ، يحاول جاهدا ـ ويوفق فى محاولته ـ أن لا يفسد سعادة ابنته .. فان شيئا ما كان يقلقه . وحين رفع يده الى رأسه وسار متخاذلا الى غرفته ، تذكر مستر لورى صانع الأحذية المحطم الذى رآه فى حانة مسيو ديفارج ! .. فقال يهمس لمس بروس : « أرى من الأفضل ألا نتحدث اليه الآن أو نزعجه . وانى

مضطر للذهاب الآن الى بنك تيلسون ، لكنى سأعود سريعا . وعندئذ نأخذه فى نزهة خلوية نتناول فيها الغداء ، وآمل أن يسير كل شىء على ما يرام »

وعاد لورى من عمله بعد ساعتين ، وفيما هو يصعد السلم الى مخدع الطبيب ، استوقفه صوت طرقات عالية تنبعث من الحجرة .. فهتف مأخوذا : « يا آلهى ! ما هذا ؟ » .. وأقبلت مس بروس تصيح ووجهها ينطق بالفزع : « لقد ضاع كل شىء ! ماذا نقول للعزيزة لوسى ؟ أنه لا يعرفنى ، وقد عاد الى صنع الأحذية ! »

وحاول مستر لورى تهدئة المربية بكل ما فى وسعه ، ثم مضى الى داخل حجرة الطبيب .. كانت منضدة صانع الأحذية موضوعة فى مواجهة النافذة — كما كانت فى تلك الحجرة بباريس — وكان الكهل منكبا على عمله وقد بدا عليه الانهماك الشديد .

— دكتور مانيت ! يا صديقى العزيز .. دكتور مانيت !

رفع الطبيب رأسه لحظة — فى شىء من التساؤل الذى يخالطه الغضب لكونه قد أزعج أثناء عمله — ثم عاد ينكب على عمله من جديد . ولاحظ مستر لورى أنه كان منهمكا فى صنع حذاء ، فتناول من جانبه حذاء آخر وسأله عنه .. فأجاب الكهل : « انه حذاء فتاة .. وكان يجب أن أفرغ منه منذ زمن طويل ! » .. فهتف به لورى : « ولكن ، دكتور مانيت .. أنظر الى ! » .. فأطاع الكهل كما لو كان قد ألف أن يتلقى الأوامر ويطيعها .. بينما استطرد زائره : « ألا تتذكرنى يا صديقى العزيز ؟ أمعن الفكر . ليست هذه مهنتك الأصلية . تذكر يا صديقى ، تذكر ! »

ولكن بلا جدوى ، فقد واصل مانيت عمله فى صمت ..

وقرر مستر لورى أن يكتم الأمر عن لوسى وعن كل من

يعرفون الطبيب . وبمعاونة مس بروس أخطر الأصدقاء جميعا أنه مريض ويحتاج الى الراحة بضعة أيام ! أما لوسى فقد تقرر أن تكتب اليها مس بروس خطابا تنبئها فيه بأن أباها قد استدعى الى جهة بعيدة ليعالج مريضا ..

واعتزم لورى أن يراقب مانيت عن كثب دون أن يظهر له ذلك ، ومن ثم دبر أن يغيب عن عمله فى البنك بضعة أيام ، لأول مرة فى حياته ، وأن يأتى ليقيم فى بيت صديقه !.. وقضى اليوم التالى فى حجرة يستطيع منها أن يرى مانيت وهو يعمل . ولم يحاول أن يتحدث اليه ، اذ وجد أن ذلك لا يزيده الا سوءا . وكان الطبيب يأكل ما يقدم اليه ، ويعمل مثابرا طيلة النهار حتى يهبط الظلام فتتعذر عليه الرؤية .

وأقام لورى فى البيت تسعة أيام ، حافلة بالقلق ، فقد كان يشفق من الساعة التى يبلغ فيها النبأ مسامع لوسى !.. وفى مساء اليوم التاسع غلبه الارهاق من تأثير مراقبته لصديقه المريض طول النهار ، فنام فى مقعده .. وحين استيقظ وجد الشمس تملأ الغرفة فنهض ليطمئن على مريضه .. وكم كانت دهشته حين وجده مرتديا ثيابه العادية وجالسا الى جوار النافذة يقرأ ، وقد أبعدت جانبا المنضدة والأدوات الخاصة بصنع الأحذية !

ومضى مستر لورى ، دون أن ينبس بكلمة ، الى حيث تشاور فى الأمر مع مس بروس ، فقررا ألا يفاتحا الطبيب بشأن ما حدث ، بل ينتظرا حتى يحين موعد الافطار فيلقيا عليه تحية الصباح ، كما لو لم يكن قد حدث شيء !

ونفذا هذه الفكرة بالفعل ، فناديا الطبيب ليتناول الافطار كالمعتاد .. ولما حضر ، تحدثوا ثلاثتهم أحاديث عامة عابرة ، لكنهم حين تعرضوا بالمصادفة لذكر ذلك اليوم من أيام الأسبوع ، وتاريخه ، لاحظا أن الطبيب بدأ يعد أرقام الأيام ، واعتراه شيء من الاضطراب !.. واذ ذاك قرر مستر

لورى أن يستشير طبيبا فى شأن هذه الحالة ، وكان الطبيب الذى وقع عليه اختياره هو دكتور مانيت نفسه !

وهكذا لم تكد ترفع بقايا طعام الافطار من على المائدة ، حتى ابتدر مستر لورى جليسه ، بلهجة تنم عن التعاطف : « بودى أن أستشيرك يا عزيزى الطبيب فى شأن حالة على شيء من الخطورة ، يهمنى أمرها ، هى حالة صديق عزيز على .. فبربك أصدقنى النصح فى شأنه ، من أجله ومن أجل ابنته الوحيدة .. »

فقال الطبيب فى صوت خفيض : « اذكر لى تفصيلات الحالة بحذافيرها .. »

فأردف مستر لورى : « منذ زمن طويل ، أصيب صديقى هذا بصدمة شديدة ، أثرت على حالته العقلية . وهو لا يذكر الآن كم طال به الزمن وهو على تلك الحالة ، لكنه بمرور الزمن شفى من تلك الصدمة ، دون أن يعرف السبب الذى أدى الى شفائه !.. غير ان الحالة عاودته أخيرا ، لسوء الحظ .. »

فسأل الطبيب محدثه : « هل عاودته لفترة طويلة ؟ »

ـ لتسعة أيام ، وتسع ليال ..

ـ وهل تعلم ابنته بعودة الصدمة اليه ؟

ـ كلا ، وآمل ألا تعلم بذلك قط .. فقد كتم الأمر عنها ، فلم يعلم به سواى ، وسوى شخص آخر يمكن الوثوق بصيانته للسر !

فقبض الطبيب يده ، وغمغم : « كان ذلك فضلا كبيرا منك ، تشكر عليه . » .. فقبض مستر لورى يده بدوره ، ولاذ كلاهما بالصمت فترة من الوقت .. قبل أن يستطرد لورى متسائلا : « والآن ، يا عزيزى الطبيب ، بحكم انى رجل أعمال ، عاجز عن معالجة مثل هذه الأمور على الوجه الصحيح ، تجدنى فى حاجة الى نصيحة خالصة . وأتوسم فيك أن ترشدنى وتصارحنى بالحقيقة . فبالله أخبرنى : كيف

حدثت الصدمة ؟ وهل يخشى أن تعاوده ؟ وكيف تعالج اذا عاودته ؟ » .

لبث الطبيب برهة يفكر ، قبل أن يجيب : « فى اعتقادى أن صديقك قد يكون عانى كثيرا من خوفه أن تعاوده الصدمة .. وبلغ من خوفه أنه عجز عن أن يتحدث فى شأنها الى أحد! »

فسأله مستر لورى : « وما هو فى رأيك سبب النكسة ؟ »

فأجاب الطبيب : « سببها فى اعتقادى هو تذكره المفاجىء للشىء الذى أحدث له الصدمة الأولى ! »

— وما الذى تنصح به بشأن المستقبل ؟

فاستطرد الطبيب ، بلهجة الجزم : « أما بشأن المستقبل ، فأملى كبير فى انه ما دام قد شفى من النكسة الأخيرة بهذه السرعة ، فانها لن تعاوده مرة أخرى ، لأن ما خشى منه قد وقع ، وأسوأ ما فى الأمر قد فات وانقضى ! »

— أن هذا القول يثلج صدرى . أشكرك .

فكرر الطبيب ، وهو يحنى رأسه شكرا لله : « وأنا بدورى ، شاكر لك . »

وبذلك مرت الأزمة .. وخرج الصديقان الى حيث قضيا يوما بهيجا فى نزهة خلوية ، وقد بدا على الطبيب أنه استعاد كامل وعيه .. وفى الأيام الثلاثة التالية ظل على أحسن حال ، فلما كان اليوم الرابع سافر ليلحق بلوسى وزوجها .

وفى ليلة سفره ، تسلل لورى الى مخدعه ومعه بعض أدوات النجارة .. ولم يلبث أن سمع صوت نشر وتحطيم أخشاب ، صادرا من الغرفة ، ثم تبعته فرقعة أخشاب فى المدفأة ، وتصاعدت منها سحب عالية من الدخان .. وتلت الأخشاب فى المدفأة أحذية غير تامة الصنع ، وقطع من الجلد ، فأحرقت كلها فى احتفال مرح .. وأخيرا حفر لورى حفرة فى الحديقة ألقت فيها مس بروس كل أدوات صنع الأحذية .

وهكذا اختفت آخر آثار صانع الأحذية الذى شاهدناه فى حانة ديفارج بباريس !

الفصل الثالث عشر

الثــورة

● **عندما** عادت لوسى وزوجها الى دارهما من رحلة شهر العسل ، كان من أوائل زائريهما « سيدنى كارتون ». واستمر يزورهما بين الحين والآخر ، كل شهرين تقريبا .. وفى نهاية العــام بدأ البيت يردد الصدى المرح لضحكات طفلتهما « لوسى » ! ولوحظ أن الصغيرة كانت تبدى ميلا واضحا نحو سيدنى كارتون كلما جاء ليزور والديها ..

وكان من بين زوار البيت الآخرين أيضا مستر لورى ، الذى كان أكثر ترددا على الأسرة من كارتون . وذات مساء ، فى منتصف يولية سنة ١٧٨٩ ، جاء متأخرا من البنك مباشرة ، وجلس بجوار لوسى وزوجها أمام النافذة المطلة على الشارع المظلم .. ثم قال : « كدت أحسب أننى سأضطر الى قضاء الليلة فى البنك ، اذ كان لدينا عمل متواصل طيلة النهار بشكل لم يسبق له مثيل ، فقد بلغ الانزعاج بأهل باريس حدا جعلهم يعهــدون بأموالهم الينــا وينقلونهـــا الى انجلترا بأسرع ما يستطيعون ! » .

فقال دارنى : « هذا نذير سىء ! » .. وأضاف لورى : « هذا صحيح ، لكننا لا نعرف السبب فى هذه الظاهرة . أين مانيت ؟ » .

.. فأجابه صوت الطبيب وهو يدخل الغرفة : « هذا هو .. هل لك أن تشترك معى فى لعب الورق ؟ »

ــ لا أظن ، فانى جــد متعب . لكنى لا أمانع فى قدح من الشاى اذا تكرمت على به لوسى ..

فقالت لوسى : « بلا شك » .

ــ شكرا يا عزيزتى . هل أوت الطفلة الى فراشها ؟

ــ أجل ، واستغرقت فى النعاس .

ــ هذا حسن . الكل فى أمان وخير حال . وأحمد الله على

عدم وجود ما يعكر الأمن والسلامة فى بلادنا . لكنى صادفت من أسباب الاضطراب خلال النهار ما يجعلنى فى غير حالتى الطبيعية ، وكأنى قد شخت فجأة عن ذى قبل ! أهذا قدح الشاى يا عزيزتى ؟ شكرا .. والآن فلنهدىء من روعنا ونأخذ فى الحديث .

*

● فى ذلك اليوم ذاته كان هناك عبر البحر - فى حى «سان انطوان» بباريس - زئير مروع ينبعث من حناجر الجماهير ، و «غابة» من السواعد العارية تلوح فى الهواء مهددة ، وكأنها أغصان أشجار تهتز فى مهب ريح الشتاء !.. كانت كل الأيدى تحمل أسلحة : بنادق، وقضبانا من الحديد والخشب، وسكاكين، وفؤوسا ، وكل سلاح آخر يؤدى الغرض . وكان الذين لا يجدون سلاحا ينتزعون الأحجار وقوالب الطوب من مكانها فى الجدران حتى تدمى أياديهم !.. وكان مركز هذه الجماهير الثائرة حانة ديفارج ، حيث وقف ديفارج نفسه يصدر الأوامر ويوزع الأسلحة وقد اتسخت ثيابه ووجهه بغبار البارود وقطرات العرق ..

وصاح فى واحد من رجاله : «ابق بالقرب منى يا جاك رقم (٣) .. وأنتما يا جاك رقم (١) ورقم (٢) ، تفرقا وتزعما أكبر عدد من هؤلاء المواطنين .. أين زوجتى ؟» .. فأجابته هذه وهى لاتزال محتفظة بهدوئها المألوف - وان كفت اليوم عن شغل الابرة ! - «هأنذا ، انى سألازمك فى الوقت الحاضر، لكنك بعد قليل سترانى على رأس النساء الثائرات !» .

وعاد ديفارج يصيح : «هيا بنا أيها الرفاق والمواطنون .. نحن على استعداد .. فالى الباستيل !» .

وبزمجرة كالرعد تحرك ذلك البحر المتلاطم من الأجسام ، موجة فى اثر موجة ، فغمر المدينة حتى موضع ذلك السجن

الكبير .. ولم تلبث سحب الدخان وألسنة النار أن تصاعدت ففطت جدرانه الحجرية الضخمة ، وأبراجه الثمانية الشاهقة ! وفى وسط ذلك الجحيم من اللهب والدخان كان ديفارج يصيح بالجموع الصاخبة : « الى العمل يا رفاق ، الى العمل !.. الى العمل ياجاك رقم (١) ، وجاك رقم (٢) ، وجاك رقم (ألف) ، وجاك رقم (٢٥ ألفا) ! » .. بينما صاحت زوجته بالثائرات : « الى أيتها النساء .. فنحن نستطيع أن نقتل كما يقتل الرجال حين يسقط الحصن » .. فتدافعت اليها النساء من كل صوب وقد تسلحن بأسلحة مختلفة ، لكنهن جميعا تشابهن فى تسلحهن بالجوع والتعطش الى الانتقام !

وفجأة رفع علم أبيض داخل بناء السجن .. وفى أقل من طرفة العين اكتسحت الجماهير ديفارج الى داخل القلعة المستسلمة ،وهو لا يكاد يجد وقتا ليتنفس أو يدير رأسه ، حتى وجد نفسه فى الفناء الخارجى .. وكانت الضوضاء والصيحات والهتافات تنبعث من كل صوب مرددة : « السجناء! .. السجلات !.. القسم السرى ! » .. وقبض الثوار على ضباط السجن وهددوهم بالموت فورا اذا لم يرشدوهم الى كل ركن سرى من أركان السجن .. وأمسك ديفارج نفسه بواحد منهم وصرخ فيه : « أرنى طريق البرج الشمالى ! أسرع ! » .. فأجاب الرجل : « سأريك أياه طائعا . تعال معى .. لكنه خال من أى معتقل » .

ـ وما معنى عبارة « ١٠٥ ، البرج الشمالى » ؟

ـ انه رقم زنزانة ..

ـ أرنى اياها !

ـ اتبعنى اذن ..

وقاد ضابط السجن ديفارج وزميله جاك رقم (٣) نحو المكان المنشود ، مارين بأبهاء حجرية معتمة لم ينفذ اليها يوما ضوء النهار .. وزنزانات ضيقة حالكة الظلمة ، كالأقفاص ،

ذات أبواب كئيبة المنظر .. ودرجات سلم حجرية رطبة .. وبحكم سمك الجدران ، لم تلبث ضوضاء الجماهير الصاخبة فى الخارج أن تلاشت تماما !

ووقف الرجل بمرافقيه أمام باب منخفض ، فوضع فى قفله مفتاحا ، ثم فتح الباب الثقيل بكل صعوبة وبطء ، قائلا : « هاهى الزنزانة رقم (١٠٥ ، البرج الشمالى) .. كانت فى الزنزانة كوة صغيرة فى أعلى الجدار ، ذات قضبان ، ولكن بغير زجاج .. وثمة مدفأة صغيرة ، تتخللها بدورها القضبان الغليظة ، ومقعد خشبى ، ومنضدة ، وحشية من القش .. وفيما عدا ذلك لم تكن ترى غير الجدران الأربعة السوداء ، وحلقة حديدية صدئة فى أحدها ..

وقال ديفارج : « قرب المصباح من هذه الجدران كى أفحصها » .

فأطاع الرجل .. وفجأة هتف ديفارج بزميله : « أنظر هنا يا جاك ! » فقرأ جاك على الجدار ، حرفى : « ا.م » .. واذ ذاك همس ديفارج فى أذنه : « (ألكسندر مانيت) .. وهنا مكتوب أيضا : «طبيب تعس» .. أعطنى هذا القضيب الحديدى يا هذا » .. واستدار نحو المقعد الخشبى والمنضدة فأهوى عليهما ببضع ضربات تركتهما حطاما ! ثم أردف لزميله : « افحص الحطام جيدا يا جاك ، ودقق النظر ! واليك مديتى شق بها هذه الحشية وافحص قشها .. ارفع المصباح قليلا يا هذا ! » .

وفحص ديفارج بنفسه المدفأة ، فأخرج منها بعض القاذورات والغبار ، وفتش بأصابعه فى داخلها وبين بقايا ورماد الخشب المحترق فى قاعدتها .. ثم سأل صاحبه : « ألم تعثر على شىء بين الخشب والقش يا جاك ؟ » واذ أجابه هذا بالنفى ، أردف : « فلنجمع الحطام ونحرقه .. أشعل النار فيها يا هذا ! » .

فأشعل ضابط السجن النار فى الكومة الصغيرة ، ثم تركها الثلاثة وقد تصاعدت منها ألسنة اللهب وخرجوا من الباب المنخفض .. وعادوا أدراجهم الى الفناء الخارجى حيث كانت تسمع ضوضاء الثوار .

وكان هؤلاء قد وضعوا أيديهم على حاكم السجن وساقوه الى المحاكمة . وكانت ترى بالقرب منه مدام ديفارج ، التى لم تكد تلمح زوجها حتى نادته ليشهد ما سيجرى .. وسارت هى بالقرب من الحاكم التعس تلازمه وهم يمضون به .. فلما تلقى الضربة من الخلف وسقط ميتا ، وطأت عنقه بقدمها .. وقطعت رأسه !

هكذا بدأت الثورة ، وهكذا استمرت .. فلقد حل يوم ((سان انطوان)) الموعود ، فغضب غضبته ! كانوا يشنقون الرجال على أعمدة المصابيح فى الشوارع ، وأطلقوا سراح المسجونين فى ((الباستيل)) وحملوا هؤلاء التعساء الذاهلين على أعناقهم خلال الطرقات .. وبالاختصار ، فانهم كانوا فى كل ما فعلوا قساة لا يرحمون .. فلقد صهرتهم نار الآلام والعذاب فزادتهم صلابة ، بحيث ما عادت لمسة الشفقة الناعمة تترك أثرا فى قلوبهم التى تحجرت !



الفصــــل الرابع عشر

نهاية القصر

● **كانت** القرية التى أعدم فيها « جاسبار » قرية فقيرة . وكان الريف المحيط بها بلقعا وخرابا ، يبدو كل ما فيه محطما منهارا : الدور ، والأسوار ، والحيوانات ، والرجال ، والنساء ، والأطفال .. حتى الأرض التى كانت تعطيهم رزقهم .. فقد ظلت أسرة المركيز السابق سنوات طوالا تستنزف أموال أهل القرية بواسطة زبانية أمثال « مسيو جابيل » محصل الضرائب! وهكذا لم يبق الآن شىء ليستنزف، بل لم يبق ما يكفى لسد رمق الأهالى البؤساء . وحتى بعد موت المركيز ظل الناس على حالهم ، بل زاد الحالة سوءا نزوح عدد من الغرباء اليهم . وكان هؤلاء الغرباء قد جاءوا ليلقنوا الأهالى أفكارا جديدة ويتولوا قيادتهم حين تدق ساعة وضع هذه الأفكار الجديدة موضع التنفيذ !

وبقى السجن القائم فوق التل ، والذى سيق منه جاسبار الى حتفه ، كما هو . كان لا يزال فيه جنـــود ، وضـبـاط يرأسون الجنود .. ولكن ما من واحد من هؤلاء الضباط صار يعرف مقدما ما اذا كان رجاله سينفذون الامر الذى سيصدره، أم يتجاهلونه ويعصونه !.. وكانت الأفكار والنظريات الجديدة قد تفشت وانتشرت من باريس الى المدن الأخرى ، ومن هذه المدن الى القرى .. وبدأت الآن تستشرى فى صفوف الجنود !

وكان عامل الطرق يواصل عمله القديم ، برغم أن مايتلقاه أجرا عن هذا العمل لم يكن يكفى الا ليسد رمقه .. وكم مر به وهو يزاول عمله رجال غرباء ، خشنون ، يسيرون حفـاة الأقدام أو يضعون فى أقدامهم أخفافا من الخشب ، لكنهم جميعا مسلحون . وكان هؤلاء الغرباء ينشرون الأفكار الجديدة فى طول البلاد وعرضها ، وينفذون أوامر صادرة اليهم من زعماء الثورة

فى باريس .. وذات يوم من أيام شهر يولية اقترب واحد من هؤلاء من عامل الطرق وهو يشتغل فوق التل القائم خارج القرية ، فنظر اليه .. والى القرية التى تحت السفح .. والكنيسة .. والسجن الذى وراءها .. وبدا انه وجد ما كان يبحث عنه ، فسأل العامل : « كيف الأحوال يا جاك ؟ » فأجابه هذا : « على ما يرام يا جاك » .. وعندئذ جلس الغريب على كومة من الأحجار ، وأردف : « أما من غداء ؟ » .. فأجابه العامل : « لا يجد أحد الآن سوى العشاء » .. وعلق الغريب : « هكذا الحال فى كل مكان .. أينما ذهبت أصادف أناسا لا يجدون غداء يمسكون به بطونهم ! » .

وأخرج الرجل غليونا أسود لونه ، فحشاه بالتبغ وأشعله ، وظل يدخنه حتى توهج التبغ بالحمرة .. وعندئذ نزعه من فمه وأسقط فيه شيئا اندلع بلهب صغير ثم خبا !.. فتعرف العامل على هذه الاشارة التى كان ينتظرها ، وسأل محدثه : « الليلة ؟ » .

ــ الليلة . وسوف يقابلنى الآخرون هنا .. أين المكان ؟

ــ على الطريق ، على بعد نحو خمسة أميال من القرية .

ــ حسنا .. ومتى تفرغ من عملك ؟

ــ ساعة الغروب .

ــ هل لك أن توقظنى قبل أن نمضى ؟ لقد قضيت ليلتين متواليتين سائرا ، دون أن أستريح . ولن أفرغ من تدخين غليونى حتى استغرق فى النعاس كالطفل . لا تنس أن توقظنى .

وفرغ الغريب من تدخين غليونه فخلع حذاءيه الخشبيين واستلقى على ظهره فوق كومة الأحجار ، ونام لساعته .. حتى انحدرت الشمس للغروب واحمر لون الأفق ، فأيقظه العامل .. ثم جمع أدواته وانصرف صوب القرية . وحين بلغ النبع ، حيث كان قد جىء بالماشية الهزيلة لتستقى ، همس لكثيرين من أهل القرية ، وهمس هؤلاء بدورهم لغيرهم ..

فلما فرغ الجميع من تناول عشائهم المتواضع لم يأووا الى الفراش كعادتهم ، وانما خرجوا ثانية الى حيث اجتمعوا حول النبع يتهامسون وأعينهم شاخصة نحو السماء ، ولكن فى اتجاه واحد !

وقلق مسيو جابيل ، فصعد الى سطح منزله ونظر بدوره فى ذلك الاتجاه . ثم أرسل الى الرجل الذى يحتفظ بمفاتيح الكنيسة ينبهه الى احتمال أن تدعو الحاجة الى قرع أجراسها

وتكاثف الظلام ، وهبت الريح ، وحنت الأشجار التى تحرس القصر العريق هاماتها نحو مبناه الضخم . وتسللت خلال الأشجار أربعة أشباح خشنة المظهر ، وومضت أضواء أربعة مشاعل ثم تفرقت ، كل الى اتجاه .. وساد الظلام من جديد !

ولكن لفترة قصيرة ، فسرعان ما تألق القصر كله بنور غريب من الداخل ، وتوهجت النوافذ ، وتصاعد الدخان ، وتطاولت ألسنة اللهب واتسعت رقعتها وازداد توهجها .. وسرعان ما بدت واجهة القصر كلها طعمة للنيران المندلعة !

وبدا الوهج بوضوح لمن فى القرية ، ولم يلبث أن أقبل فارس ينهب الأرض بجواده فى الظلام حتى بلغ باب مسيو جابيل فترجل وطرقه صائحا : « النجدة يا جابيل ! النجدة يا قوم ! » .. ودقت أجراس الكنيسة تدعو الناس للتجمع . لكن أحدا لم يتحرك ! ووقف عامل الطرق مع مائتين من رفاقه بجوار النبع عاقدى الأذرع ، ينظرون الى عامود اللهب المتصاعد الى السماء .. فقال أحدهم ضاحكا : « ان ارتفاعه ليبلغ الأربعين قدما ! » .. ولم يتحرك أحد .

وانطلق الفارس بجواده خلال القرية نحو التل المؤدى الى السجن . وعند بوابته كان جماعة من الضباط يتطلعون الى النار ، وعلى بعد خطوات منهم تجمع عدد كبير من الجنود يحذون حذوهم !.. وهتف الفارس : « النجدة أيها السادة !

القصر يحترق . لا يزال فى الامكان انقاذ الأشياء الثمينة من النيران . النجدة ! النجدة ! » .. فنظر الضباط الى الجنود ، ونظر الجنود الى النار .. وأجابوا : « فليحترق ! » .

وترك القصر طعاما للنيران ، وأذكت الريح اللهب فلم تلبث أن تساقطت كتل ضخمة من الأحجار والأخشاب . وامتد الوهج الساخن الى الأشجار القريبة فتساقطت أوراقها وبدأ يتصاعد منها الدخان .. وحام حول المكان عدد من الطيور ، ولكن سرعان ما صرعتها الحرارة والدخان فسقطت فى الأتون !.. وتفرق فى قلب الليل أربعة رجال ، نحو الجهات الأربع ، كل يقصد قصرا آخر .. وهناك فى القرية كانت الأجراس لا تزال تدق ، ولكن لا انذارا بالخطر هذه المرة ، وانما ابتهاجا بالنصر !

بل ان أهل القرية ، وقد أثار انفعالهم اندلاع النار ، وقرع الأجراس ، والجوع .. تذكروا أن مسيو جابيل هو الذى اعتاد أن يجمع منهم الايجارات ويحصل الضرائب ، فأحاطوا بداره وصاحوا به كى ينزل .. لكنه حصن بابه بالقضبان الثقيلة وانسل الى السطح حيث اختبأ خلف المدخنة ، وفى عزمه أن يقذف بنفسه الى وسطهم — لو أفلحوا فى اقتحام بابه — فيأخذ معه على الأقل واحدا منهم أو اثنين الى العالم الآخر !

لكن هياج المتجمهرين لم يلبث أن خفت حدته ، فلما بزغت أول بشائر الفجر كانوا قد سئموا الانتظار فتفرقوا الى بيوتهم .. وهبط مسيو جابيل من مخبأه شاكرا الله على نجاته !.. **على أن كثيرين من الموظفين فى القرى المجاورة لم يكن لهم مثل حظه ، فطلع عليهم الصباح التالى وما بعده وهم معلقون فى أشجار أقرب غابة !.. وفى بعض القرى هاجم الجنود الأهالى أنفسهم وشنقوا بعضا منهم !.. ولكن حيثما اتجه الرجال الأربعة ، فى الجهات الأربع ، كانت تندلع فى أثرهم النيران ، ويدب دبيب الذعر فى قلب الظلام !**

الفصل الخامس عشر

مهمة فى باريس

● **كان** بنك تلسون فى لندن هو ملتقى جميع النبلاء الفرنسيين الذين فروا من باريس .. فمن كان منهم بعيد النظر فهرب أمواله الى انجلترا قبل الثورة ، جاء الآن يسحب منها ما يحتاج اليه . ومن فاتته الفرصة جاء يلتمس من صديق قديم قرضا ينقذه من محنته . وهكذا صار المصرف المذكور أفضل مكان للاستفسار عن آخر أنباء فرنسا . وحين كثرت الاستفسارات عمدت ادارة البنك الى تعليق ما يصلها من أنباء فى لوحة على احدى النوافذ يستطيع قراءتها من يشاء ..

وذات عصر ، كان مستر لورى جالسا الى مكتبه وأمامه تشارلس دارنى متكئا على المكتب يتحدث معه بصوت خافت، وكان لورى يقول : « أنت تعتقد أننى بسبب تقدمى فى السن ينبغى أن لا أذهب ؟ »

ـ بلا شك ، فالطقس متقلب ، والرحلة طويلة ، والمواصلات عسيرة ، وباريس ليست آمنة ..

ـ يا عزيزى تشارلس ، انها آمنة بالنسبة لمثلى . فلن يعبأ أحد بالتعرض لشيخ أربا على الثمانين ، بينما العاصمة ملأى بمن يستحقون التعرض لهم ! ثم أنه لا بد من ذهاب مندوب من مصرفنا هنا الى فرعنا هناك ، على أن يكون خبيرا بباريس وبالمهمة الموكولة اليه ..

فغمغم دارنى كمن يحدث نفسه : « ليتنى أذهب أنا ! » .

ـ حقا ؟ تتمنى ان تذهب وأنت فرنسى ؟!

ـ بل لأننى فرنسى فكرت مرارا فى الذهاب .. فأحيانا

يخيل الى أننى قد أستطيع اقناع القوم هناك بالتخفيف من غلوائهم .

ـ وماذا بشأن لوسى ؟ أو لا تخجل من مجرد الفكرة ؟

فقال دارنى مبتسما : « حسنا ، لن أذهب .. وأنت؟» .

ـ أنا مصمم على الذهاب . انك لا تتصور تعقد أعمالنا فى الوقت الحاضر ، والخطر الذى تتعرض له سجلاتنا وأوراقنا فى فرنسا ، فقد تصادر وتحرق فى أية لحظة .. بينما لو ذهبت فلربما استطعت تهريب المهم منها ، أو اخفاءه هناك .

انها مهمة لا يستطيعها سواى ، فهل أتردد ؟

ـ لكم أنا معجب بك ! اذن فأنت راحل الليلة ؟

ـ أجل ، الليلة .. فينبغى أن لا أتأخر أكثر من ذلك .

فى الوقت الذى جرى فيه هذا النقاش فى مكتب لورى ، كان فى الغرفة عدد من النبلاء الفرنسيين الذين جاءوا لأعمال تخصهم ، كما كان بين الموجودين مستر سترايفر ، الذى كان يعرب عن حنقه على الشعب الفرنسى وأمنيته فى أن يمحى من على ظهر الأرض ! ـ القول الذى امتعض دارنى لسماعه ـ وفى تلك اللحظة دخل مدير البنك فوضع أمام لورى مظروفا مغلقا متسخا ، متسائلا عما اذا كان البحث لم يفض بعد الى معرفة شخصية صاحبه ؟ واستطاع دارنى أن يلمح العبارة المكتوبة على الظرف ، فاذا هى : **« الى المركيز الفرنسى السابق (سان ايفريموند) ، طرف بنك تلسون وشركاه ، لندن ـ عاجل جدا »** !!

وكان دكتور مانيت قد رجا من دارنى ، فى صبيحة يوم زواجه ، أن لا يبوح باسمه الحقيقى لمخلوق ، الا بموافقته .. وهكذا أخفاه حتى عن زوجته ومستر لورى !.. ومن هنا قال لورى يجيب مدير المصرف : « كلا ، لم أقف لصاحب هذا الاسم على أثر ، برغم استفسارى عنه من كل من أعرف » .

وأمسك الخطاب فى يده بحيث رآه جميع الحاضرين .. فقال أحدهم : « أحسبه ابن أخى المركيز الذى قتل . لكم يسعدنى أننى لم أعرفه ! » .. بينما قال آخر : « انه جبان فر من المعركة ! » .. وأضاف ثالث : « هو شخص وقع تحت تأثير الأفكار الجديدة ، فعارض مبادىء عمه المركيز السابق ثم ترك ميراثه منه غنيمة للشعب ! » ، وهنا صاح سترايفر : « ماذا ؟ أهو من هذا الطراز ؟ دعنى أرى اسم ذلك الجبان! ».

لم يستطع دارنى أن يتذرع بالصمت أكثر من ذلك ، فقال : « انى أعرف الشخص الذى تتحدثون عنه » .. فتصدى له سترايفر : « تعرفه ؟ يؤسفنى أن أسمع ذلك ، فانه جبان . قل له ذلك نيابة عنى ، ولتقل له أيضا انه ما دام قد ترك ممتلكاته للثوار فلماذا لم يتزعمهم ؟ ولكن ، كلا، فمثله لن يدع نفسه تحت رحمتهم ، وانما هو دائما يفر هاربا ! » .

قالها سترايفر وهو يلوح بذراعه ثم خرج . وتبعه أكثر الحاضرين .. فلم يبق سوى لورى ودارنى ، واذ ذاك كلف الأول زائره بتوصيل الخطاب الى صاحبه الذى يعرفه ، فقبل مرحبا ! وتواعد الاثنان على اللقاء فى الساعة الثامنة ، قبيل رحيل لورى الى باريس مباشرة .. وخرج دارنى مبلبل الفكر ، فلم يكد يبلغ مكانا آمنا حتى فض الخطاب وقرأ فيه ما يلى :

سجن (أباى) بباريس ، فى ٢١ يونيه سنة ١٧٩٢

سيدى .. بعد أن تعرضت حياتى طويلا للخطر على أيدى أهل القرية ، قبض على وأحضرت سيرا على قدمى الى باريس . ثم لم يكفهم ذلك فدمروا منزلى تدميرا تاما !.. والجريمة التى زج بى فى السجن من أجلها ، والتى سأحاكم بسببها وأفقد حياتى (اذا لم تخف لمساعدتى) ، هى اننى عملت لصالح شخص هجر وطنه . وعبثا أقول لهم اننى عملت ـ طبقا لاوامرك ـ

لصالح الشعب لا ضده .. وعبثا أقول اننى لم أجمع ضرائب ولا ايجارات ، ولم أقدم أحدا من الاهالى الى القضاء ، منذ آلت الثروة اليك !.. فاننى كلما سألت عن التهمة المنسوبة الى ، لا أتلقى الا جوابا واحدا : هو اننى عملت لصالح « مهاجر » .. وأين هو ؟

نعم يا سيدى : أين هو ؟ انى أتساءل فى منامى أين هو ! أسأل السماء : هل سيأتى لينقذنى ؟ ولكن لا جواب !.. أواه يا سيدى ، اننى أرسل صرختى الحزينة عبر البحر ، آملا أن تبلغ مسامعك عن طريق بنك تلسون الكبير المعروف لنا فى باريس . فبحق السماء أناشدك يا سيدى أن تخف لمساعدتى وتعمل على اطلاق سراحى . لقد كانت غلطتى اننى أخلصت لك ، واليوم أتوسل اليك أن تخلص لى !.. ومن أعماق سجن الفزع والرعب ، والموت يدنو منى شيئا فشيئا ، أبعث اليك يا سيدى بهذا الدليل المثبت لاخلاصى المشؤوم !

خادمك التعس « جابيل »

● **بلبلت** هذه الرسالة ذهن دارنى أشد البلبلة : انه قد أوصى جابيل بترك حقوقه للأهالى ، ويعمل ما فى وسعه من أجلهم ، وتقديم المعونة المتواضعة التى يملكها لهم .. والآن ، هذا هو خادمه المخلص فى السجن ، وجريمته الوحيدة أنه نفذ أوامره ! .. بدا لدارنى بوضوح أن واجبه يقتضيه المبادرة بالسفر الى باريس . ولم ير فى ذلك خطرا ما ، فان أهالى باريس لا بد سيذكرون بالامتنان أياديه البيضاء على مواطنيه ، فلم لا يهرع لانقاذ خادمه الأمين من الموت المحتوم الذى ينتظره ؟

وفيما هو يذرع الحجرة ذهابا وجيئة ، قرر أن يخفى عن لوسى ووالدها نبأ رحيله ، الى ما بعد سفره بالفعل ، كى يجنبهم قلقا لا مبرر له .. واذ رسم خطته على هذا الأساس مضى ليودع لورى حسب وعده . وهناك أنبأه بأنه سلم الخطاب الى صاحبه ، وان هذا يرجوه أن يحمل الى مرسل الخطاب ــ السجين « جابيل » بسجن (أباى) ــ رد

المركيز ، وفحواه : انه تسلم رسالته ، وانه قادم فى طريقه اليه ، وسوف يبدأ رحلته فى مساء اليوم التالى !

واذ حان موعد رحيل لورى ، عهد الى دارنى بأن يحمل سلامه الى زوجته وطفلته ، موصيا اياه برعايتهما حتى يعود .. فهز دارنى رأسه مبتسما ابتسامة شك ، والعربة تبتعد بصاحبه ! وفى تلك الليلة – ليلة الرابع عشر من أغسطس – جلس دارنى فى ساعة متأخرة يكتب خطابين : واحدا الى لوسى والآخر الى الطبيب ، شارحا الأمر لهما وواعدا بالكتابة اليهما من فرنسا .

وكان اليوم التالى يوما عصيبا ، اضطر خلاله أن يسيطر على أعصابه كى لا يفلت منه ما يفضح نيته بشأن السفر ! وفى ساعة مبكرة من المساء قبل زوجته وطفلته وخرج ، زاعما أنه سيعود بعد قليل .. وعلى هذه الصورة بدأ – بقلب مثقل – رحلته الى وطنه ، ملتمسا التشجيع من اعتقاده بأنه ذاهب لنجدة سجين تعس ينتظره ملهوفا عبر البحار ..

الفصل الســـادس عشر

عودة دارنى الى فرنسا

● فى ســـنة ١٧٩٢ كان السفر من انجلترا الى باريس يســـتغرق وقتـــا طويلا .. فبرغم جلوس الملك لويس على العرش كانت الطرق فى فرنسا رديئة ، والعربات رديئة ، والجياد رديئة ! لكن مصاعب أخرى قد طرأت أيضـــا الى جانب ذلك : كانت لكل مدينة وقرية عصابتها من « الوطنيين » المسلحين بالبنادق المحشوة ، الذين كانوا يستوقفون جميع العابرين ويستجوبونهم ويفحصون أوراقهم ويفتشـــون عن أسمائهم فى قوائم خاصة يحملونها .. وعلى ضوء نتيجة ذلك كله يطلقون سراحهم أو يعتقلونهم ، وفق هواهم ، كل ذلك باسم « الحرية ، والمســـاواة ، والاخاء » ، والجمهـــورية الفرنسية الجديدة .

وقبل أن يتوغل تشارلس دارنى فى رحلته بدأ يدرك أنه لن يسمح له بالخروج من فرنسا الا بعد أن توافق السلطات على اعطائه شهادة بأنه « مواطن صـــالح » ! ولكن أيا كان المحتمل أن يحدث فانه يجب أن يواصل رحلته . **وكلما كانت تغلق خلفه بوابة من محطات الطريق المخفورة كان يشعر أنها بوابة جديدة أغلقت بينه وبين أحبائه فى انجلترا .. وهكذا أحس والعربة تطوى به مراحل الطريق أنه أشبه بحيوان فى قفص ، أو طير فى فخ .. وانه قد فقد حريته بأكملها !**

وفى يوم واحد أوقفوه عشرين مرة ، واستجوبوه ، وعاقوه أو تركوه يواصل رحلته . وانقضت عليه أيام ثلاثة يقطع أرض فرنسا وما زالت الشقة بعيدة بينه وبين باريس . وأوى الى الفراش منهوكا فى احدى حانات الطريق الصغيرة ، يفكر فى أمره .. أنه لم يبلغ هذه المرحلة من الطريق الا بفضل اظهاره

خطاب جابيل لكل من يستجوبه .. لذلك لم يدهش البتة حين أيقظه في منتصف الليل موظف رسمي يصحبه ثلاثة « وطنيين » مسلحين . وابتدره الموظف : « أيها المهاجر ، سأرسلك الى باريس في حراسة جنود ، لأضمن وصولك اليها » .. فأجابه دارنى : « أيها المواطن ، لست أبغى غير الوصول الى باريس ، لكنى فى غنى عن الجنود » .. فصاح فيه أحد الرجال المسلحين وهو يضرب الفراش بطرف بندقيته : « صمتا .. ألزم الهدوء ، أيها الارستقراطى ! » .

ولم يكن فى وسع دارنى سوى أن يطيع ، فأخذوه الى مخفر جلس فيه نفر من الوطنيين الخشنى المظهر يدخنون ويشربون .. وفى الساعة الثالثة صباحا بدأ الركب رحلته فوق طرقات مبللة ، وكان يتولى حراسته على الجانبين وطنيان مسلحان يرتديان قلنسوتين حمراوين ، وقد أوثق أحدهما ذراعه بجواد دارنى بواسطة حبل .. وخلال الطريق راودت دارنى شتى المخاوف ، لكنه كان يحتال على تبديدها زاعما لنفسه أن الموقف لابد أن يتجلى على أحسن وضع حين يشهد جابيل لذوى الشأن بالباعث الذى دفع سيده الى المجىء ..

وحين بلغ الركب بلدة « بوفيه » صادف دارنى أول مأزق حقيقى ، فقد أحاط به جمع صاخب راح أفراده يتصايحون : « يسقط المهاجر ! » .. فحاول دارنى تبرير موقفه بقوله : « لقد عدت الى الوطن من تلقاء نفسى أيها الرفاق ! » .. لكن أحدهم تقدم نحوه صائحا وملوحا بمطرقة فى يده : « بل انك مهاجر لعين ، وارستقراطى لعين ! » .. واذ ذاك تصدى أحد الموظفين لحماية دارنى قائلا للآخر : « دعه وشأنه ، فلسوف يحاكم فى باريس » .. فصاح آخر : « نعم ، سوف يحاكم ويدان باعتباره خائنا ! » فأجابه دارنى : « أيها الصديق ، أنا لست خائنا » .. لكن الرجل صاح

بالجماهير : « انه يكذب ، فبحكم القانون الجديد تخص حياته وممتلكاته حكومة فرنسا » .

وهكذا لم يشعر دارنى بشىء من الأمان الا حين دبر حراسه نقله الى فناء حانة مجاورة وأغلقوا بابها فى وجه الجماهير الهائجة .. **واذ ذاك سأل دارنى واحدا من مرافقيه : « ما هذا القانون الجديد الذى يشيرون اليه ؟ » .. فأجابه : « انه قانون يقضى بالاعدام على كل مهاجر يعود الى فرنسا . وقد صدر فى الرابع عشر من هذا الشهر .. » فغمغم دارنى : « فى اليوم الذى غادرت فيه انجلترا ! » .**

وبعد فترة راحة ، وساعات تعسة من السفر المضنى ، وصل الركب أخيرا الى السياج القائم خارج أسوار باريس ، فبرز لهم منه رجل بادى النفوذ والشكيمة ، ابتدر الحراس : « أين أوراق هـذا السجين ؟ » .. فأجابه دارنى غاضبا : « سجين ؟ انى مسافر حر . انى مواطن فرنسى ، عدت الى فرنسا بمحض ارادتى ! » .

لكن الرجل لم يلق اليـه بالا ، وانما عاد يكرر سؤاله للحراس : « أين أوراق هـذا السجين ؟ » ، فقدموا اليـه الأوراق ، واذ ذاك تناولها فقرأ بينها خطاب جابيل .. ودون أن ينطق بكلمة عاد الى داخل نقطة الحراسة . وتلفت دارنى حواليه ، فأبصر وراء البوابة جمعا غفيرا من الرجال والنساء والحيوانات والعربات ، فى انتظار فحص أوراقهم والتصريح لهم بالخروج من باريس ، وكانت هذه العملية تستغرق وقتا طويلا ــ بالنسبة لكثرة عددهم ــ فنام منهم من نام ، وشغل البعض وقتـه بالثرثرة ، أو لاذ بالصمت .. وكان الجميـع يضعون على رءوسهم قلنسوات حمراء .

وبعد فترة طويلة برز رجل أصدر أمره بفتح البوابة ، ثم أعطى الحراس ايصالا باستلامه لسجينهم ، فامتطوا

جيادهم وعادوا من حيث أتوا . أما دارنى فقد اقتيد الى نقطة الحراسة ، وكانت مزدحمة بالوطنيين والجنود وقد فاحت منهم رائحة الخمر والتبغ القوية .. ورفع ضابط عابس خشن المظهر وجهه عن كتاب مفتوح أمامه ، وسأل الرجل الذى اقتاد دارنى الى الداخل : « أيها المواطن ديفارج ، أهذا هو المواطن ايفريموند ؟ » .. فأجاب بالايجاب ! واذ ذاك وجه الى السجين بضعة أسئلة أجاب هذا عليها بأن سنه ٣٧ سنة ، وأنه متزوج ، وزوجته تقيم فى انجلترا .. وعندئذ فاجأه بالقول : **« ايفريموند ، انك ستنقل الى سجن (لافورس) » .. فصاح دارنى : « يا للسماء ! بحكم أى قانون ، وأية جريمة ؟ » .. فأجابه الضابط وعلى فمه ابتسامة قاسية : « ان لنا قوانيننا الجديدة يا ايفريموند » .**



ـ أرجو أن تلاحظ أننى جئت بمحض اختيارى ، استجابة للخطاب الذى أمامك ، وهو صادر من أخ مواطن .. أفليست لى حقوق ؟

ـ ليس للمهاجرين حقوق يا ايفريموند !

وأعاد الضابط قراءة ما كتبه ثم سلم الورقة الى ديفارج قائلا : « حبس انفرادى » ، فطلب هذا الى السجين أن يرافقه، فى حراسة اثنين من الوطنيين . وبعد خروجهم سأل ديفارج سجينه : « هل أنت الذى تزوجت ابنة الدكتور مانيت ؟ » .. فأجاب دارنى وهو ينظر اليه مدهوشا : « نعم » .. واذ ذاك عرفه ديفارج بنفسه ، فسأله دارنى : « ألن تسمحوا لى فى السجن بأن أكتب رسالة الى العالم الخارجى ؟ أو تحاكموننى دون أن تتيحوا لى فرصة الدفاع عن نفسى ؟ » .

ـ سوف ترى . ولكن لا تنس أن هناك أناسا كان يزج بهم فى الماضى فى سجون أسوأ من هذه !

ـ يهمنى أن يتاح لى الاتصال بمستر لورى مندوب بنك تلسون الموجود الآن فى باريس ، فهل تتكرم وتخطره بأننى ألقيت فى سجن (لافورس) ؟

ـ لن أفعل شيئا من هذا القبيل .. فأنا عدوك ، وواجبى انما هو نحو وطنى ومواطنى !

أحس دارنى بأن لا جدوى من تكرار الرجاء ، فسار الى جانب مرافقه وحارسيه صامتا . **ولم يلفت مرورهم فى شوارع باريس انتباه أحد ، فقد صار نقل رجل أنيق الى السجن أمرا مألوفا كمنظر ذهاب عامل الى عمله ! كل ما حدث أن أدار البعض رءوسهم ليلقوا نظرة على السجين ، وصب آخرون لعنتهم على « الارستقراطى » ، وفيما عدا ذلك لم يلتفت اليه أحد . وفى ركن أحد الشوارع كان رجل يخطب فى جمع صغير فسمعه دارنى يقول ما فهم منه أن الملك قد ألقى فى السجن وان السفراء الأجانب قد غادروا باريس جميعا !**

*

كان سجن (لافورس) معتما كئيبا ، تفوح منه رائحة كريهة . وهناك سلم ديفارج سجينه الى مأمور السجن ، الذى أعطاه ايصالا باستلامه وهو يرغى ويزبد : « يا للشيطان ! ألن ينتهى سيل هؤلاء المهاجرين ؟ » فأجابته زوجته : « ينبغى أن نتذرع بالصبر يا عزيزى ، حبا فى الحرية .. » .

ودق الحاكم جرسا فدخل ثلاثة رجال ، نظروا الى دارنى وأمعنوا النظر ، كى تنطبع صورته فى ذاكرتهم ! ثم قادوه عبر ممرات وسلالم حجرية ، وأبواب تفتح لهم وتعود فتغلق خلفهم .. حتى وصلوا الى حجرة كبيرة منخفضة السقف ، مزدحمة بالسجناء من الرجال والنساء . وكانت النسوة جميعا جالسات حول منضدة مستديرة ، منهمكات فى الحياكة أو شغل الابرة .. بينما وقف الرجال خلفهن أو راحوا يذرعون الحجرة ذاهبين آيبين . وكانوا مجموعة من أنبل عائلات فرنسا ، لكنهم حتى فى جو التعاسة والبؤس احتفظوا بآداب السلوك الرفيعة ، وتصرفوا فى السجن - بقدر استطاعتهم - مثلما كانوا يتصرفون فى قصورهم العظيمة !

ورحب القوم بزميلهم الجديد ، واستفسروا منه عن اسمه .. لكنهم سرعان ما رثوا لحاله وأبدوا أسفهم لفراقه حين علموا أن السلطات قررت أن تخصه بالحبس « الانفرادى » !.. وبالفعل سيق دارنى بعد لحظات الى سلم أدت به الى زنزانة ، رطبة باردة ، لكنها ليست معتمة . ولم يكن بالزنزانة سوى مقعد ومنضدة ، وحشية من القش فتشها السجان بعناية قبل خروجه .. وسمع دارنى المفتاح يدار فى القفل !

وبذلك صار وحيدا .. وحيدا فى « لافورس » !

الفصـــل السابع عشر

مستر لورى فى باريس

عندما وصل مستر لورى الى باريس أقام فى جناح من فرع بنك تلسون هناك ، كى تسهل عليه تأدية أعماله .. وذات مساء كان جالسا بجوار المدفأة حين فتح عليه الباب فجأة واندفع منه شخصان .. شخصان كان ظهورهما غير متوقع بحيث أثار دهشته البالغة .. فصاح بهما : « لوسى ! مانيت ! ماذا هنالك ؟ ماذا حدث ؟ » .. فهتفت لوسى تجيبه فى لوعة : « أواه ، زوجى العزيز .. زوجى ! » .

ـ زوجك ؟ .. ماذا تعنين يا لوسى ؟

ـ انه هنا فى باريس ! انه هنا منذ ثلاثة أيام أو أربعة . جاء لينقذ شخصا فزجوا به فى السجن !

أفلتت من الشيخ المسن صرخة ، فى نفس اللحظة التى دق فيها جرس الباب الخارجى وسمعت ضوضاء أقدام ثم أقبلت الأصوات تتدفق على الفناء .. فاستدار مانيت نحو النافذة يتساءل عن سببها ، لكن لورى صرخ فيه محذرا : « لا تطل ! بربك لا تدعهم يرونك ! »

ـ يا صديقى العزيز ، انى كنت سجينا فى الباستيل ! أنا فى أمان هنا ، فان كل من يسمع بقصة سجنى لن يتردد فى بذل قصاراه لمساعدتى . لقد منحتنى آلامى قوة الآن ، فهى التى يسرت وصولنا الى المدينة وحصولنا على أنباء ما وقع لتشارلس . وقد كنت أقدر ذلك ، كنت موقنا من أننى سأتمكن من انقاذ تشارلس .. ولكن ما هذا الضجيج ؟

ـ لا تطل ، ولا أنت أيضا يا عزيزتى لوسى .. ولكن أين يوجد تشارلس ؟

ـ فى سجن (لافورس) !

ـ (لافورس) !

وطلب لورى الى لوسى أن تدعه وأباها على انفراد لبضع دقائق ، وأدخلها غرفة مجاورة أغلق عليها بابها بالمفتاح !.. ثم اتجه مع مانيت الى النافذة يطلان منها على الفناء .. **كان قد تزاحم فيه أربعون أو خمسون شخصا يسنون ما فى حوزتهم من مدى وسيوف وأسلحة أخرى على مسن كبير . وكانت وجوه هؤلاء الرجال والنساء ضارية صارمة ، عليها طابع الدم !.. فهمس لورى لمانيت : « انهم يذبحون المسجونين .. فاذا كنت واثقا من سلطانك فعرف هؤلاء بنفسك وأسرع الى سجن (لافورس) .. قد تصل بعد الأوان ولكن لا تضيع دقيقة أخرى ! » .**

ضغط الدكتور مانيت يد لورى شاكرا واندفع خارجا من الغرفة ، وحين عاد لورى الى النافذة رآه يشق طريقه بين أولئك القوم ، فيصغون اليه برهة ، ثم يتقدمهم الى الخارج وهم يتبعونه صائحين : « يحيا سجين الباستيل ! النجدة لصديقه فى (لافورس) ! فلننقذ السجين ايفريموند من (لافورس) ! » .

واستدار لورى عن النافذة ليهرع الى لوسى ينبئها بما حدث ــ وكانت معها الآن طفلتها ومربيتها مس بروس ــ وبقى الجميع ساهرين طيلة الليل ينتظرون الأنباء ، لكن انتظارهم كان عقيما !.. وعند ظهر اليوم التالى انتقلت المرأتان والطفلة الى مسكن مجاور استأجره لهم لورى ، بينما عاد هو الى عمله فى المصرف . وفى المساء جلس فى حجرته ينتظر جديدا من التطورات ، وقد استبد به قلق متزايد .. فلم يلبث أن سمع خطوات تصعد السلم ، ثم رأى أمامه رجلا يخاطبه باسمه .. وكان ديفارج ، يحمل رسالة قصيرة من مانيت جاء فيها : **« تشارلس فى أمان ، لكنى لا أستطيع ترك مكانى بعد . حامل هذه الورقة عنده رسالة من تشارلس الى زوجته . دعه يقابل لوسى » .**

وقاد لورى ديفارج الى الخارج ، وعند مرورهما بالفناء انضمت اليهما « مدام ديفارج » وامرأة أخرى من رفيقاتها تدعى « لافنجانس » – أى الانتقام ! – وقال ديفارج انهما جاءتا لتتعرفا على الأسرة كى تقدما عونهما اليها عند اللزوم . وحين وصل الجميع الى المسكن وجدوا لوسى دون مربيتها وطفلتها . وكان معهما « جيرى كرانشر » ساعى مستر لورى الذى أحضره معه من لندن . وكم كانت فرحة الزوجة حين فضت رسالة زوجها وقرأت فيها : **« حبيبتى . تشجعى ، فانى بخير ، ولأبيك هنا نفوذ كبير . لن تستطيعين الرد على هذه الرسالة . قبلى طفلتنا عنى .. »** .

وبلغ من تأثر لوسى وفرحتها انها انحنت على يد مدام ديفارج فقبلتها ! وكانت باردة ، ثقيلة ، ولم تلبث أن انهمكت فى شغل الابرة . وكان فى ملمس تلك اليد ما بعث الى أوصال لوسى بقشعريرة جعلتها تشرد هنيهة وتنظر الى المرأة فى رعب ! .. وبعد أن نوديت مس بروس لتحضر ومعها الطفلة كى تراهما المرأتان ، قالت مدام ديفارج : « أهذه طفلته ؟ » ، فلما أجابها لورى بالايجاب ، قالت لزوجها : « هذا يكفى ، فلنذهب .. »

لكن لوسى هتفت بها : « سوف تكونين رقيقة مع زوجى ، وستمكنينني من رؤيته اذا استطعت ؟ » .. فأجابتها المرأة فى جفاء : « لم أحضر هنا للمناقشة فى أمر زوجك ! » .. لكن لوسى لم تيأس مع ذلك ، وأردفت : « بصفتى زوجة وأما أتوسل اليك أن ترحمينى ، وأن تبذلى ما فى وسعك من أجل زوجى البرىء » .

– وماذا بشأن جميع الزوجات والأمهات اللواتى رأيناهن منذ كنا أطفالا ، واللواتى زج بأزواجهن وآبائهن فى السجون مرات متوالية ؟.. لقد عشنا طوال حياتنا نراهن يقاسين مذلة الفقر ، والجوع ، والمرض ، والتعاسة ! واحتملنا ذلك زمنا

طويلا .. فهل تعتقدين أن آلام زوجة أو أم واحدة تؤثر فينا الآن ؟

واستأنفت شغل الابرة ، ثم خرجت يتبعها زوجها ومرافقتها .. فقال لورى للوسى : « تشجعى يا عزيزتى ، فنحن فى حال أفضل من كثير من التعساء .. اشكرى الله » .. فأجابته : « أرجو أن لا أكون جاحدة لفضل الله ، لكن تلك المرأة المخيفة تلقى ظلا قاتما من اليأس على وعلى جميع آمالى » .

*

كانت قد انقضت على ذهاب مانيت الى سجن (لافورس) أربعة أيام حين عاد منه أخيرا . لكنه لم يذكر لابنته أنه خلال تلك الأيام القليلة قتل الشعب ألفا ومائة رجل وامرأة من المسجونين العزل من السلاح ، من جميع الأعمار ! .. لكن الأب المشفق باح للورى بكل ما حدث : لقد وجد فى السجن عند وصوله جماعة من الثوار جالسين كهيئة محكمة ، فأعلن لهم أنه سجين سابق من ضحايا الباستيل . وتعرف ديفارج عليه ، فطالبهم مانيت بفحص حالة دارنى على الفور ، ووافقت المحكمة .. ولكن لسبب ما ــ لم يفهمه الطبيب ــ أبت المحكمة بعد المداولة اطلاق سراح السجين ، وان وعدت بأن تكفل سلامته فى السجن ولا تسوقه الى الموت مع الآخرين .. فاضطر مانيت الى البقاء للسهر على حياة دارنى ، الى أن هدأت ثائرة الجماهير قليلا وزال الخطر !

وخلال فترة الانتظار فى الأيام التالية استغل الطبيب نفوذه ــ كسجين سابق من معذبى الباستيل ــ استغلالا حكيما واسع النطاق ، حتى لقد اختاره القوم مفتشا طبيا لثلاثة سجون ، من بينها سجن (لافورس) .. وهكذا صار فى مقدوره أن يرى دارنى مرة كل أسبوع ويحمل أنباءه الى لوسى . **لكنه برغم جهوده الجبارة فشل فى اطلاق سراحه أو حتى اقناع**

القوم بمحاكمته ، فقد كانت الأحداث أقوى منــه : كان العهد الجديد قد بدأ ، فحوكم الملك وأعدم .. وخفق العلم الأسود فــوق أبراج ((نوتردام)) ــ أكبر كنائس باريس ــ وامتلأت السجون بأشخاص لم يرتكبوا ذنبا .. وحصدت المقصــلة رءوس الأقوياء والأبرياء وجميلات النساء !.. وبين كل مظاهر هذا الارهاب احتفظ الطبيب بثباته و يقينه من أنه سوف يوفق فى النهاية الى انقاذ رأس زوج ابنته ..

الفصـــل الثامن عشر

محـــاكمة دارنى

⊙ **وانقضى** عام وثلاثة شهور ، عاشتها لوسى وهى تتوجس شرا من كل ساعة تمر ، وتخشى أن يحمل لها الصباح التالى نبأ سقوط رأس زوجها تحت سكين المقصـلة !.. وكل يوم ، كانت عربات الموت تذرع الشوارع الحجرية حاملة كفايتها من الشحنات البشرية المسوقة الى المقصـــلة .. كانت السجون المعتمة الرهيبة تلفظ كل يوم الى ضوء النهـــار عشرات من العذارى الفاتنات ، والنساء اللطيفات ، ذوات الشعر الأسود والكستنائى والأغبر .. ومن الرجال ، الشيوخ والشبان ، الفقراء والنبلاء .. فكان الجميع يعبأون فى عربات تسير بهم الى حيث تلقيهم طعاما للمقصلة !.. والمقصلة جائعـــة على الدوام لا تشبع .. والشعار السائد : « الحرية ، والمساواة ، والاخاء .. أو الموت ! » ، لكن الموت كان أروج هذه الأربعة ، وأسهلها منالا !

وكانت محنة عصيبة بالنسبة للوسى ، بحيث لو أنهـــا استسلمت لليأس لما بقيت على قيد الحياة .. لكنهـــا كانت أمينة لواجباتها ، تسهر على رعاية أبيها وطفلتها كما رعتهما فى انجلترا .. وتلقن « لوسى الصغيرة » دروسها بانتظام كما لو كانوا جميعا آمنين فى دارهم السعيدة . وقد كان لها فى هـــذا التفاؤل عذرها فى الواقع ، فان أباها بات يحظى بحب الثوار واحترامهم . وكلما كانت تغلبهـــا مخاوفهـــا فتعرب له عن انزعاجها كان يجيبها فى حزم يوحى بالثقة : « لا يمكن أن يصيب تشارلس شىء بغير علمى . وانى لموقن من استطاعتى انقاذه فى النهاية ! » .

وذات يوم جاء الوالد ينبىء ابنته بأنه دبر فرصة يراهـــا زوجها فيها من احدى نوافذ السجن ، اذا وقفت فى بقعة من

الشارع المواجه يحددها لها ، وان كانت هى لن تستطيع أن تراه بسبب الظلمة فى داخل السجن !.. ومنذ تلك اللحظة صارت لوسى تمضى كل يوم ، أيا كانت حالة الطقس ، الى حيث تقضى ساعتين ـ بين الرابعة والسادسة ـ واقفة فى ركن شارع قاتم قذر ، بجوار كوخ قاطع أخشاب . وفى الأيام التى يعتدل فيها الطقس كانت تأخذ معها « لوسى الصغيرة » أيضا ..

وكان قاطع الأخشاب فى ماضى حياته عاملا من عمال الطرق ، ثم اشتغل الآن بقطع الأخشاب للوقود .. فلما رأى المرأة تحضر الى المكان يوما بعد يوم ، جرؤ أخيرا فحياها . ثم أفهمها بالاشارة انه قد استنتج سر حضورها ، لكنه قال يطمئنها : « ليس هذا من شأنى على أى حال » ثم واصل عمله .. وفى اليوم التالى أحضرت طفلتها معها ، فداعبها الرجل مداعبة قاسية أثلجت الدم فى عروق الأم ، اذ راح يمثل لها بفأسه ـ أو مقصلته الصغيرة كما سماها ـ كيف تجهز سكين المقصلة على رقاب ضحاياها ! فتوجست الأم ارتيابا فى الرجل واضطرت الى شراء سكوته بالمال بين الحين والآخر . وأحيانا كانت تلمحه يراقبها من طرف خفى ، فاذا فاجأت نظرته عاد الى قطع أخشابه مرددا عبارته المألوفة « ليس هذا من شأنى !»

وذات يوم من أيام ديسمبر ، بينما كانت لوسى فى موقفها المعتاد جاءها والدها يقول لها : « انى قادم من عند تشارلس ، وهو فى طريقه الآن الى حيث توجد النافذة .. فيمكنك أن تبعثى اليه بقبلة على أطراف أصابعك ، سيما وانه لا يوجد هنا الآن من يراك ! » .. فألصقت لوسى أناملها بشفتيها وأرسلت الى زوجها عدة قبلات ، دون أن تراه .. وفى تلك اللحظة سمع الاثنان خطوات فوق الجليد ، فاستدارا ليريا امرأة تمر عن كثب منهما .. وكانت مدام ديفارج !

وبادرها مانيت بالتحية ، فردتها له ومضت فى طريقها .. مضت كشبح قاتم يلقى ظله على الجليد الناصع !.. وانصرف

الطبيب وابنته على الأثر ، وفى الطريق قال لهـا مستبشرا : « عندى لك نبأ هام : ان دارنى سيمثل أمام المحكمة غدا ، فى سجن (الكونسيير جيرى) !» .. واذ اعترت لوسى رجفة من هذا النبأ أردف والدها يطمئنها : « ضعى ثقتك فى يا عزيزتى ، وسوف يعود اليك زوجك بعد ساعات . والآن على أن أنطلق لمقابلة لورى » .

*

● **كان** لورى لا يزال فى مكتبه بالبنك ، يسهر على رعاية مصالح المهاجرين .. وكان بصحبته فى تلك الساعة زائر مجهول يحرص على أن لا يراه أحد ! فلما سمع الزائر ــ الذى لم يكن سوى سيدنى كارتون ــ خطوات مانيت ولوسى تقترب نهض على عجل وسارع بالاختباء فى حجرة مجاورة . ومن مخبـأه سمع لورى يرحب بصديقيه ، ثم يردد هذه العبارة : « نقـل الى سجن (الكونسيير جيرى) وسيحاكم غدا ! » .

كانت تقرأ كل مساء فى كل سجن قائمـــة بأسماء نزلائه الذين تقررت محاكمتهم فى الصباح التـــالى ، ثم ينقلون من فورهم الى سجن (الكونسيير جيرى) حيث ستجرى المحاكمة .. وكان دارنى قد نقل مؤخرا من زنزانتـــه الى عنبر كبير ، فأتيح له أن يسمع القائمة تتلى أمامه أكثر من مرة ، وفى كل مرة كان يعقبها نقل مئات من المسجونين ، الى غير رجعة .. وأخيرا سمع اسمه هو ، يتلى مع اثنين وعشرين اسما آخر : « تشارلس ايفريموند ، المدعو دارنى » !.. وسرعان ما أوقف الذين نودى عليهم فى صف واحد ، وبعد أن ودعوا رفاقهم على عجل نقلوا الى سجن الكونسيير جيرى ــ عبر طريق قصير معتم ــ وهناك أمضوا فى زنزاناته الرطبة ليلة طويلة باردة .. ليلتهم الأخيرة !

وفى الصباح أخرج من السجن خمســة عشر سجينـا ، حوكموا قبل أن يجىء دور دارنى ، ولم تســتغرق محاكمتهم

جميعا أكثر من ساعة ونصف ساعة ، أرسلوا بعدها كلهم الى المقصلة !.. وأخيرا استدعى دارنى للمثول أمام القاضى والمحلفين ـ الذين كانوا يضعون على رءوسهم قبعات من الريش ! ـ وازدحمت قاعة المحاكمة بالمتفرجين ، من الرجال والنساء ، وكانوا من أشرس وأقسى وأحط أهل باريس . وقد ألفوا أن يتتبعوا كل محاكمة عن كثب ، بحيث كثيرا ما عطلت صيحاتهم العالية ـ بالتأييد أو الاعتراض ـ أعمال المحكمة !. كانوا يقابلون كل حكم بالاعدام بعاصفة من صيحات التهليل الضارية .. وكانوا جميعا مسلحين بمختلف الأسلحة ، يضعون على رءوسهم قبعات حمراء . بل ان بعض النسوة منهم كن يحملن المدى والسكاكين ، والبعض ينهمكن فى أشغال الابرة ، والبعض يأكلن ويشربن وهن يتتبعن المحاكمات !.. وبين أولئك المشتغلات بالابرة كانت توجد امرأة بادية الصلابة وقوة الشكيمة ، تجلس بجوار ديفارج وتهمس له بين الحين والآخر .. ولم تكن سوى زوجته !.. وتحت منصة الرئيس جلس الدكتور مانيت فى سترته القاتمة ، وفى ركن آخر كان مستر لورى ..

ونودى دارنى ، ووجهت اليه تهمة هجر وطنه ، التى يقضى القانون الجديد بالمعاقبة عليها بالاعدام .. وصاح النظارة : « خذوا رأسه .. انه عدو للجمهورية ! » فأسكتهم الرئيس طالبا الاصغاء الى دفاع المتهم ، الذى قال : « انى لست مهاجرا بالمعنى الذى يقصده القانون ، فلقد تنازلت عن لقب المركيز لأنى أبغضته ، وذهبت لأعيش فى انجلترا من عرق جبينى لأنى أنفت العيش من عرق فقراء فرنسا المضطهدين .. » .

ـ وما هو دليلك على ما تقول ؟

ـ شهادة الشاهدين « تيوفيل جابيل » و « الكسندر مانيت »

ـ وهل تزوجت فى انجلترا ؟

ـ نعم ، لكنى لم أتزوج من انجليزية ، بل من مواطنة فرنسية !

ـ مواطنة فرنسية ؟ ما اسمها واسم أسرتها ؟

ـ اسمها لوسى مانيت ، وحيدة الدكتور مانيت صديق الجمهورية المعروف للجميع ، وسجين الباستيل القديم !

كان لهذا الجواب ، ولاسم الدكتور مانيت ، أحسن الأثر فى نفوس النظارة ، فانبعثت فى جو القاعة صيحات التهليل والفرح .. وتبدلت نظرات الكراهية التى كانت توجه للمتهم منذ دقائق ، الى ابتسامات عطف !.. ثم سألته المحكمة لماذا لم يعد الى فرنسا قبل الآن ، فأجاب بأنه لم يكن له فيها عمل يرتزق منه ، وانه عاد هذه المرة كى ينقذ حياة مواطن فرنسى ، ولو تعرضت حياته هو للخطر .. فهل هذه جريمة فى نظر الجمهورية ؟

وتعالت الصيحات بقوة : « كلا ! » ، واستمر النظارة يرددون هذه الصيحة حتى بحت أصواتهم .. ثم استدعى الشاهد الأول « جابيل » فأكد ما ورد فى خطابه للمتهم ، وأضاف انه قد زج به فى سجن (آباى) بغير محاكمة ولم يفرج عنه الا بعد القبض على ايفريموند !.. ثم سمعت شهادة الدكتور مانيت فكان لشخصيته المحبوبة واجاباته الصادقة أحسن الوقع فى نفوس الجميع ، وخاصة حين قرر ان دارنى قد حوكم فى انجلترا بتهمة التجسس لحساب وطنه فرنسا ، واستشهد فى هذا الصدد بالشاهد الانجليزى مستر لورى الذى حضر تلك المحاكمة !

وبعد سماع كل هذه الأقوال قرر المحلفون الاكتفاء بها ، ثم أعطوا أصواتهم بصوت مسموع واحدا فى أثر الآخر ، وقد أخذ الجمهور يستقبل اعلان كل صوت بصيحة تهليل .. وكانت الأصوات كلها فى صالح المتهم ، فأعلن الرئيس اطلاق سراحه !

ضجت القاعة بصيحة فرح هائلة ، وانهمرت دموع التأثر من النظارة بلا حساب ، وتزاحم مئات منهم حول دارنى ، فلم يستطع التخلص منهم الا بصعوبة - ومع ذلك فقد كان هؤلاء أنفسهم على استعداد لانتزاعه من حراسه وتمزيقه اربا فيما لو صدر الحكم ضده ! - وصحب دارنى الى الخارج كثيرون من الحاضرين ، وانضم اليهم فى الشارع مئات آخرون ، وقد أخذ الجميع يهتفون صاخبين .. ثم أجلسوه على مقعد وحملوه على أكتافهم فى مظاهرة ضارية سارت به فى الشوارع والجماهير تنضم الى موكبها من كل جانب ، حتى بلغت مسكن الدكتور مانيت . وهناك أنزل المتظاهرون دارنى فانطلق يصعد السلم قفزا الى حيث تنتظر زوجته .. وحين رأته الجماهير يفتح لها ذراعيه ، فتسقط بينهما فاقدة الوعى ، قبل الرجال والنساء بعضهم البعض فرحين وبدأوا يرقصون جميعا فى الفناء الخارجى !

ولم تلبث لوسى أن أفاقت ، فوقف الزوجان يتبادلان نظرة طويلة .. ثم همس دارنى لزوجته فى نغم ناعم : « لوسى ، يا أعز مخلوقة .. أخيرا عدنا آمنين ! » .. فأجابته : « حبيبى تشارلس ! فلنتوجه بالشكر لله الذى ردك سالما من كل تلك المخاطر » .. وأحنيا رأسيهما يصليان ، ثم أقبلت مس بروس تحمل الطفلة ، فتعلقت هذه برقبة أبيها وأبت أن تدعها !

وحين وصل الدكتور مانيت ولورى يلهثان ، بادرا بتهنئة دارنى بحرارة على نجاته ، فالتفت هو الى زوجته وقال فى تأثر : « والآن يا عزيزتى فلنشكر أباك ، فما كان فى امكان رجل آخر فى فرنسا بأسرها أن يفعل لى مثلما فعل ! » .. **فاتجهت لوسى الى أبيها وأراحت رأسها على صدره ، دون أن تنطق بكلمة ، مثلما وضعت رأسه على صدرها فى باريس ذات يوم .. منذ دهر طويل !**

الفصل التاسع عشر

طرقة على الباب

◉ **برغم** نجاة دارنى، ظل قلب لوسى طيلة النهار مليئا بالمخاوف .. ففى كل يوم كان يساق الى الموت أبرياء مثل زوجها، أعزاء على زوجاتهم مثلما هو عزيز عليها !.. لكن أباها لم يشاطرها مخاوفها، فقد أكسبه نجاحه فى مهمته ثقة بنفسه وبنفوذه .. وفى المساء، فيما كانت مس بروس تتأهب للخروج بصحبة الساعى جيرى كرانشر لشراء بعض المأكولات والحاجيات للأسرة من الحوانيت القريبة، اقتربت من الطبيب تسأله هامسة : « أما من أمل فى أن نغادر هذه المدينة قريبا ؟ » فأجابها : « أخشى أن يكون هذا متعذرا، فمن الخطر على تشارلس أن يحاول المهاجرة مرة أخرى ! » .. وعلى أثر ذلك خرجت مس بروس وجيرى، تاركين لوسى وزوجها وأباها والصبية بجوار المدفأة المتوهجة . وكان كل شىء هادئا، وقد هدأت مخاوف لوسى عن ذى قبل .. وفجأة صاحت الزوجة : « ما هذا ؟ » .. فقال والدها وهو يربت على يدها بيديه : « يا عزيزتى .. اهدئى ! » .

— خيل الى اننى سمعت خطوات غريبة تصعد السلم !

— يا عزيزتى، ان الهدوء تام فى السلم ..

لكنه لم يكد ينطق بعبارته حتى سمعت طرقة قوية على الباب ! .. فتناول الطبيب المصباح ومضى ليفتح للطارق، بينما جلست لوسى تنتظر والرعب ينشرها ويطويها . وفوجىء مانيت حين فتح بأربعة رجال خشنى المظهر مسلحين بالسيوف والمسدسات، يضعون على رءوسهم قلنسوات حمراء !.. وقال أولهم وهم يخطون الى الداخل : « أين المواطن ايفريموند،

الملقب بدارنى ؟ » .. فقال دارنى : « من الذى يطلبه ؟ » .

ـ أنا أطلبه ، نحن نطلبه . انى أعرفك يا ايفريموند ، فقد رأيتك هذا الصباح فى المحكمة . لقد أصبحت سجين الجمهورية من جديد !

وأحاط به الأربعة حيث وقف وقد تعلقت به زوجتـــه وطفلته .. فتساءل دارنى : « أوضح لى لماذا تقبضون على من جديد ؟ » .. لكن الرجل أجابه : « حسبك أن تعود معنا ، وغدا سوف تعرف .. فانك ستحاكم غدا ! » .

بدا الدكتور مانيت وكأنه تحول الى حجر ، فقــد وقف والمصباح فى يده كما لو كان تمثالا ! فلما سمع هذه العبارات وضع المصبــاح جانبا وواجه المتكلم : « أتعرف من أنا ؟ » فأجابه : « نعم أعرفك أيها المواطن الطبيب » .. واذ ذاك أردف مانيت : « هل لك اذن أن تجيبه من أجـلى : كيف حدث هذا ؟ » .

ظهر التردد على الرجل برهة ، لكنه قال أخيرا : « لقــد اتهمه بعض أهالى حى سان انطوان .. » .

ـ بمـــاذا ؟

ـ لا تسألنى . هيا بنا يا ايفريموند ، فنحن فى عجلة ..

ـ لحظة واحدة .. هل لى أن أعرف من الذى اتهمه ؟

ـ المواطن والمواطنة ديفارج .. وشخص آخر .

ـ من هو ؟

ـ غدا سوف تعرف الجواب !

الفصل العشرون

مس بروس تعثر على أخيها

وإذ كانت مس بروس تجهل كل شىء عن الحوادث التى تجرى فى البيت ، فقد أخذت طريقها خلال طرقات الحى الضيقة ، وهى تفكر فى الأشياء التى عليها أن تبتاعها للأسرة ، وجيرى الى جوارها يحمل السلة .. وبعد أن اشترت بعض الأطعمة وزيتا للمصباح تذكرت أنها تبغى شراء شىء من النبيذ أيضا ! ، لكنها تجنبت دخول الحانات التى وجدتها مزدحمة بالشاربين الصاخبين .. وأخيرا عثرت على حانة هادئة ليس فيها غير نفر قليل ، فدخلت وأوصت على طلبها .

وفيما كان البائع يهيىء لها النبيذ ، مر بها واحد من رواد الحانة كان قد نهض لينصرف .. فلم يكد يحاذيها وتحين منها نظرة اليه حتى أطلقت صرخة مفاجئة ، التفتت اليهما على أثرها جميع الأنظار !.. ورغم التناقض الواضح بين الرجل الذى كان مظهره يوحى بأنه فرنسى ، والمرأة التى ينطق شكلها بأنها انجليزية ، فقد رآهما الحاضرون يتحدثان باهتمام .. كانت مس بروس تهتف بالرجل ، بالانجليزية :



« أوه ، سولومون ، عزيزى سولومون .. هل وجدتك أخيرا بعد فراق السنوات الطويلة ؟ » .. فأجابها الرجل من بين أسنانه غاضبا مفزوعا : « صه ! لا تنادينى باسم سولومون ، هل تبغين أن تكونى السبب فى هلاكى ؟ » .

ـ أخى ، أخى .. كيف توجه الى هذا السؤال القاسى ؟

ـ امسكى لسانك ، وتعالى نتحدث فى الخارج اذا أردت .

ثم وجه الرجل الى الحاضرين بضع كلمات بالفرنسية عادوا على أثرها كل الى حاله ، ثم خرج مع شقيقته وجيرى الى أقرب ركن معتم من الطريق .. وهناك سألها : « والآن ، ماذا تريدين ؟ » .. فقالت المسكينة : « يا لك من قاس عاق . كيف تكلمنى بهذه اللهجة ؟ » .. فانحنى ورشق خدها بقبلة خاطفة بينما راحت هى تمسح دموعها فى تأثر صامت .. واستطرد الشقيق يطيب خاطرها : « انى لم أفاجأ برؤيتك لأننى كنت أعلم بوجودك فى باريس ، فعملى يقتضينى معرفة كل الغرباء الوافدين هنا . فاذا كنت لا تبغين تعريض حياتى للخطر فامضى فى طريقك بأسرع ما يمكن ، ودعينى أنا أمضى فى طريقى . اننى مشغول للغاية ، فأنا الآن موظف حكومى ! » .

واذ تأهب للانصراف استوقفه جيرى ليذكره بأنه رآه فى لندن من قبل ، لكن اسمه لم يكن « سولومون » ولا « بروس » وانما كان يبدأ ب « جون » .. جون .. جون ماذا ؟

وفاجأهما صوت ثالث يجيب : « جون بارساد ! » ، فهتف جيرى : « بالضبط .. بارساد ! هذا كان اسمك » .. بينما أردف القادم ـ سيدنى كارتون ـ يحدث مس بروس وقد عقد يديه خلف ظهره وبدا عليه الهدوء التام : « لا تنزعجى يا عزيزتى لعدم ظهورى فى محيطكم ، فقد كنت فى زيارة مستر لورى أمس واتفقنا على أن لا أظهر الا بعد مرور العاصفة .

وقد جئت الآن لأتحدث مع أخيك .. بودى لو كان له عمل أفضل من التجسس لحساب البوليس ! » .

ازداد شحوب وجه الجاسوس وحاول أن يحتج : « كيف تجرؤ ...؟ » لكن سيدنى قاطعه : « سأخبرك : لقد رأيتك منذ ساعة خارجا من سجن (الكونسيير جيرى) ، فأدهشنى ذلك وأنا الذى يعلم أنه قد كان لك ضلع فى محاكمة دارنى الأولى فى لندن ! ومن هنا تبعتك الى الحانة ،وهناك عرفت من الأحاديث المتبادلة كل شىء عنك وعن طبيعة عملك . وقد انتهيت من ذلك على مهل الى قرار .. » .

ــ وما هو ؟

ــ من الخطر التحدث عنه هكذا فى الطريق ، فهل لك أن تصحبنى الى مكتب مستر لورى ، لبضع دقائق ؟

ــ واذا رفضت ؟

ــ أعتقد أنه من الخير لك أن تحضر ، والا ندمت !

وهنا التفت الجاسوس الى أخته وهتف غاضبا : « كل هذا بسببك ! » .. فقال له سيدنى : « البتة ، بل ان احترامى لشقيقتك هو الذى يجبرنى على التأدب معك ! .. والآن اقترح أن نوصل أختك أولا الى ناصية الشارع الذى تقيم فيه .. هات ذراعك يا مس بروس » .

وفى الطريق رفعت مس بروس عينيها الى كارتون متوسلة وناشدته أن لا يلحق بشقيقها أى أذى !.. ثم تركها الثلاثة عند ناصية الشارع وواصلوا سيرهم الى مسكن مستر لورى ، الذى كان قد فرغ من تناول عشائه وجلس أمام المدفأة يتأمل ألسنة اللهب ويستعيد ذكرياته .. فعرفه كارتون ببارساد ، وصلته بمس بروس ، وتذكر لورى لدى رؤيته وسماع اسمه انه الجاسوس الذى شهد ضد دارنى فى محاكمته الأولى ، فبدا عليه الامتعاض من زيارته !.. وعندئذ

أضاف كارتون بلهجة مغايرة : ((أصل الآن الى الجزء السيىء من الأنباء : لقد قبض على دارنى مرة أخرى !)) .

ــ ماذا تقول ؟ لقد تركته منذ ساعتين فقط حرا آمنا فى بيته ، وكنت الآن على وشك العودة اليه !

ــ لقد سمعت بارساد يقول فى الحانة انه رأى دارنى يساق الى السجن منذ قليل .. وسوف يحاكم غدا بغير ابطاء ، أليس كذلك يا بارساد ؟

ــ أعتقد ذلك ..

ــ لكن الموقف مختلف فى هذه المرة ، ومما ينذر بالشر أن مانيت لم يستطع الحيلولة دون هذا القبض ! على أية حال نحن فى عهد خطر للغاية ، ويتطلب منا حيلة لا تقل عنه خطرا .. فليستخدم مانيت حيلتـــه وأستخدم أنا حيلتى ونرى ما يكون . واذا حدث وتحقق أسوأ الفروض فسوف أحتاج الى معونة صديق تكون له صلة بسجن (الكونسيير جيرى) حيث سيحاكم دارنى غدا . سوف ألجأ الى معونة صديقنا مستر بارساد . ان الأمر أشبه بمباراة فى لعب الورق بينى وبينه ، فاذا ربحت المباراة وثقت من معونته !

فقال الجاسوس : ((ستلزمك أوراق ممتازة للغاية كى تربح هذه المباراة !)) .. فأجاب كارتون : ((انى سأكشف لك أوراقى حالا .. مستر لورى ، أنت تعلم مكمن ضعفى ، فهلا قدمت لى كأسا من (البراندى) ؟))

ووضعت أمامه زجاجة الخمـــر ، فجرع كأسا ثم نحى الزجاجة بعيدا وهو ساهم .. ثم استطرد فى بطء وكأنه لاعب يفحص الأوراق التى فى يده : ((مستر بارساد ، انك جاسوس للبوليس ، ورسول للجان الجمهورية ، ومخبر سرى ، وقد كنت فى الماضى جاسوسا فى خدمة الحكومة الانجليزية ــ وهذه ورقة نافعة فى يدى ، فان من يسمع ذلك سوف يرتاب فى أنك

لا تزال تتجسس لمصلحة حكومة انجلترا ضد مصالح الجمهورية الفرنسية ـ أرأيت أوراقى يا مستر بارساد ؟

ـ وكيف تنوى أن تستخدم هذه الأوراق فى اللعب ؟

ـ سأبدأ بأقوى ورقة فى جعبتى : سأخطر أقرب لجنة من لجان الجمهورية أنك عدو للجمهورية ، عدو لفرنسا .. والآن أنظر فى أوراقك وتدبر ما تستطيع استخدامه منها .. هلا أسرعت ؟

وجذب زجاجة الخمر فملأ منها كأسا جرعه ثم أردف : « تدبر أوراقك جيدا .. لا بأس ، خذ الوقت الذى يلزمك ! » .. ونظر الجاسوس فى أوراقه فاذا كلها هزيلة خاسرة ، بل ان بينها أوراقا خاسرة أخرى كان كارتون نفسه يجهلها : فلقد فصل بارساد من عمله فى انجلترا كجاسوس لبوليسها ، لتلبسه بالكذب .. فعبر البحر ليحترف نفس المهنة فى فرنسا ، بادئا بالتجسس على مواطنيه الانجليز لحساب الحكومة الفرنسية ، ثم صار جاسوسا على الفرنسيين أنفسهم حين استخدمته الحكومة الملكية للتجسس على حى سانت أنطوان وأسرة ديفارج .. لكنه فشل مع الأسف الشديد ، بفضل دهاء تلك المرأة التى لا تكف عن شغل الابرة ، والتى طالما رآها بعد ذلك تشى بمن تضمنتهم قائمتها فيرسلون فورا الى المقصلة ! والجاسوس أكثر الناس تعرضا للخطر ، اذ تكفى مجرد الشبهة لوضع حد لحياته ! حقا ان أوراق بارساد كلها خاسرة ..

واستبطأ كارتون جوابه ، فانبرى له : « انك تبدو غير راض عن أوراقك ! ؟ .. فهل تعطينى معونتك ، أم ستضطرنى الذهاب الى أقرب لجنة للجمهورية ؟ .. أمامك دقائق معدودة تنتهى فيها الى قرار ! » .

وأخرج كارتون ساعته فنظر فيها .. واذ ذاك سارع بارساد يناشده : « لكن احترامك يا سيدى لأختى لابد سيمنعك

من .. » فعاجله كارتون على الفور : « ان الطريقة الوحيدة التى أظهر بها احترامى لأختك هى أن أخلصها منك ! » .

لاذ الجاسوس بالصمت ، وقد انهارت ثقته بنفسه وأحس أنه غدا تحت رحمة الآخر تماما ! وفجأة استدرك كارتون : « أعتقد أن عندى أيضا ورقة أخرى : ذلك الجاسوس الآخر الذى كنت تتحدث اليه فى الحانة ، من يكون ؟ » .

ــ فرنسى لا وزن له ..

ــ ربما ، لكنى أذكر وجهه . انه يتكلم الفرنسية بلكنة أجنبية .. أنا واثق أننى رأيته من قبل .. آه ، وجدتها (وضرب المنضدة بيده) : انه المدعو « كلاى » ، الذى زاملك فى الشهادة ضد دارنى فى محاكمته الأولى !

ــ أنت مخطىء .. فقد مات كلاى ودفن فى لندن .

وهنا هب « جيرى كرانشر » واقفا وصاح متدخلا فى الحديث : « ان لى علما بشىء فى هذا الصدد ، أعلم أن كلاى لم يدفن ، وان جنازته تلك كانت وهمية . لم يكن فى قبره جثة ما ، وتابوته انما كان يحتوى على حجارة ! وقد دبرت تلك الجنازة كيما يعتقد الجميع أن الرجل قد مات فيكفون عن البحث عنه ! » .

ابيض وجه بارساد لدى افتضاح هذه الخدعة ، حتى حاكى وجوه الموتى ، وفغر فاه دون وعى من وقع المفاجأة .. بينما استطرد كارتون : « ربما كان من الأوفق اذن أن أقول ان فى سجون باريس جاسوسين من خصوم الجمهورية .. يا لها من ورقة أخرى رابحة . هل لك أن تسرع فى اللعب يا مستر بارساد ؟ »

ــ كلا ، انى أسلم لك .. وأعترف أننا كنا مكروهين فى انجلترا فى المدة الأخيرة بحيث لم يكن أمامنا سوى الهرب . وقد تمكنت أنا منه بصعوبة ، أما (كلاى) فما كان فى الامكان

أن يفر لو لم تدبر تلك الجنازة الوهميـــة ! لكن اللغز الذى يحيرنى هو كيف وقف هذا الرجل على السر ؟

فقال جيرى : « دعك من هذا . المهم أننى وقفت عليه وهذا يكفى .. ولتكن الجنازة القادمة التى تحضرانها أنت وكلاى جنـــازة حقيقية .. وآمل أن تكون جنـــازتك ! » .. لكن الجاسوس استدار عنه الى كارتون قائلا له : « ان موعد نوبتى فى العمل قد اقترب وعلى أن أذهب ، فماذا تريدنى أن أفعل ؟ تذكر انك لا ينبغى أن تطلب الى شططا يعرض رأسى للخطر ! » .

ـ كلا ، لن أغالى فى طلبى . انك تعمل فى سجن (الكونسيير جيرى) ، وتستطيع دخوله فى أى وقت ! ؟

ـ دعنى أطمئنك الى أن الفرار مستحيل !

ـ ومن أشـــار الى الفـــرار ؟ أجبنى : هل تملك دخول السجن وقتما تشاء ؟

ـ والخروج منه أيضا وقتما أشاء !

ـ تعال معى اذن يا مستر بارساد الى الحجرة المجاورة كي نتفاهم على انفراد !

الفصل الحادى والعشرون

سيدنى كارتون يرسم خطته

لم يكد كارتون وبارساد يدلفان الى الغرفة المجاورة حتى نظر مستر لورى الى جيرى نظرة شك وسوء ظن ، وابتدره :

ـ جيرى .. تعال !

فتقدم جيرى منه ، وكان يسير وقد سبقت احدى كتفيه الأخرى !

ـ ماذا تفعل الى جانب عملك كساع ؟ انى أرتاب يا جيرى فى أنك تستغل بنك تلسون العظيم ستارا تخفى وراءه عملا آخر مريبا .. فاذا صح هذا فلا تنتظر منى أن أتستر عليك !

فقال جيرى : « انى آمل يا سيدى أن لا تمس بالأذى رجلا فقيرا مثلى .. فان الأطبـاء يحتاجون الى جثث يشرحونها لاستيفاء دراساتهم ، ولابد من شخص يقوم بهذا العمل ! » .

فصـاح مستر لورى : « اخ !.. ان منظرك يثـير اشمئزازى » .

ـ لا تقس يا سيدى على ، فقد كنت أستطيع أن أخفى السر عنك . انى لم أبح به الا من أجل قضية أسمى !

فقال مستر لورى : « هذا صحيح ، فكفى . قد أظل صديقا لك اذا حرصت على حسن السلوك فى المستقبل .. » .

وفى هـذه اللحظة عاد سيدنى كارتون والجاسوس الى الغرفة ، فقال الأول : « الى اللقاء يا مستر بارساد .. لقد اتفقنا ، فلم يعد لك ما تخشاه من جانبى ! » .

واذ انصرف بارساد ، سأل مستر لورى كارتون عما فعله .. فأجاب : « لم أفعل شيئا ذا بال .. دبرت فقط أن أحاول رؤية دارنى فى السجن ، اذا استلزم الأمر » .

فقال لورى : « لكن ذلك وحده لن ينفعه .. » .

ـ انى لم أقل انه سينفعه !

جلس مستر لورى ساهما يحدق فى النار . لقد أضحى الآن شيخا مسنا ، يفيض قلبه اشفاقا على لوسى وقلقا على زوجها .. وتساقطت دموعه !

فقال كارتون : « لا تقل للوسى شيئا عن هذا التدبير ، فقد تشغل فكرها بألف سبب وسبب له ، وكل سبب سوف يزيد من متاعبها . انى أفضل أن لا أراها على الاطلاق ، ففى استطاعتى أن أقوم بأية خدمة صغيرة أستطيع أداءها ، بغير هذا اللقاء .. انك ذاهب اليها فيما أحسب . لا بد أنها الليلة مثال للتعاسة ! » .

ـ انى ذاهب اليها فورا ..

ـ يسرنى ذلك ، فانها تعتمد عليك الى حد كبير .. ترى كيف تبدو هذه الأيام ؟

ـ انها تبدو قلقة وشقية ، ولكن جميلة للغاية .

فتنهد كارتون تنهدة طويلة ، وسكت لحظة .. ثم استطرد : « هل انتهت مهمتك هنا فى باريس ؟ » .

ـ نعم . لقد فعلت كل ما أستطيع فعله هنا .. وكنت آمل أن أترك الآخرين فى أمان تام .. لقد حصلت على تأشيرة السفر وكنت على أهبة الرحيل ..

وران الصمت على الرجلين لحظات .. ثم قال كارتون : « ان لك لحياة طويلة تملك أن تستعيد ذكريات ما مضى منها .. » .

ـ انى اليوم فى عامى الثامن والسبعين .

ـ وقد عشت طيلة حياتك نافعا ، موضع ثقة ، ومحترما ؟

ـ انى أعمل منذ كنت صبيا .. لكننى لست متزوجا ، وأحس اليوم بشىء من الوحدة .. فليس لى من يبكى على !

ــ أو لن تبكى عليك لوسى ؟.. وطفلتها ؟

ــ نعم ، نعم ، حمداً لله .. انى لم أقصد ما قلته فى الواقع .

ــ لو انك لم تظفر بحب الآخرين واحترامهم طيلة حياتك .. لو انك لم تفعل شيئاً طيباً يتذكرك الناس به .. أفما كانت أعوامك الثمانية والسبعون تغدو ثمانية وسبعين لعنة ! ؟

فقال لورى : « بلى ، أعتقد ذلك .. » .

وأنهى كارتون الحديث عند هذا الحد بأن نهض واقفاً ليعين مستر لورى على ارتداء معطفه .. ثم قال له : « سأمشى معك حتى باب بيتها .. وغداً نلتقى فى المحكمة . اتكىء على ذراعى يا سيدى » .

وهبطا السلم ثم دلفا الى الطريق .. حتى بلغا باب حديقة البيت ، فدخل لورى .. أما كارتون فقد تريث برهة ، ثم استدار الى الباب فلمسه .. محدثاً نفسه : « انها تخرج منه كل يوم فى طريقها الى السجن .. وتطأ هذه الأحجار .. فلأطأها مثلها ! »

*

كانت الساعة قد أوفت على العاشرة مساء عندما وقف كارتون أمام بناء سجن (لافورس) .. ثم أخرج ورقة فكتب عليها بالقلم بضع كلمات على ضوء مصباح قريب ، وبعد ذلك مضى عبر شوارع معتمة قذرة حتى وصل الى حانوت لبيع الأدوية ، فقدم الورقة لصاحب الحانوت ..

وقال له الرجل وهو يناوله حزمة صغيرة : « انك ستكون حريصاً فى استعماله أيها المواطن !.. هل تعرف مفعوله ؟ » .

ــ تماما .

ودس الحزمة فى جيبه بعناية ثم غادر الحانوت .

وقضى كارتون الليلة يتسكع فى شوارع المدينة .. فلما أشرقت الشمس غلبه النعاس على ضفاف السين .. وحين

استيقظ وقف برهة يتأمل ماء النهر ، ثم قفل راجعا الى مسكن مستر لورى .. لكن الشيخ الطيب كان قد انطلق بالفعل الى المحكمة .. فتناول كارتون قدحا من القهوة وشيئا من الطعام ، ثم اغتسل ومضى بدوره الى مكان المحاكمة .. وهناك وجد مستر لورى ، والدكتور مانيت ، وقد جلست لوسى الى جوار أبيها ..

وحين جيء بزوجها ، رمقته بنظرة تشجيع تفيض بالحب والحنان ، بحيث تورد لها وجهه وأشرقت عيناه .. ولم يكن يسود قاعة تلك المحكمة الظالمة شيء من النظام ، ولا كان متهم يطمئن الى أنه سيظفر بمحاكمة عادلة . بل لقد كان واضحا من النظرات الحادة « المفترسة » للقضاة الخمسة والمحلفين ، أن لا أمل فى أن تنطوى قلوبهم على شيء من الرحمة فى ذلك اليوم !

وتلى على المتهم قرار الاتهام :

« شارل ايفريموند ـ الملقب بدارنى ـ أطلق سراحه أمس ، ثم أعيد اتهامه وألقى القبض عليه أمس .. متهم بأنه عدو للجمهورية ، ينتمى الى طبقة النبلاء ، والى أسرة ارتكبت أفظع أعمال القسوة على الشعب ! » .

وسأل رئيس المحكمة سلطة الاتهام : « هل التهمة علنية أو سرية ؟ » .

ـ علنية يا سيدى الرئيس .

ـ ومن الذى يتهمه ؟

ـ ثلاثة : أرنست ديفارج ، وتيريز ديفارج ـ زوجته ـ والطبيب ألكسندر مانيت !

وخلال الضجيج المروع الذى ساد قاعة المحكمة على الأثر ، رئى الدكتور مانيت يهب واقفا وقد شحب وجهه وارتجف من رأسه الى قدمه .. وصاح من مكانه : « سيدى

الرئيس ، أعلن اليكم أن هذا غير صحيح . أنتم تعلمون أن المتهم هو زوج ابنتى ، فمن قال اننى أتهم زوج ابنتى الوحيدة ؟ »

ـ أيها المواطن مانيت ، تذرع بالهدوء واصغ الى ما سيجىء .. وخلال ذلك ، لتلزم الصمت !

ومرة أخرى تعالى الضجيج والصيحات العالية عندما جلس الطبيب فى مكانه وشفتاه ترتعشان انفعالا !.. وحين هدأت القاعة من جديد ، نهض ديفارج فروى قصة سجن الدكتور مانيت الطويل فى غياهب « الباستيل » الرهيب ، ووصف الحالة التى وجده عليها حين أطلق سراحه وسلم اليه !

وسألت المحكمة الشاهد : « هل قمت بمهمة طيبة أيها المواطن عند اقتحام الباستيل ؟ » .

ـ أعتقد ذلك .

ـ اذن حدثنا بما فعلت فى ذلك اليوم أيها المواطن !

فقال ديفارج وهو يلقى نظرة الى زوجته : « كنت أعلم أن هذا السجين كان يقيم فى زنزانة يطلق عليها « رقم ١٠٥ ، البرج الشمالى » .. علمت ذلك من السجين نفسه ، الذى لم يكن يعرف له اسما غير هذا الرقم : « ١٠٥ ، البرج الشمالى » !.. فلما سقط الباستيل طلبت الى أحد الحراس أن يقودنى الى الزنزانة المذكورة . وهناك فحصت كل شبر منها فحصا دقيقا ، فوجدت فى فجوة بجدار المدفأة مخطوطا هو الذى أقدمه الآن للمحكمة ، وهو بخط الدكتور مانيت ! » .

فقال رئيس المحكمة على الفور « فليتل المخطوط المقدم » . ووسط سكون رهيب ، تلى المخطوط .. وكان هذا نصه :

الفصل الثانى والعشرون

قصة الدكتور مانيت

● **أنا** « ألكسندر مانيت » أكتب هذا فى زنزانتى بسجن (الباستيل) فى سنة ١٧٦٧ ، وفى عزمى أن أخفيه فى فجوة بالمدخنة ، حيث آمل أن يعثر عليه شخص ما بعد موتى . انى الآن بكامل قواى العقلية ولست مجنونا (وان كنت أخشى أن أفقد عقلى قريبا) .. وهذا الذى أكتبه هو الحقيقة الصادقة ، وأنا أكتبه بمسمار صدىء استعضت به عن القلم .. أما الحبر فقد استعضت عنه بدمى ، مخلوطا برماد المدخنة !

كنت أسير على ضفة السين ذات ليلة مقمرة ملبدة بالسحب ، من شهر ديسمبر سنة ١٧٥٧ ، حين جاءت عربة من خلفى ، فلما حاذتنى أطل رجل برأسه من نافذتها وأمر بايقافها .. ثم سمعته ينادينى باسمى ، وترجل من العربة سيدان ، لاحظت لأول وهلة قوة الشبه بينهما ، فى الطول والحركات والصوت والوجه !

وابتدرنى أحدهما : « هل أنت الدكتور مانيت ؟ » .

ــ انى هو يا سيدى .

ــ لقد ذهبنا الى منزلك فقيل لنا أين عسانا أن نجدك .. نرجوك أن تتفضل بالركوب .

فأجبت : « من عادتى أن أسأل عن طبيعة الحالة التى استدعى بشأنها ، واسم الشخص الذى يلتمس معونتى » .. فقالا : « نحن من أسرة طيبة ، أما عن طبيعة الحالة فانك ستراها بنفسك » .. وكانا يتكلمان وقد أحاطا بى ، كل من جانب ، فلم يكن فى وسعى غير أن أطيع !.. ومضت بنا العربة حتى خرجت من البوابة الشمالية ، ثم انحرفت عن الطريق الرئيسى بعدها بنحو ميلين .. وأخيرا توقفت أمام دار منعزلة .

وسمعت صرخات تنبعث من غرفة فى الطـابق الأعلى ، أخذونى اليها على الفـور فوجدت شـابة قد اعترتها حمى مرتفعة جعلتها تهذى . وكانت بارعة الحسن غضة الشباب ، وان كان شعرها قد تمزق وذراعاها أوثقتا الى جانبيها بقطعة من الحرير رسم على ركن منها حرف "E" . وكانت تنبعث من عينيها نظرات ضـارية وقد أخذت تصرخ بلا هوادة : ((زوجى ، أبى ، أخى !)) ثم تعد : ((واحد ، اثنين ، ثلاثة)) .. حتى اذا بلغت رقم الاثنى عشر بدت كأنها تصغى .. ثم عاودت الكرة من جديد ، المرة بعد المرة ! !

وسألت الرجلين : ((كم من الوقت انقضى عليها وهى فى هذه الحالة ؟)) .. فأجابنى أكبر الأخوين : ((منذ نحو هذا الوقت من الليلة الماضية)) .. فبادرت باعطاء الفتـاة دواء منوما ، وجلست بجوار فراشها أرقب مفعوله .. وبعد نحو نصف ساعة هدأت الفتاة قليلا . وعندئذ قال الأخ الأكبر : ((هنـاك مريض آخر)) وتناول مصباحا ثم قادنى الى غرفة أخرى ــ وكانت تسـتخدم لخزن التبن وحطب الوقود ، وفى أسفلها يقع ((اسطبل)) الخيل ــ وهناك كان يرقد على الأرض فتى فى نحو السابعةعشرة ، قد أمسك صدره بيده ،



وبدت فى عينيه بدوره نظرة ضارية . وأدركت من فورى انه يحتضر ! وحين سمح لى بعد جهد أن أرفع يده عن صدره رأيت فيه جرحا غائرا من تأثير طعنة سيف ، انقضت عليها نحو أربع وعشرين ساعة .. فسألت : « كيف حدثت هذه الاصابة ؟ » .. فأجابنى مرافقى بصوت لا يبدو فيه أثر لشفقة أو حزن : « انه فتى قروى لا وزن له ، كان قد ألجأ أخى الى أن يستل سيفه ! » .

وهنا استدارت عينا الفتى الى ، وسألنى : « هى .. هل رأيتها يا دكتور ؟ » .. فلما أجبته بالايجاب ، استطرد : « انها أختى ، وقد أحبت شابا من أهل القرية .. وكان مريضا فى ذلك الحين فتزوجته لتسهر على صحته . ثم رآها أصغر الأخوين ، وأرادها .. ففرض على زوجها أن يعمل طول الليل ، حتى اذا أقبل الصباح أجبروه على جر عربة ثقيلة . وذات يوم ، نحو الظهر ، فيما كانت الساعة تدق دقاتها الأثنتى عشرة ، أطلق الشاب عدة صرخات متوالية ، صرخة مع كل دقة من دقات الساعة .. ثم أسلم الروح . وعندئذ أخذوا زوجته – أختى – بعيدا . فلما علم أبى مات حزنا وغما .. فأخذت أختى الأخرى الى مكان بعيد آمن ، ثم تبعت السيد الى هنا . وفى الليلة الماضية تسلقت البيت وفى يدى سيف . وسمعتنى أختى فهرعت الى مكانى . وعندئذ أقبل هو ، فهجمت عليه بسيفى بحيث اضطر الى أن يستل سيفه ليدافع عن نفسه .. وهذه هى النتيجة .. ارفعنى يا دكتور .. أين هو ؟ » .

ورفعته ، فاستجمع فجأة كل ما تبقى من قواه ونهض واقفا ، ثم قال : « انى ألعنك ، وكل آلك – يا أصغر أفراد سلالتكم الشريرة – كى تكفر عن هذه الأفعال ، وأرسم عليك هذا الصليب من الدم كعلامة تميزك . وألعن اخاك – أسوأ

أفراد السلالة الشريرة - كى يكفر عن أفعاله ويدفع الثمن . وأرسم عليه هذا الصليب من الدم كعلامة تميزه ..» .

ثم غمس يده فى الدم المنبثق من صدره ورسم صليبا فى الهواء .. وعندئذ سقطت يده ، فلما أرقدته على الأرض تبينت أنه قد مات !

وعدت الى الفتاة .. كانت لا تزال تطلق صرخاتها ، فأيقنت أنها ستظل على هذه الحالة بضع ساعات ، ثم تلحق بأخيها !.. وجاء السيد الأكبر فجلس بجانبى ، وقال : « انك يا دكتور لا تزال شابا وأمامك مستقبل عليك أن تبنيه ، فمن الأفضل لك أن لا تتفوه بكلمة عما رأيته وسمعته هنا ! » .

لم أجبه .. وبعد ساعتين ماتت الفتاة ، وكان الشقيقان جالسين فى الطابق الأسفل ، فأخرج الأكبر من جيبه كيسا من الذهب وقدمه لى . لكنى اعتذرت بقولى : « أرجو أن تعفينى .. ففى مثل هذه الظروف لا أتقاضى أجرا » .

نظر كلاهما الى الآخر ، عجبا ودهشة .. فانحنيت لهما محييا ، وافترقنا دون أن نتبادل كلمة أخرى !

لكنى فوجئت فى الصباح التالى بذلك الكيس من الذهب وقد أرسل الى فى منزلى ، فى ساعة مبكرة !.. وكنت قد قررت ابلاغ الأمر الى الوزير . فلم أكد أفرغ من كتابة بلاغى اليه حتى قيل لى ان امرأة شابة تبغى مقابلتى . علمت منها أنها قد وقفت على خلاصة ما حدث .. وان زوجها هو الشقيق الأصغر ، لكنها ليست موفقة فى زواجها . ولم تكن تعلم أن الفتاة قد ماتت ، ومع ذلك فقد جاءت تعرض أن تساعد - سرا - أسرة المجنى عليها أية مساعدة فى وسعها . كما أنها عرفت أن للفتاة شقيقة أصغر منها فودت لو تساعدها كذلك .

رويت للزائرة معلوماتى عن المسألة ، وذكرت لها اننى أجهل مكان الأخت الصغرى . وعند انصرافها رافقتها الى

الباب ، فلمحت فى العربة التى تنتظرها طفلا فى نحو الثالثة . وعندئذ التفتت الى مناشدة :

« من أجل طفلى يا دكتور أريد أن أفعل ما أستطيع لمواساة الأسرة المنكوبة ، والا حاقت بابنى لعنة الضحيتين .. فان بى احساسا خفيا أنه سيدفع يوما ثمن كل هذه المظالم اذا لم أفعل شيئا للتخفيف من وقعها !.. انى أملك بعض الحلى الثمينة وسوف أوصيه قبل موتى أن يهبها لتلك الأسرة التى نكبها أبوه » .. ثم قبلت الطفل قائلة : « انك ستكون وفيا يا صغيرى « شارل » ، أليس كذلك ؟ » .. فأجابها الصغير فى جرأة : « نعم » .. وأثناء حديثها ذكرت عفوا اسم زوجها ، اعتقادا منها بأنى أعرفه ، لكنى لم أضف الى الخطاب شيئا ، وانما أغلقته وسلمته بنفسى فى اليوم ذاته .

وفى ذلك المساء طرق الباب رجل يرتدى السواد ، طالبا أن يرانى . ففتح له خادمى الشاب – المدعو أرنست ديفارج – فتبعه الى الطابق الأعلى حيث كنت جالسا مع زوجتى العزيزة .. وقال لى الرجل : « هناك حالة مستعجلة فى شارع « سان أونوريه » ، والعربة تنتظر بالباب » ... ولم أكد أتبعه الى الخارج حتى ألقيت على من الخلف خرقة سوداء شدت على فمى ، وأوثق ذراعاى .. ثم برز الشقيقان من الجانب المقابل المعتم من الشارع ، وتناول الشقيق الأكبر « المركيز سان ايفريموند » من جيبه الخطاب الذى كتبته الى الوزير ، وأحرقه على لهب مصباح العربة ، ثم وطأ بقاياه فى الوحل .. ودون أن ينطق أحدنا بكلمة حملتنى العربة الى هذا السجن ، قبرى الذى دفنت فيه حيا !

وطيلة هذه السنين لم يرسل الى أولئك القوم أى نبأ عن زوجتى ، بحيث لا أعلم اذا كانت لا تزال حية أم ماتت ! .. ذلك أن قلوبهم قد خلت من الرحمة ، ولست أشك فى أن الله

لن يرحمهم ، وان علامة الصليب الدموى سوف تظل لعنتها تطاردهم .. وبالاضافة اليها أصب — أنا الكسندر مانيت — لعنتى أيضا على الشقيقين ونسلهما جميعه حتى آخر فرد من سلالتهما الشريرة ..! »

❋

عندما انتهت تلاوة المخطوط ، دوت فى أرجاء القاعة صيحة رهيبة ... صيحة الدم ، تطالب برأس المتهم !

ولم تبق حاجة للتساؤل عن سبب كتمان آل ديفارج لسر هذا المخطوط منذ عثروا عليه ، فقد أخفوها حتى يحين الوقت الذى يحدث استعمالها فيه أعظم الأثر !.. كما لم تبق حاجة للتساؤل عن سبب تلك الكراهية المتأججة التى أضمرها أهالى حى « سان انطوان » لأسرة ايفريموند !

وغمغمت مدام ديفارج ، وهى تبتسم ، للمرأة الجالسة بجانبها — وهى المدعوة « فنجانس » (الانتقام) : « أين نفوذ الطبيب العظيم ؟ أنقذه يا طبيبى ، أنقذه اذا استطعت ! » .

وعند أخذ الأصوات كان النظارة يقابلون اعلان كل صوت بضجيج مروع .. ضجيج فى أثر ضجيج .. واتفقت كلمة الجميع : أن يعود ايفريموند الملقب بدارنى الى سجنه .. كى يعدم خلال أربع وعشرين ساعة !!

الفصل الثالث والعشرون

مستر لورى يبذل وعدا

● **بسطت** لوسى ذراعيها نحو زوجها ضارعة : « دعونى ألمسه ، مرة واحدة ! دعونى أقبله ! أواه أيها المواطنون الطيبون فلتدرككم الرحمة بنا ! » .



وكان أكثر « المواطنين الطيبين » قد خرجوا من القاعة ليتظاهروا معربين عن سخطهم الشديد وكراهيتهم للسجين ! وكان بارساد بين من بقوا فى القاعة ، فقال للحاضرين :

« دعوها تقبل زوجها .. لن يستغرق ذلك أكثر من لحظة » .. فوافقوا صامتين ، ومضت الى حيث وقف تشارلس ، وتبعها والدها الذى هم بأن يجثو على ركبتيه لكليهما مستغفرا .. لولا أن أمسك دارنى به صائحا : « كلا ! كلا ! ماذا جنيت حتى تركع لنا ؟ الآن قدرنا مبلغ ما قاسيته من ألم حين عرفت من أنا .. وكيف تغلبت على شعورك من أجل سعادة ابنتك ... فنشكرك بجماع قلبينا ، كانت السماء فى عونك !! »

وعندما جاءوا ليأخذوه ، وقفت زوجته تشيعه بنظراتها وهى تعصر يديها ، وقد لاح حبها على وجهها . فلما اختفى عن ناظريها استدارت ثم سقطت مغشيا عليها ... فحملها سيدنى كارتون الى العربة . وحين وصلوا الى بيتها حملها الى داخله ، حيث أخذت طفلتها ومس بروس تنتحبان قلقا عليها . وقال كارتون : « قبل أن أذهب ، هل تسمحون لى بتقبيلها ؟ » .. وانحنى فمس وجهها بشفتيه .. ثم مضى الى الغرفة المجاورة ، يتبعه لورى ووالدها ..

وقال كارتون للطبيب : « كان تأثيرك عظيما أمس يا دكتور مانيت .. فيجب أن تبذل أقصى جهدك من الآن حتى أصيل غد كى تنقذه ! » .

ــ هذا ما سأحاوله .. ولن أستريح لحظة واحدة .

ــ لا بأس . ان الأمل ضئيل ، ولست أتوقع نتيجة ما من المحاولة .. لكنى أحب أن أعرف مدى ما ستصل اليه مساعيك . متى ستقابل ممثلى السلطات المسؤولة ؟

ــ فى خلال ساعة أو اثنتين ..

ــ أتمنى لك التوفيق !

ولحق لورى بكارتون عند الباب الخارجى ، حيث لمس كتفه وهو يدلف من الباب . وحين استدار اليه ابتدره فى لهجة حزينة :

ــ ليس عندى أدنى أمل ..

ـ ولا أنا .

ـ بعد الطريقة التى أظهر بها الجمهور شعوره ، لن يجرؤ أحد على انقاذه !

ـ أجل ، ما من أمل جدى .. أنه سيموت .

قالها كارتون وراح يهبط السلم بخطوات ثابتة .. وحين بلغ الشارع تريث ، لا يدرى بالضبط الى أين يذهب .. وقال يحدث نفسه : « انى حسنا أفعل باظهار نفسى ، فمن الخير أن يعرف الناس أن هناك رجلا مثلى هنا . قد يكون هذا تمهيدا ضروريا » .. ثم ولى وجهه شطر حى سان انطوان !

ولأول مرة منذ سنوات تناول عشاءه بغير أن يتعاطى معه شرابا قويا .. ثم اتجه نحو حانة مسيو ديفارج . ولم يكد يدخل فيجلس ويطلب ـ بفرنسية سقيمة ـ كأسا صغيرة من النبيذ ، حتى ألقت عليه مدام ديفارج نظرة عابرة .. ثم نظرة أحد .. فأشد حدة ! وعندئذ تقدمت منه بنفسها وسألته ماذا طلب ، فكرر ما قاله للساقى الأول . وعندئذ سألته : « هل أنت انجليزى ؟ » .

ـ نعم يا سيدتى ، اننى انجليزى .

فتركته كى تحضر له النبيذ وهمست لزوجها : **« أقسم لك انه قوى الشبه من ايفريموند ! » فقال ديفارج : « انه بالفعل يشبهه » .. وكان جاك رقم (١) قريبا منهما فقال لها : « ان ايفريموند يشغل كل تفكيرك ! » .**

وران على الثلاثة سكون وهم يختلسون النظر الى كارتون، الذى تظاهر بأنه يقرأ صحيفة فى يده بصعوبة ، متابعا كلماتها بأصبعه !

وقال جاك رقم (١) : « ان ما تقوله السيدة صحيح ، لماذا نقتصر على ايفريموند ؟ » .

فقال ديفارج : « علينا أن نتوقف عند حد على أى حال » .

وقالت زوجته : « انى سأتوقف بعد أن يموتوا جميعا ! » .

فقال ديفارج فى شىء من القلق : « فكرة طيبة . لكن الطبيب قد تألم كثيرا فى الواقع .. هل رأيتم وجهه حين تلى المخطوط ؟ بل ووجه ابنته ؟ » .

فقالت مدام ديفارج : « لقد رأيت وجهه ، ورأيت وجه ابنته . رأيتها اليوم وفى مرات سابقة . ورأيتها فى الشارع المواجه لنافذة السجن .. فلتأخذ حذرها ! لكنك تود انقاذ ذلك الرجل الآن لو استطعت !؟ » .

فقال ديفارج : « كلا .. » .

وأردفت زوجته : **« اصغوا الى .. ان اسم تلك الأسرة مدرج فى قائمتى منذ زمن بعيد بسبب قسوتهم . وحين أحضر زوجى ذلك المخطوط الذى عثر عليه فى الباستيل قرأناه معا هنا ، على ضوء هذا المصباح .. فلما انتهينا منه كاشفت زوجى بسر : ان تلك الأسرة الفقيرة التى نكبها الشقيقان ايفريموند ، كانت أسرتى . وذلك الفتى الذى قتلاه كان أخى ، وتلك الفتاة أختى .. كنت أنا أختهما الصغرى ! »** .

فقال ديفارج : « هذا صحيح »

ـ اذن فلنقل للآخرين أين يتوقفون .. أما أنا فلا !

وتوافد على الحانة رواد آخرون ، فتفرقت الجماعة .. ودفع كارتون ثمن كأس النبيذ ثم انصرف . مضى الى مسكن لورى ، وهناك وجد هذا الرجل المسن يذرع الحجرة فى قلق وانزعاج : ان الدكتور مانيت لم يعد منذ غادر البنك فى الساعة الرابعة ! .. وانتظره الرجلان ، دون جدوى ، حتى العاشرة مساء .. واذ ذاك مضى لورى ليرى لوسى ، وبقى كارتون بمفرده بجوار المدفأة ..

وقرب منتصف الليل عاد لورى ، ولم يلبث الاثنان أن سمعا خطوات الطبيب تصعد السلم .. وبمجرد أن دخل الغرفة كان واضحا من سحنته أن كل أمل قد ضاع !

ولم يعرفا اذا كان المسكين قد قابل أحدا ، أو أنه أنفق

كل تلك الساعات يذرع الشوارع .. فانهما لم يجرؤا أن يوجها اليه سؤالا ، بعد أن قال لهما وجهه كل شيء !

وسمعاه يقول : « لست أجدها .. أين هى ؟ أين منضدتى ؟ » .. فنظر كلاهما الى الآخر ، وسقط قلباهما !.. بينما أردف الطبيب صائحا : « هيا ، هيا .. دعونى أبدأ عملى .. اعطونى منضدة عملى ! » .

وكان واضحا عقم كل محاولة للتفاهم معه ، فوضع كلاهما يدا على كتفه وأقنعاه بالجلوس بجوار المدفأة ، واعدين اياه باحضار منضدة عمله اليه بعد برهة .. فغاص فى المقعد وراح يحدق فى النار والدموع فى عينيه .

وعادا ينظران أحدهما الى الآخر ، فقال كارتون : « ان الفرصة الأخيرة قد ضاعت ، ومن الأفضل أن تأخذه الى ابنته .. ولكن قبل أن تذهب ، هل لك أن تنصت الى لحظة ؟ لا تسألنى لماذا أطالبك بأن تقطع لى عهدا ، فلدى أسبابى الوجيهة ! » .

ــ لست أشك فى ذلك .. استمر .

وانحنى كارتون ليرفع معطف الدكتور مانيت الذى سقط على الأرض ، فاذا حافظة صغيرة تقع من أحد جيوب المعطف .. فتناولها كارتون ، ووجد فيها ورقة مطوية لم يكد ينشرها ويقرأ ما فيها حتى تنفس الصعداء وهو يقول : « شكرا لله ! » .. فسأله لورى : « ما هذه ؟ » .

ــ انتظر حتى أتكلم عنها فى موضعها .. ولكن قبل ذلك ــ (ودس يده فى جيبه وأخرج منه ورقة أخرى) ــ هذا هو جواز المرور الذى سيسمح لى بالخروج من باريس . تأمله ، أترى ما كتب فيه : « سيدنى كارتون ، انجليزى الجنسية ؟ » .

تناوله لورى فى يده ، وهو يحدق فى وجه كارتون متسائلا .. فاستطرد هذا : « احتفظ لى به حتى غد ، فلعلك تذكر اننى سأقابل تشارلس غدا ، ومن الأفضل أن لا يكون معى

عند ذهابى الى السجن .. وخذ أيضا هذه الورقة الأخرى التى كانت فى جيب مانيت ، وهى تخول له هو وابنته وطفلتها أن يغادروا المدينة فى أية لحظة .. أترى ؟ » .

ـ أجل .

ـ والآن اصغ الى . عندى من الأسباب ما يجعلنى أخشى أن يغتصب هذا التصريح من الطبيب ، فانهم فى خطر عظيم . لقد سمعت مدام ديفارج تتحدث عنهم الليلة . لا تجزع ، فانك سوف تنقذهم جميعا .

ـ أرجو ذلك .. ولكن كيف ؟

ـ سأذكر لك كيف .. ان الأمر يتوقف عليك ، وفيك كل الكفاية ، سيما وانهم لن يتعرضوا غالبا للخطر قبل مرور بضعة أيام أخرى .. والآن اليك تفصيل مهمتك : ان فى حوزتك من المال ما تستطيع أن تكفل به وسيلة المواصلات التى تنقلكم الى ساحل البحر بأسرع ما يمكن .. فلتحرص على أن تستأجر صباح غد عربة تكون مستعدة للتحرك بكم فى الساعة الثانية بعد الظهر .

ـ لك هذا !

ـ يا لك من صديق نبيل القلب . والآن عليك أن تشرح للوسى الليلة ما تعلمه عن الخطر الذى يهددها هى وأباها وطفلتها . قل لها انهم ينبغى أن يرحلوا عن باريس ، وان هذه كانت رغبة زوجها الأخيرة . بل قل لها ان على تنفيذ هذه الخطة تتوقف أشياء أخطر بكثير من كل ما يخطر ببالها ! ولتكن كل معدات السفر معدة هنا فى الفناء فى الموعد الذى ذكرته لك . بل فلتأخذوا جميعا أماكنكم فى العربة ولا تنتظروا الا شغل مكانى فيها .. وعندئذ : الى انجلترا !

ـ أفهم من هذا اننا ينبغى أن ننتظر حضورك أيا كانت الظروف ؟

ـ ان معك جواز سفرى مع بقية الجوازات . فعليك فقط

أن تنتظر شغل مكانى .. هل تعدنى بأن تتبع تعليماتى هــذه حرفيا ؟

— أعدك !

حسنا ، فلتؤد أنت دورك ، وأنا دورى ! والآن ، وداعا !

وبعــد أن أعان كارتون مستر لورى على نقل الدكتــور مانيت الى حيث توجد ابنته ، ودعهم عند الباب الخارجى .. ثم لبث هنــاك بضع دقائق بمفرده ، يتطلع الى نافذة مخــدع لوسى المضاء .. وقبل أن يمضى همس بدعاء أخير يباركها به !

الفصل الرابع والعشرون

سيدنى كارتون يملى خطابا

● **فقد** تشارلس دارنى ، وهو وحيد فى سجنه ، كل أمل فى الخلاص !.. فمنذ أصغى الى تلاوة مخطوط الدكتور مانيت وسمع صداه فى صرخات الجماهير الضارية ، أدرك أن ما من نفوذ شخصى يستطيع انقاذه من مصيره المحتوم .. وانه لابد أن يموت ، لا لجريمة ارتكبها هو ، وانما من أجل جرائم لا حصر لها ارتكبها أفراد من عائلته ومن غيرها من عائلات النبلاء ضد الملايين من أبناء الشعب ..

ولكن ، كان يشق على نفسه أن يموت ، وأن يفارق ثانية - والى الأبد ! - الزوجة المحبوبة والطفلة اللتين ضمهما الى صدره بعد فرقة طويلة .. وان كان له بعض العزاء فى أن المصير الذى لابد سيلاقيه لا ينطوى على أى عار .. فان كثيرين غيره من الضحايا ، الأبرياء من أية جريمة ، كانوا يعبرون الطريق ذاته كل يوم ، ويطأون أرضه ثابتى الجأش الى النهاية .. وهكذا ، حين هدأت نفسه بعض الشىء ، جلس ليكتب خطابه الأخير الى الذين أحبهم :

فكتب الى لوسى : « .. اننى لم أعرف قصة سجن أبيك الا عندما قصصتها على .. ولم أكن أعلم أن أبى وعمى هما اللذين حطما حياته على ذلك النحو المروع . وكنت قد صارحته باسمى الحقيقى « ايفريموند » ، فسألنى أن أخفيه عنك .. لكنه وافق على زواجنا وباركه . ولا شك أنه كان يحسب ذلك المخطوط الذى دسه فى زنزانته بسجن الباستيل قد أدركه الضياع فى غمرة الهرج الذى اقترن باقتحام ذلك الحصن ، أو لعله كان قد نسى كل شىء عنه .. **فرجائى اليك أن تواسى أباك . لا تدعيه يلوم نفسه على أية صورة !.. ولتنسى أنت شجنك وتكرسى حياتك له وللعناية بابنتنا .. وذات يوم ،**

في ذلك العالم السعيد الذى وراء القبر ، سوف نلتقى جميعا مرة أخرى ! » .

ثم كتب دارنى خطابا آخر الى الطبيب نفســه ، يوصيه خيرا بزوجته وطفلته ويتركهما فى رعايته (فقد يحميه الشعور بهذا الواجب الذى فى عنقه من أن يفقد صوابه ثانية) .

وكان الخطاب الأخير الى لورى ، وقد شرح له فيــه كل أموره الدنيوية ، وشكره على صداقته الدائمة .

أما سيدنى كارتون فلم يخطر لدارنى على بال اطلاقا .. فقد كان ذهنه مزدحما بالآخرين الى حد لم يدع له فرصــة يذكره فيها بخير أو شر !

وقد أتم دارنى كتابة هذه الرسائل قبل أن تطفأ الأنوار .. فلما سبحت الزنزانة فى الظلام المطبق ، رقد على الفراش يفكر فى أن صلته بالعالم قد انتهت !.. لكن العالم ـ العالم الزاهى الذى أحبه ـ عاوده فى نومه المضطرب ، فحلم بأنه عاد ثانية الى داره فى لندن ، حرا ، سعيدا ! وكانت لوسى تقول له فى الحلم ان كل ما خيل اليه انه وقع له انما كان كابوسا مفزعا ، وانه لم يتركها قط !.. ثم لبث فترة يقظان ، وفترة أخرى نصف يقظان ونصف نائم .. وتتابعت عليه الساعات الطويلة فى بطء قاتل !

وأخيرا ، مع خيوط الفجر الأولى التى بددت الأشباح من رأسه ، أدرك أن اليوم الأخير من حياته قدحل .. وانه وواحدا وخمسين آخرين لن يروا فجرا آخر !

وكان يعرف كيف سيموت ، لكنه لم يكن قد رأى من قبل تلك المقصلة التى ستضع حدا لحياته .. فبدأ يفكر فيها : كيف سيكون شكلها .. والى أى جهة سوف يديرون وجه . وهل سيكون من أوائل الذين يعدمون فى هذا اليوم أم أواخرهم .. هذه وأفكار كثيرة غيرها جالت بذهنه وساعات الصباح تتتابع عليه فى بطء رهيب !

وسار يذرع الزنزانة والساعة القريبة تدق كل حين دقة لن يسمعها مرة أخرى !.. التاسـعة انقضت الى الأبد .. العـاشرة انقضت الى الأبد .. الحـادية عشرة انقضت الى الأبد !.. ان ذهنه الآن مستريح ، وكرر لنفسه فى رقة أسماء أحبائه .. وصلى من أجلهم .

وانقضت الثانية عشرة .. الى الأبد !

وكانوا قد قالوا له ان ساعته الأخيرة هى الثالثة ، لكنه كان يدرك أنهم لابد سيأتون ليأخذوه قبل ذلك ببعض الوقت ، فقد كانت عربات الموت تستغرق زمنا وهى تقطع رحلتها متثاقلة فوق الشوارع الحجرية .. واذن فقد بقى أمامه نحو ساعتين ، عليه أن يعد فيهما العدة لتقوية معنويته ، كى يتمكن فيما بعد من تقوية معنويات الآخرين الذين سيرافقونه فى عربة الموت !

وهكذا ، فى هدوء ، وذراعاه معقودتان فوق صدره ، مضى يذرع الزنزانة جيئة وذهابا .. وسمع الساعة تدق الواحدة ، لكنه لم يفاجأ ، وانما شكر السماء من أجل سكينة نفسه .. وحدث هذه النفس فى سره : « لم تبق غير ساعة واحدة ! » .. وعاد يذهب ويجىء فى المكان ..

وفجأة توقف ، فقد سمع وقع خطوات خارج بابه .. ثم وضع المفتاح فى القفل وأدير . وحين فتح الباب سمع رجـلا يقول فى صوت هامس : « انه لم يرنى هنا قط ، اذ حرصت على تجنب طريقه . أدخل وحدك وسأنتظر أنا هنا .. لا تضيع وقتـا » .

وفتح الباب بسرعة ثم أغلق .. واذا هو وجها لوجه أمام « سيدنى كارتون » ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسـامة مشرقة ورفع أصبعه محذرا !

وكان يحيط بسيدنى جو من الاشراق الغامض ، جعـل تشارلس يحسب فى البداية انه يرى شبحا . لكن القادم تكلم ،

فكان الصوت صوت كارتون .. وأمسك بيده ، وكانت اليد يد كارتون !

قال كارتون : « لعلك لم تتوقع أن ترانى هنا ، من دون أهل الأرض جميعا ، أليس كذلك ؟ » .. فأجابه دارنى : « انى لم أصدق عينى حين رأيتك ، وأكاد لا أصدقهما الآن .. هل أنت سجين ؟ » .

— كلا ، وانما كان لى بالمصادفة نفوذ على أحد السجانين ، وبفضل هذا النفوذ ترانى أمامك الآن . لقد أرسلتنى اليك زوجتك يا عزيزى دارنى !

شد السجين على يده ، بينما استطرد كارتون : « انى أحمل اليك منها رجاء على أقصى جانب من الاستعجال . انها تناشدك باسم حبك اياها أن تفعل ما أطلبه منك بالضبط دون أن تضيع الوقت فى الأسئلة . هيا ، اخلع حذاءك والبس حذائى ! » .

وكان هناك مقعد بجوار جدار الزنزانة ، خلف السجين ، فأجلسه كارتون عليه فى مثل سرعة البرق ووقف أمامه عارى القدمين :

— والآن البس هذين الحذاءين .. اسرع !

— ان الفرار من هذا السجن غير مستطاع يا كارتون ، وهو أمر لم يحدث قط ، ومن الجنون أن أحاوله ..

— هل طلبت اليك الفرار ؟ عند ما أسألك أن تتخطى هذا الباب فلتقل ان ذلك جنون ولتبق هنا .. والآن اخلع هذه السترة وارتد سترتى !

كان دارنى أشبه بالطفل فى يد سيدنى ، الذى كان بادى العزم والارادة ، فى حين كان هو مرتبكا لا يكاد يجزم بما اذا كان نائما أم يقظان !

— ولكن يا عزيزى كارتون .. انى لا أفهم شيئا !

— لا لزوم لأن تفهم . حسبك أن هذا ما تريده زوجتك

وعليك أن تطيعها فى رجائها الأخير اليك .

ــ انك مخطىء ، وستكون النتيجة أن تفقد حياتك معى ، اذ لا سبيل للفرار .

ــ هل سألتك يا عزيزى دارنى أن تتخطى هذا الباب ؟ عندما أفعل يمكنك أن ترفض. هناك قلم وورق على المنضدة ، فهل يدك ثابتة لتكتب ؟

ــ انها كانت كذلك قبل قدومك ..

ــ حاول أن تسترد ثباتك وأكتب ما أمليه عليك .. أسرع يا صديقى بربك ، أسرع ، افعل كما أقول .

جلس دارنى الى المنضدة وقد أسند رأسه الى يده ، بينما وقف كارتون بجواره وقد دس يمناه فى صدره .

ــ أكتب ما أمليه عليك بنصه .

ــ لمن أوجه الخطاب ؟

ــ لا توجهه لأحد . فقط أكتب كما أمليك .

فالتقط السجين القلم وتهيأ للكتابة .. فى حين استطرد كارتون : ((أكتب : انك لابد تذكرين الحديث الذى دار بيننا منذ زمن طويل ، فليس فى طبعك أن تنسى مثله ..))

وكان كارتون كأنما يمسك بشىء فى يده ، التى أخذت تتحرك ببطء الى أسفل وهو يملى :

ــ هل كتبت ((أن تنسى مثله)) ؟

ــ نعم ، ما الذى فى يدك ؟ سلاح ؟

ــ كلا ، فلست أحمل سلاحا !

ــ اذن فما هو ؟

ــ ستعرف بعد برهة ، أكتب : ((.. وأحمد الله لأن الفرصة قد حانت كى أنجز لك وعدى .. وانى لأفعل ذلك دون أدنى أسف أو أسى ..)) .

وفيما هو ينطق بهذه الكلمات تحركت يده فى بطء وخفة الى قرب وجه السجين .. فسقط القلم من بين أصابع دارنى

ونظر حوله فى ارتياب ..

ــ ما هذه الرائحة ؟

ــ رائحة ؟ لست أشم رائحة .. ليس هنــاك شىء على الاطلاق .. تناول قلمك وأكمل الخطاب ، أسرع ..

التقط السجين القلم ثانية وقد بدا كأنما يجد صعوبة فى تركيز انتباهه .. ونظر الى كارتون بعينين غائمتين ، لكنه عاد ينكب على الورق ..

وكرر كارتون عبارته الأخيرة : « دون أدنى أسف أو أسى » .. وقد عادت يده تتسلل الى أسفل فى خفة وبطء . ونظر الى القلم فى يد دارنى فرآه يسجل على الورقة علامات لا معنى لها .. ثم سقط القلم من يد دارنى ، وحاول أن ينهض ، لكنه كان قد فقد السيطرة على أطرافه .. فأسرع كارتون وطوق خصره بذراعه ثم ضغط الخرقة ــ باليد الأخرى ــ على أنفه وفمه .. فقاوم دارنى لبضع ثوان الرجل الذى جاء ليبذل حيــاته من أجله .. ثم سقط على الأرض فاقد الوعى !

وأسرع كارتون ــ دون أن يفقد هدوءه ــ بارتداء الثياب التى خلعها السجين ، ثم نادى بصوت هامس : « الآن تستطيع الدخول .. تعال » ، فدخل الجاسوس « بارساد » ، وابتدره كارتون : « أرأيت ؟ هل عرضتك لخطر ؟ » .

وركع كارتون بجوار صديقه ووضع الخطاب داخل سترته فى وضع يمكن معه العثور عليه !.. وقال الجاسوس فى قلق : « يا مستر كارتون .. لن يكون الخطر الذى أتعرض له كبيرا اذا وفيت بوعدك ! » .

ــ لا تخش شيئا من جانبى . سأكون مخلصا حتى الموت ! .. والآن ، هيــا ادع من يســاعدك على حمــل الرجل الى الخارج ، ولتقل لهم اننى لم أحتمل الانفعال الذى سـببه لى لقائى الأخير مع صديقى ــ ولن تكون هذه أول مرة يغمى فيها على انسان يودع صديقه الوداع الأخير ! ــ وحين تصل الى

حيث تنتظر الأسرة ، ضعه بنفسك فى العربة وقل لمستر لورى انه ليس فى حاجة الى أكثر من الهواء النقى .. وأطلب منه أن يتذكر كلماتى معه فى الليلة الماضية ، ووعده لى ، ثم دعه يرحل على الفور !

خرج بارساد من الزنزانة ، بينما اعتمد كارتون رأسه بين يديه .. ولم يلبث الجاسوس أن عاد وبصحبته رجلان .. فقال أحدهما وهو ينظر الى الجسم الملقى على الأرض : « لم يحتمل لحظات الوداع ، أليس كذلك ؟ لم يعجبه أن يلقى صديقه التحية على المقصلة ، ايه ؟ ! » .

وحملوا الرجل الغائب عن الصواب وخرجوا به .. وأغلق الباب ، وأدير المفتاح فى القفل ، وصار كارتون وحيدا .. فأخذ يرهف سمعه لعله يسمع صوتا غير عادى .. لكنه لم يسمع غير الأصوات المألوفة فى السجن .. لا صرخة .. ولا ضجيج !.. فبدأ يتنفس الصعداء ، وان ظل يصغى متوجسا حتى دقت الساعة الثانية .

وعندئذ سمعت أصوات كان يدرك معناها ، وكان مستعدا لها !.. فقد فتحت أبواب عديدة ، باب بعد الآخر ، وأخيرا فتح بابه هو ، وأطل منه سجان يمسك بقائمة فى يده . وقال له : « ايفريموند ، اتبعنى .. » فنهض كارتون وتبعه فى صمت الى حجرة كبيرة معتمة كانت مزدحمة بمسجونين جىء بهم لتوثق أذرعهم . كان بعضهم وقوفا ، وبعضهم جالسين . البعض يبكون ، والبعض يذرعون الحجرة قلقين .. لكن أكثرهم كانوا صامتين جامدين ، ينظرون الى الأرض نظرة ثابتة ..

ووقف سيدنى بجوار الحائط ، فى ركن معتم . وتوقف رجل كان مارا ، كأنما ليحييه ، ثم واصل سيره .. وبعد لحظات نهضت فتاة واتجهت اليه لتحادثه . كانت لها هيئة صبية صغيرة ذات وجه عذب نحيل ، شديد الشحوب . وقالت وهى تلمسه بيد باردة : « أيها المواطن ايفريموند . انى

حائكة ثياب بائسة كنت معك فى سجن (لافورس) » .

فغمغم متمالكا نفسه : « حقا . لقد نسيت تهمتك » .

— التآمر .. لكن الله يعلم اننى بريئة . وهل يعقل أن يفكر أحد فى التآمر مع مخلوقة ضعيفة بائسة مثلى ؟

كانت تبتسم وهى تتكلم ، ابتسامة حزينة ، بحيث تدافعت الدموع الى عينى كارتون !

— انى لست خائفة من الموت ، لأنى لم أرتكب ذنبا . فاذا كانت الجمهورية التى ستعمل حسنات كثيرة من أجل الفقراء ، تستفيد من موتى ، فانى أرغب فى الموت . ولكن كيف تكون من وراء موتى فائدة وأنا نفسى ضعيفة بائسة ؟!

فاض قلب سيدنى بالاشفاق وهو ينظر اليها ، ويستمع اليها .. فقد كانت آخر مخلوق يتحدث اليه على هذه الأرض !

— سمعت أنهم أطلقوا سراحك أيها المواطن ايفريموند ، وكنت أرجو أن يكون هذا صحيحا !

— لقد كان صحيحا .. لكنهم قبضوا على ثانية .

— اذا سمحوا لنا بأن نركب العربة متجاورين ، هل تعدنى بأن تدعنى أمسك بيدك ؟.. لست بخائفة ، ولكنى صغيرة وضعيفة ، وسيمنحنى ذلك شجاعة ..

ورفعت نحوه عينيها الصابرتين ، وفجأة .. لمح فيهما نظرة شك ، ودهشة !.. فأسرع يضغط يديها اللتين أضناهما العمل ، والجوع ، ولثمهما بطرف شفتيه .. فهمست له :

— أتموت بدلا منه ؟

— صه ! نعم .. ومن أجل زوجته وطفلته .

— أوه ، دعنى أمسك بيدك أيها الغريب الشجاع .

— صمتا ! لك ما تشائين أيتها الأخت المسكينة .. ستمسكين بها حتى النهاية !

الفصل الخامس والعشرون

وداع باريس

● كانت ظلال المغيب تترامى على أبواب السجن ، وأبواب المدينة .. وانطلقت عربة نحو أسوار باريس ، حتى بلغت بوابة المراقبة والتفتيش :

– من هناك ؟ أين أوراقكم ؟

وقدمت الأوراق للحارس ، فقرأها :

– « ألكسندر مانيت ، طبيب فرنسى » . أيكم هو ؟

– هذا هو .. هذا الكهل الضعيف العاجز .

– يبدو أن الطبيب ليس متمالكا عقله . ربما كانت « حمى » الثورة أكثر مما استطاع احتماله .

– أكثر بكثير مما استطاع احتماله .

– ها ! ان كثيرين يقاسون منها !.. « ولوسى ، ابنته ، فرنسية الجنسية » .. أين هى ؟

– هذه هى ..

– انها لوسى زوجة ايفريموند ، أليس كذلك ؟

– انها هى .

– آه ، ان ايفريموند مرتبط بموعد مع أخرى ! ولوسى الصغيرة ، ابنتها ، انجليزية الجنسية .. انها هذه ؟

– نعم .

– قبليني يا ابنة ايفريموند . الآن قد قبلت مواطنا صالحا من مواطنى الجمهورية . شىء جديد فى العائلة !

وبعد أن فحص الحارس أوراق الباقين أعادها اليهم قائلا :

– تستطيعون أن ترحلوا . انطلقوا .. أتمنى لكم رحلة طيبة !

لقد جاوزوا الخطر الأول !

وكانت المخاوف تسود ركاب العربة ، وكان الجو مشحونا

بالبكاء والانفعال ، وثمة أنفاس ثقيلة تنبعث من الراكب المغمى عليه فى الركن ..

وتساءلت لوسى : ((ألا نستطيع مضاعفة سرعتنا ؟)) .

فأجابها لورى : ((لو فعلنا لبدونا هاربين .. فضلا عن أن أحدا لا يطاردنا ، حتى الآن !)) .

وسرعان ما خلفوا باريس وراءهم وصاروا فى الريف ، مارين بأكواخ متناثرة هنا وهناك .. وطرقات رحيبة تحف بها أشجار أسقط الشتاء أوراقها .. ومزارع .. وأبنية خربة . وفى احدى مراحل الرحلة غيروا جيادهم .. ثم عبروا قرية ، وصعدوا تلا ، ثم هبطوه من الناحية الأخرى .. ومروا بسهل مبللة أرضه بالماء ..

وفجأة سمعت صيحة من الطريق : « أنت يا من فى العربة .. أجبنى ! » .

فتساءل مستر لورى وهو يطل من النافذة : « ماذا تريد ؟ » .

ـ كم عددهم اليوم ؟

ـ لست أفهمك !

ـ كم قدم للمقصلة اليوم ؟

ـ اثنان وخمسون .

ـ لقد قدرتهم كذلك . عدد لا بأس به .. لكن زميلى المواطن هنا حسبهم اثنين وأربعين . عشرة رءوس أكثر ! بديع .. انى أهوى المقصلة !

وهبط الليل .. وبدأ المسافر الذى عاد الى وعيه يقول فى انزعاج : « احذروا .. احذروا .. وانظروا اذا كان يطاردنا أحد ؟ » .

كانت الريح تندفع وراءهم ، والسحب تطير خلفهم .. ولكن فيما عداها لم يكن يطاردهم حتى تلك اللحظة أحد !

الفصل السادس والعشرون

شغل الابرة .. يبلغ ختامه !

● فيما كان الاثنان والخمسون سجينا وسجينة يقضون آخر ساعاتهم على الأرض ، كانت مدام ديفارج تتحدث الى صديقتها (الانتقام) والى جاك رقم (٣) ، فى كوخ الحطاب المواجهة لنافذة السجن . كان جاك رقم (٣) أحد المحلفين . وكان الحطاب ـ الذى كان يوما عاملا فى الطرق ـ قد انزوى جانبا عن الآخرين ولم يشترك فى الحديث الا حين كان يخاطبه أحد .

وقال جاك رقم (٣) : « لكن زميلنا ديفارج جمهورى مخلص ولا شك .. أليس كذلك ؟ » .

فصاحت (الانتقام) : « بل ليس فى فرنسا من يفوقه اخلاصا ! » .

فتصدت لها مدام ديفارج : « هدئى من حماستك يا صغيرتى . ان زوجى جمهورى مخلص بلا شك ، ورجل شجاع استحق شكر الجمهورية . لكن فيه ضعفا واحدا : هو عطفه على الطبيب ! » .

فقال جاك رقم (٣) : « انه شىء يؤسف له .. فالجمهورى المخلص لا ينبغى أن يشفق على أمثال هؤلاء ! » .

وعادت مدام ديفارج تقول : « اصغوا الى . انى لا أعبأ البتة بأمر هذا الطبيب .. وسيان عندى احتفظ برأسه أم فقده . لكن أسرة ايفريموند يجب أن تباد .. يجب أن تلحق الزوجة والطفلة برب الأسرة !

وقال جاك رقم (٣) معلقا : « ان لها لرأس بديع يناسب المقصلة .. لقد طالما رأيت هناك عيونا زرقاء وشعرا أشقر مرات كثيرة ، وكانت تبدو رائعة حين ترفع وتعرض على الجماهير ! » .

أطرقت مدام ديفارج بعينيها الى الأرض وشردت فى أودية أفكارها .. بينما استطرد جاك رقم (٣) وهو يستمرىء صدى صوته : « والطفلة أيضا لها شعر ذهبى وعينان زرقاوان .. ومن النادر أن نظفر بأطفـال للمقصلة . سوف يكون المنظر شائقا ! » .

ورفعت مدام ديفارج رأسها .. لقد وصلت الى قرار :

ـ الحقيقـة اننى فقدت الثقـة فى زوجى ، ولا أستطيع أن أعهد اليـه بهذه المسألة أو أطلعـه على تفصيلات خطتى . وأخشى لو توانيت أن يبادر الى تحذيرهم فيهربون !

ـ هذا ما يجب ألا يحدث ! يجب ألا يفر أحد ، فليست لدينا الكفاية من الرءوس للمقصلة . ينبغى أن تتوافر لنا مائة رأس كل يوم على الأقل !

ـ خلاصة القول ، أن زوجى ليس عنـده الدافع الذى عندى على تعقب هذه الأسرة حتى لا يبقى منها واحد على قيد الحياة !.. وأنا بدورى ليس لدى الدافع الذى يجعله يشفق على الطبيب . لذلك ينبغى أن أعمل منفردة فى هذا الموضوع .. تعال أيها المواطن الصغير !

كان الحطاب يشعر بأعمق الاحترام لمدام ديفارج ، فضلا عن أنه كان يخشاها ، فتقدم نحوها وقد رفع يده الى قبعته الحمراء محييا .. واذ ذاك ابتدرته المرأة : « هل أنت على استعداد لتأدية الشهادة اليوم بشأن تلك الاشارات التى كانت ابنـة الطبيب ترسـلها الى المسجونين عن طريق نافذة السجن ؟ » .

فصاح الرجل : « أجل ، بالتأكيد .. ولم لا ؟ انها كانت تقف هنـا كل يوم من الثانية حتى الرابعة ، أيا كانت حالة الطقس . وأحيانا كانت تحضر معها الطفلة أيضا . لقد رأيت ذلك بعينى » .

ـ اذن دعنـا نتدبر الأمر : هل أبقى على الطبيب اكراما

لزوجى ؟ الأمران سيان بالنسبة الى ، فهل أبقى عليه ؟ ما رأيكم ؟

ـ انه كان يشير الى المسجونين مع ابنته حين فاجأتهما ، ومن العسير أن نتهم الواحد ونترك الآخر . كلا ! فليأخذ نصيبه . لا أستطيع الابقاء عليه . اننا سنلتقى طبعا فى الساعة الثالثة لمشاهدة المقصلة وهى تطيح بأولئك الاثنين والخمسين .. فلنمض من هناك الى « سان انطوان » للتبليغ عنهما معا !

فقال الحطاب انه يسعده ويدعو لزهوه أن يرافق بدوره مدام ديفارج . لكن المرأة حدجته بنظرة برود ، فغض من بصره كالكلب الخجول ، وتراجع الى مقعده !.. واذ ذاك جمعت مدام ديفارج الآخرين حولها بقرب الباب وهمست لهم بخطتها : « ان لوسى مانيت لا بد تبكى الآن وتنتحب فى بيتها ، فى انتظار ساعة اعدام زوجها ، ولا شك أن حالتها هذه ستجعلها تتفوه بكلمات مهينة عن عدالة الجمهورية ، وتمالىء بعواطفها أعداء الوطن .. فلأذهب اليها الآن ! » .

فصاحت (الانتقام) وهى تحتضن صاحبتها فى حماسة : « يا لك من امرأة نبيلة وجمهورية مخلصة . أواه يا عزيزتى ، دعينى أقبلك ! » .. فأجابتها مدام ديفارج وهى تعهد اليها بأدوات شغل الابرة : « اليك ، احتفظى لى بهذه وأحضريها معك حين نلتقى فى مكاننا المألوف تحت منصة المقصلة . ولا تنسى أن تحجزى لى مقعدى ، هيا اذهبى الآن فسوف يكون الزحام شديدا » .

فقالت (الانتقام) وهى تقبلها مرة أخرى فى وجنتها : « يسرنى أن أطيع أوامر رئيستى .. انك لن تتأخرى بالطبع ؟ » .

ـ سأكون هناك قبل أن يبدأوا !

وانطلقت الى مهمتها الجديدة ، فصاحت صديقتها تلاحقها وهى تنحرف الى شارع آخر : « احرصى على الحضور قبل

أن تصل العربات .. لا تتأخرى يا عزيزتى .. تذكرى ، قبل أن تصل العربات ! » .

لوحت مدام ديفارج لها بيدها تطمئنها الى أنها قد سمعت وستكون فى مكانها فى الوقت المناسب ، ثم غذت السير بخطوات قوية حازمة .. **لم يكن بين نساء باريس جميعا امرأة يخشي الكل بأسها مثل مدام ديفارج ، فقد كانت لها شخصية قوية جريئة ، وضرب من الجمال يلفت النظر الى صفاتها . وكانت قد شبت تهدهد فى أعماقها احساسها القوى بالظلم وبالكراهية الشديدة للنبلاء . بل لقد جف من قلبها كل أثر ربما كان فيه يوما من الاشفاق أو الرحمة !..** لم يكن يعنيها فى شيء أن يموت رجل بريء من أجل شرور ارتكبها سواه .. ولا كان يعنيها أن تغدو زوجة من الزوجات أرملة ، وطفلة من الأطفال يتيمة !.. فكل ذلك فى نظرها أقل مما يكفى لاشباع تعطشها الى الانتقام !.. وكانت تحمل فى طيات ثيابها مسدسا محشوا ، وفى خصرها سكينا حادة ! .. وعلى هذه الصورة انطلقت مدام ديفارج بخطى ثابتة عبر الشوارع المؤدية الى مسكن أعدائها !

*

● فى تلك اللحظة كانت عربة تتجه نحو البوابة الشمالية ، مقلة شيخا انجليزيا ، وأما شابة ، وطفلتها ، وفرنسيا مسنا يبدو مضطرب العقل ، ثم شابا غائبا عن وعيه !.. وكان قد أعيا مستر لورى تدبير مكان للمربية « مس بروس » والساعى « جيرى كرانشر » ، فضلا عن حرصه على عدم اثقال العربة بما يعوق سرعتها ، وحرصه على الاقلال من عدد ركابها بحيث لا يتأخر فحص أوراقهم فى مختلف مراحل الطريق . ولما كانت كل دقيقة لها قيمتها التى قد تكون فاصلة بين الحياة والموت ، فقد دبر أن تتخلف مس بروس وجيرى كرانشر ليسافرا بعربة

تالية خفيفة وسريعة تلحق بهم خلال الطريق ثم تسبقهم كى يوصى راكباها المحطات التالية باعداد ما يلزم لتغيير جياد العربة الكبرى بمجرد وصولها .. وبذلك يمكن توفير كل لحظة يمكن توفيرها من الوقت الثمين .

وكانت مس بروس وجيرى قد رأيا العربة الأولى وهى تنطلق من الفناء ، وخمنا شخصية الراكب الغائب عن الوعى الذى أحضره بارساد فى آخر لحظة !.. وهكذا ، فيما كانت مدام ديفارج تغذ السير نحو مسكن الطبيب ، كان هذان الاثنان يتشاوران فى قلق عما يمكن عمله لتأمين وصول الركب الأول الى خارج البلاد .. فاقترحت مس بروس أن يتجنبا ركوب عربتهما من نفس الفناء الذى انطلقت منه العربة الأولى ، خشية اثارة الشكوك !.. ورحب جيرى بهذا التحوط الحكيم ، فاتفقا على أن يمضى هو الى مؤجرى العربة فيستقلها من هناك ، ثم ينطلق بها الى حيث تنتظره مس بروس أمام كنيسة (نوتردام) ، بعد أن تكون قد فرغت من اعداد أمتعتها .

ولم يكد جيرى يذهب حتى أخذت مس بروس تستعد للرحلة ، فملأت حوضا بالماء وبدأت تغسل وجهها من آثار البكاء الذى قرح أجفانها ، خشية أن تلفت اليها الأنظار والشبهات أثناء سيرها الى مكان اللقاء .. وفيما هى تجفف وجهها ، حانت منها نظرة الى الوراء ، فاذا هى ترى وسط الغرفة .. مدام ديفارج !

أطلقت المربية صرخة فزع ، بحيث سقط حوض الماء من مكانه فانكسر وسالت محتوياته حتى بلغت قدمى المرأة الرهيبة .. فنظرت مدام ديفارج اليها فى برود وسألتها :

ـ أين زوجة ايفريموند ؟

وأدركت المربية فجأة أن أبواب الحجرات جميعا مفتوحة ، فسارعت الى اغلاقها ـ كى توهم المرأة بأن القوم لم يرحلوا وتعوقها عن ملاحقتهم ! ـ ثم استندت بظهرها الى باب الحجرة

التى كانت تشغلها سيدتها لوسى .. واذ ذاك حدجتها مدام ديفارج بنظرة غاضبة ، جاوبتها الأخرى عليها بنظرة صارمة.. **كانت كلا المرأتين قوية العزيمة ، بطريقتها الخاصة ، وكما أكسبت الكراهية قلب المرأة الفرنسية جرأة ، أكسب الحب قلب غريمتها الانجليزية شجاعة !.. فقالت فى هدوء ونعومة : « برغم أنك أشبه بزوجة الشيطان نفسه ، فانك لن تظفرى منى بطائل .. فاننى امرأة انجليزية ! »** .

كانت مدام ديفارج تعرف جيدا اخلاص غريمتها لأفراد الأسرة ، ومس بروس تعرف عداء الأولى لهم !.. وضاقت هذه ذرعا بالمربية فقالت : « اننى فى طريقى الى مكان حجز لى فيه مقعدى ، وليس لدى وقت أضيعه .. أريد مقابلة زوجة ايفريموند ! » .. فأجابتها الأخرى : « أنا أعلم أن نواياك شريرة ! » .

كانت كلاهما تتكلم بلغتها الخاصة ، فلم تفهم احداهما قول الأخرى ، لكن كلا منهما فهمت جيدا نوايا غريمتها !.. وأردفت مدام ديفارج :

ـ لن ينفعها اختباؤها منى ، فدعينى أراها . اذهبى واخبريها أننى أود مقابلتها . أتسمعيننى ؟

ـ لست أتلقى الأوامر منك أيتها الأجنبية الشريرة .

ـ أيتها الخنزيرة الحمقاء ! انى أطلب مقابلتها ، فاما أن تخبريها بذلك أو تتنحى عن الطريق كى أذهب اليها بنفسى !

وتفرست كلاهما فى عين الأخرى بثبات ، وخطت مدام ديفارج خطوة الى الأمام .. فقالت الأخرى : « اننى انجليزية ، ولست أعبأ بما قد يحدث لى ، لكننى أعلم أننى بقدر ما أعوقك هنا ، يعظم أمل محبوبتى فى النجاة .. فاذا لمستنى مجرد اللمس فانى لن أدع فى رأسك شعرة واحدة من شعرك الأسود ! » .

وبلغ انفعال مس بروس حدا جعل دموعها تنهمر على

خديها ، فرأت ديفارج فى ذلك علامة على الضعف ، وقالت ساخرة : « ها ها ، يا لك من مسكينة . انك أقل شأنا من أن أنازلك ! سأنادى الطبيب » ثم رفعت عقيرتها صائحة : « أيها المواطن الطبيب .. يازوجة ايفريموند .. فليجبنى أحد .. أى شخص غير هـذه الحمقاء التعسة .. أجيبا المواطنـة ديفارج ! » .

لكنها لم تسمع ردا .. فلاحت فى عينيها نظرة شـك ، وهرعت تفتح كل باب فتطل منه .. وكانت الحجرات الثلاث خالية !.. وهتفت : « ان هذه الحجرات مقـلوبة رأسا على عقب . لقـد حزمـوا أمتعتهم ورحـلوا . افتحى الباب الذى وراءك ! دعينى أرى ما فيه ! » .

ـ أبدا !

ـ لقد تمرست بالنضال منذ البداية ، ولم يوقفنى يوما دون غايتى شىء .. فان لم تبتعدى عن هذا الباب فسأمزقك تمزيقا !

ـ نحن وحيدتان فى أعلى المنزل ، ولن تصل أصواتنا الى مخلوق .. وكل دقيقة أعوقك فيها هنـا لا تقـدر فى نظر لوسى بمال !

واندفعت مدام ديفارج صوب الباب ، فأمسكت بروس بخصرها وضغطت عليه .. وعبثا قاومتها مدام ديفـارج وضربتها ، فقد أمدها الحب بقوة عظيمة مكنتها من الثبات بل ومن رفع جسم غريمتها عن الأرض ، بينما راحت هذه تضرب وجهها وتمزقه ، حتى حنت مس بروس رأسـها .. ولـكنها استمرت تقاوم !

وأخيرا كفت الفرنسية عن الضرب وراحت تتحسس مكان مديتها ، فقالت بروس من بين أسـنانها : « ان المدية تحت ذراعى ، ولن تصلى اليها ! اننى بحمد الله أقوى منك ، وسأظل ممسكة بك حتى يغمى على احدانا وتموت ! » .

وازاء هذا مدت مدام ديفارج يدها الى صدر ثوبهـــا ، فتطلعت مس بروس الى حيث خرجت اليـد قابضـــة على مسدس !.. وفى مثل لمح البصر ضربت المربية السلاح ، فومض منه بريق ، تلاه انفجار .. وتلفتت مس بروس لتجد نفسها وحيدة ، وقد كادت تختنق بالدخان .. واذ انحسر الدخان ، بدا لو كان قد أخذ معه روح تلك المرأة الشريرة التى رقدت على الأرض .. فاقدة الحياة !

وفى غمـرة فزعها وارتياعها ، تراجعت مس بروس عن الجثة .. ثم انطلقت تهبط الدرج لتطلب النجدة .. لكنها لم تلبث أن أدركت خطورة ذلك بالنسبة لها ، فعادت أدراجها . وتحاملت على نفسها حتى تخطت ذلك الجسد المسجى على الأرض ، ثم تناولت قبعتها وحوائجها وأغلقت باب المسكن بالمفتـاح الذى معها .. وجلست على السـلم حتى التقطت أنفاسها .. وعندئذ هرعت الى الطريق وقد أخفت وجههـا بنقاب ، كى تخفى آثار الخدوش التى تخلفت عن المعركة !

وسارت تقطع الشوارع المؤدية الى مكان اللقاء . ثم عبرت النهر ووصلت الى كنيسة (نوتردام) . وبعد انتظار بضع دقائق رأت العـربة المرمـوقة قادمـة وقد أطل جيرى من نافذتها . وقبل أن تتوقف تماما كان بابها قد فتح وصعدت المرأة اليها ، واذ ذاك أطلقت تنهدة ارتيـاح وهى تغوص فى مقعدها بجوار جيرى .. وسألته : « هل فى الشـوارع أية ضوضاء ؟ » .. فبدت الدهشة على الرجل لهذا السؤال الغريب ، لكنه أجابها : « فيها الضوضاء المعتادة .. » .

ـ ماذا تقول ؟ لست أسمعك !

وعبثا كرر لها عبارته فقد عادت تسأله ، وهو يجيبها ، فتسأله نفس السؤال من جديد .. فحدث نفسه : « عجبا ، ماذا أصابها ؟ هل أصيبت بالصمم فى نصف ساعة ؟ » .

وقالت المسكينة : « أشـعر كما لو كان هنـــاك وميض

وانفجار . ويخيل الى أن ذلك الانفجار سيكون آخر صوت أسمعه فى حياتى ! » .

ـ ألا تسمعين صوت عربات الموت الرهيبة ؟

ـ ماذا تقول ؟ لست أسمع شيئا على الاطلاق !

ـ اذا كنت لا تسمعين صوت تلك العجلات وزئير الجماهير فى الميدان ، فأغلب ظنى أنك لن تسمعى شيئا على الاطلاق مدى الحياة !

وقد كان .. فان التعسة أصيبت بالصمم الكامل !



مدام ديفارج

الفصل السابع والعشرون

المقصلة

● كانت عربات الموت ماضية ببطء فى شوارع باريس . ست عربات تحمل قربان اليوم الى المقصلة ! وكانت عجلاتها وهى تدور أشبه بقلابات محراث يشق كتلا من الأجساد المتزاحمة فى الطرقات .. وكان بين راكبى العربات نفر ينظرون الى الطريق الذى يعبرونه لآخر مرة بعيون هادئة غير مكترثة .. والبعض الآخر بدوا مطرقين ، غارقين فى هوة اليأس الصامت .. والبعض تذكروا ما سوف يقال عنهم فرموا الجماهير بنظرات الاحتقار والغطرسة .

وكانت النسوة قد احتللن الصفوف الأولى من المقاعد القريبة من منصة المقصلة ، وانهمكن فى أشغال الابرة .. ودقت الساعة الثالثة ، فالتفتت فنجانس (الانتقام) حواليها حائرة ثم صعدت فوق مقعدها وأدارت بصرها بين صفوف الحاضرات .. وصاحت : « تيريز .. ألم ير أحد تيريز ديفارج ؟ » .. فقالت أخرى : « انها لم تتخلف يوما ! » وعادت فنجانس تقول : « ولن تتخلف اليوم . يستحيل أن تتخلف : تيريز .. تيريز ! » فاستحثتها احدى الحاضرات : « ارفعى صوتك أكثر ! » .

نعم ، فلترفعى صوتك أكثر يا فنجانس ! لكنها لن تسمعك !.. ولترسلى من تشائين للبحث عنها .. لكن أحدا لن يجدها !

وغمغمت فنجانس فى أسى : « يا لسوء الحظ ، لن يلبث دور ايفريموند أن يحل وهى لم تصل لتشهد نهايته ! » .

وبدأت العربات تفرغ شحناتها ، وبدأت المقصلة مهمتها .. فهبطت السكين ، ورفع أول رأس حصدته أمام المتفرجين .. فأحصت النسوة : واحد !.. ثم اثنين !.. وثلاثة !.. وكلما

رفع رأس أحصين رقمه ، ثم عدن الى شغل الابرة !.. وهبط ايفريموند المزعوم من العربة وأعان حائكة الثياب التعسة على النزول ، وكانت لا تزال ممسكة بيده ، ثم أجلسها على حافة المنصة وظهرها الى أداة الموت التى لا تفتأ ترتفع وتنخفض ، فرفعت عينيها اليه وشكرته : « لولاك أيها الغريب الشهم لما استطعت أن أبدو هادئة هكذا .. ان السماء قد أرسلتك الى ! » فأجابها : « أو أرسلتك أنت الى .. أنظرى الى يا طفلتى العزيزة ولا تفكرى فى شىء ! » .

ـ لست أبالى بشىء ما دمت ممسكة بيدك . ولن أبالى بشىء حين أتركها ، لو أسرعوا فى مهمتهم !

ـ سوف يسرعون .. لا تخافى !

وقبلته ، وقبلها .. ثم بارك كلاهما الآخر .. ولم ترتعد اليد الصغيرة وهو يفلتها من يده ! وكانت تلوح على وجهها مسحة عذبة من الصبر الجميل ..

لقد جاء دورها .. وأحصت النسوة : « اثنان وعشرون » .

وتبعها ايفريموند .. فارتفعت آلاف الأبصار ، وضجت آلاف الحناجر ، وأحصت آلاف النساء : « ثلاثة وعشرون ! » .

وقالوا عنه فى المدينة ، ذلك المساء ، انه كان أكثر الوجوه التى رأوها اطمئنانا وسكينة !.. ولو نطق كارتون لحظتئذ بما يدور فى رأسه ، لسمعوه يقول :

« انى أرى بارساد ، وكلاى ، وديفارج ، والقاضى ، وصفوفا طويلة من الرجال القساة ، يموتون يوما تحت هذه المقصلة نفسها ، قبل أن تكف عن مهمتها .. أرى مدينة جميلة تنهض على أنقاض هذا المكان المخيف .. وأرى هذا الشر العظيم يختفى بالتدريج !

« أرى النفوس التى من أجلها بذلت نفسى : آمنة ، نافعة ، وسعيدة ، فى ذلك الوطن الذى لن أراه أبدا !.. أرى لوسى وعلى صدرها طفل أطلقت عليه اسمى !.. وأرى والدها

مسنا محدودب الظهر ، ولكن مستمتعا بالسلام والخير ..

« أرى لوسى امرأة عجوزا تبكينى كلما ذكرت هذا اليوم .. أراها وزوجها بعد موتهما يرقدان جنبا الى جنب فى فراشهما الأرضى الأخير ، وأعلم أن كلا منهما لم يكن مكرما فى نفس صاحبه بأكثر مما أنا مكرم فى نفس كليهما !

« أرى الطفل المستكين على صدرها - والذى يحمل اسمى - وقد غدا رجلا .. انه يشق طريقه فى الحياة ، فى نفس الدرب الذى سرت فيه .. أراه يشقه بنجاح رائع ، يجعل اسمى مشهورا على ضوء شهرة اسمه !.. أراه يحمل طفلا ذهبى الشعر الى هذا المكان ، وأسمعه يقص على طفله قصتى ، بصوت يسيل رقة ..

« ان ما أفعله الآن لخير بكثير من كل مافعلت فى الماضى .. وان الراحة التى أنا ماض اليها لخير بكثير من اية راحة عرفتها فى حياتى ! » .

« تمت »

دراسة وتحليل للرواية ..

عزيزى القارىء ..

والآن ، وقد فرغت من قراءة هذه القصة الخالدة ، فى طبعتها العصرية ، أحسبك مشوقا الى أن تعرف المزيد عن كل ما يتصل بموضوعها : العصر الذى دارت فيه أحداثها ، والأمكنة التى شهدت تلك الأحداث ، والأوضاع التى كانت تسود هذه الأمكنة ، وحياة النـاس فيها ، وتطورات هذه الأوضاع ، ثم .. نقوم بجولة نستعرض فيهـا شخصيات الرواية وأحداثها ، بمزيد من التحليل الذى يلقى الأضواء على كافة جوانبها ، ويساعدك على استيعابها استيعابا تاما ..

ولنبدأ بالتعرف على « المدينتين » اللتين تدور فيهما أحداث القصة ـ وهما : لنـدن وباريس ـ فى العصر الذى اختاره « ديكنز » لهذه الأحداث .

لندن .. والأوضاع فى انجلترا

كانت لندن ـ فى سنة ١٧٧٥ ـ مدينة آخذة فى النمو السريع ، لا يتجاوز عدد سكانها ٨٠٠ ألف نسمة ، (أى أقل من ١٠ فى المائة من عدد سكانها اليوم !) .. وكانت تضم عددا كبيرا من التجار وملاك العقارات الأغنياء ، وطبقة متوسطة تنمو وئيدا فى العدد والثروة والمكانة .. ولكنهـا كانت تضم عددا أكبر من الفقراء ، يعيشون فى بيوت غير صحيـة ، وفى شوارع ضيقة قذرة .. ويمارسون العمل ـ اذا وجدوه ـ فى أسوأ الظروف ، وبأضأل الأجور .

مثل هذه الظروف كانت كفيلة بأن تولد الجريمة ، سيما وان لندن لم تعرف جهازا للبوليس المنظم ـ بالمعنى المعروف اليوم ـ قبل سنة ١٨٢٩ . فاذا ظهرت بوادر عنف وشغب ، كانت السلطات تستعين بجنود الجيش . وكان العقاب قاسيا

ـ فقد يعدم المرء شنقا جزاء سرقة تافهة القيمة ! ـ وحتى سنة ١٨٦٨ ، كان الشنق يتم علانيــــة .. وكانت السجون مباءات للقذارة ، والأمراض ، والفساد .. ولم تكن غايتهـــا الأصلاح والتهذيب ، بل كان هدفها الانتقام والتعذيب !

وكانت انجلترا ـ فى ذلك الحين ـ دولة ملكية ديموقراطية ، ولكن ديموقراطيتها كانت مجرد اسم ، أكثر منها فعلا . كانت سلطة الملك محدودة مقيدة ، بفضل الحقوق التى اكتسبها البرلمان خلال القرن الســابع عشر ، عنــدما قامت الحرب الأهلية ، وخلع الملك « جيمس الثانى » عن العرش .. ولكن حق الانتخاب ظل مقصورا على أبناء الطبقات الراقية ، وكانوا قلة اذا قيسوا بأبناء الطبقات الوسطى والدنيا ، الذين لم يكن لهم ـ فى الواقع والحقيقة ـ رأى فى شؤون الحكم والحكومة .. وكان الملك لا يكاد يفهم اللغــة الانجليزية ، اذ أن الأسرة المالكة ـ فى تلك الحقبة ـ كانت من أصل ألمـــانى ، فقد كان « جورج الأول » (جد هذه الأسرة) يحكم (هانوفر) قبل أن يرفع الى عرش انجلترا .. ومن ثم كان « جورج الثالث » ـ الملك الجالس على العرش فى فترة أحداث القصة ـ يعتمــد على مشورة وزرائه ، فكانوا هم الحكام الحقيقيين للبلاد .

وفى ذلك العهـــد أيضا ، فقدت انجلترا مستعمراتهـــا الأمريكية ، بعد حرب كبدتها الكثير من الأموال والأرواح ، وأدت الى اشتباكها فى حروب أخرى ـ فى اصقاع متباعدة من العالم ـ من جراء تدخل فرنسا وهولندا فى حرب الاستقلال الأمريكية ، وانحيازهما الى أهل المستعمرات ..

وهكذا كانت انجلترا فى حرب مع فرنسا ، عنــدما كانت الملكية قائمة فى هذه الأخيرة . فلما انفجرت الثورة الفرنسية ، لقيت استهجانا ـ قارب العداء ـ من جانب الملك والحكومة والطبقة الراقية فى انجلترا ، خشية أن تنتقل العـــدوى الى الجانب الغربى من القنال الانجليزى ـ أو « المانش » ـ أى

الى انجلترا . ولكن كثيرين من أبناء الشعب الانجليزى كانوا يعرفون ما بلغ اليه الحكم الملكى فى فرنسا من فساد ، وظلم ، وقسوة ، فرحبوا بالثورة .. ولكن قيام « عهد الارهاب » وما صحبه من عنف وفظائع ، أخمد الكثير من عطف عامة الشعب على الثورة ..

ثم تطورت الحوادث ، فلم تلبث الحرب أن عادت بين انجلترا وفرنسا فى عهد الثورة ، كما كانت – من قبل – بين انجلترا وفرنسا الملكية ..

باريس .. والأوضاع فى فرنسا

* **ولم** تكن حال باريس – ثانية المدينتين – بأفضل من حال لندن ، فى الحقبة التى اختارها « ديكنز » .. بل انها كانت – فى الواقع – تفوقها سوءا بكثير .. اذ كان للنبلاء ، ورجال الدين ، والطبقات الراقية نفوذ أعظم وأقسى ، وكانت نسبتهم الى الشعب الفرنسى تفوق نسبة أمثالهم – فى انجلترا – الى الشعب الانجليزى ، فضلا عن أن البرلمان الفرنسى كان معطلا ، لم يجتمع منذ سنة ١٦١٤ ، فكانت السلطة المطلقة فى يد الملك ، الذى كان تحت نفوذ وزراء ومستشارين لم يهتموا بغير مصالحهم الخاصة !

وهكذا كانت أغلبية الشعب الفرنسى مهضومة الحقوق . وكان الفلاحون يعانون أقسى ألوان الشظف والظلم والحرمان، ولم يكن لهم أى رأى فى شؤون الحكم ..

وكانت الطبقات الوسطى والدنيا ترزح تحت عبء الضرائب التى تدفعها للدولة ، والجزية التى كان يفرضها الاقطاعيون وأصحاب الامتيازات .. حتى لقد كانت – وهى أقل الطبقات دخلا – تدفع مالا يقل عن ٨٠ فى المائة مما تكسب .. بينما كان النبلاء ورجال الحكم والكنيسة يعيشون فى نعيم ، ولا يدفعون للدولة شيئا من ايراداتهم !

ولم تكن الأوضاع السياسية والاجتماعية للطبقات الوسطى والدنيا – فى فرنسا – بأفضل من الأوضاع الاقتصادية : فكانت محرومة من كل إصلاح لأحوالها ، ومن كل فرصة للتقدم ، ومن كل انصاف .. بل ان القضاء الفرنسى ذاته لم يكن يتيح حماية ما لأبناء هذه الطبقات ، حتى لقد كانت ثمة خطابات مطبوعة ، ومختومة بخاتم الملك ، تباع لكل قادر على دفع الثمن ، ليكتب عليها اسم من يبغى التنكيل به ، فيلقى بهذا المسكين فى السجن دون محاكمة .. لأمد غير محدود !

ولم يكن لهذه الطبقات نسبة تذكر بين أعضاء الهيئات النيابية الاقليمية ، والبرلمان – الذى ظل موقوفا عن الاجتماع حوالى ١٧٥ سنة ! – كذلك لم تكن أمام أبناء هذه الطبقات أية فرصة للوصول الى المناصب العليا فى الحكومة والجيش والأسطول والكنيسة ، اذ كانت هذه المناصب وقفا على النبلاء وأبناء الطبقات الراقية وحدهم .. بالرغم من أن الطبقات الوسطى فى فرنسا كانت أفضل تعلما ، وأكثر تنورا ، من زميلاتها فى الدول الأخرى ..

لهذا كان من الطبيعى أن يحقد أبناء هذه الطبقات على نظام لا يعترف بهم اطلاقا ، ولا يتيح لهم الفرص للرقى بأوضاعهم ، فظهر منهم كبار رجال الفكر – أمثال روسو ، ومونتسكيو ، وفولتير – الذين نشروا مبادىء الحرية والاخاء والمساواة ، فجاوز نفوذهم الفكرى فرنسا ، وانتشر فى أوربا بأسرها ، وامتد الى مختلف أرجاء العالم .. **ومن ثم كان انفجار الثورة الفرنسية راجعا الى جهود أبناء الطبقات الوسطى ، أكثر مما كان راجعا الى الفلاحين وأبناء الطبقات الدنيا ، الذين كانوا منسحقين تحت وطأة المظالم ، مما يفسر تطرف اندفاعهم – عندما بدأت الثورة – وجنوحهم الى العنف والقسوة .** فكان اجتياح سجن « الباستيل » رمزا للقضاء

على الظلم والجور وانعدام العدالة ـ سيما وانه كان مستودع المسجونين السياسيين ـ وأعقبه اجتيــاح قصور وحصون النبلاء ، ثم الثورة الشاملة ، التى لم يلبث المتطرفون ـ دعاة التغيير السريع بالعنف ـ ان سيطروا عليها ، وأقاموا « عهد الارهــاب » فترة .. فلم يهـدأ العنف الا عندما أعـدم « روبسبيير » فى سنة ١٧٩٤ .

***

على هذه الأضواء التاريخيــة ، نستطيع أن نلمس سر اختيار « تشارلز ديكنز » لعنوان الرواية : « قصة مدينتين » .. فهو يعرض قصة لندن وباريس فى فترة من أحرج فترات تاريخهما ، ليقارن بين أحوالهما ، وعاداتهما ، ومعاييرهمـا السياسية والأخلاقية ، وتجاربهما .. ولعله كان يهدف الى أن يستمد من الأحداث التى اكتنفت احداهمـا ـ باريس ـ نذراً لتنبيه الثانية .. وقد لا نملك أن نجزم بأن هـذا كان هدفه الرئيسى ، ولكنا نستطيع أن نلمسه خلال القصة كلها ..

لهذا يعتبر الكثيرون أن « قصة مدينتين » هى القصـة التاريخية الأولى ـ أو بالأحرى الوحيدة ـ لتشارلز ديكنز .. بينما يعتبرها آخرون الثانية بعد روايته الأخرى التى أطلق عليها اسم « أحداث جسام » Great Expectations

.. بعد هذه الأضواء التاريخية ، تعال ننتقل الى القصة وأحداثها وشخصياتها . ولكى نتذكر ما قرأنا ، نبـدأ بهـذا التلخيص :

محور القصة

يسافر « مستر لورى » مع « لوسى مانيت » الى باريس حيث كان والد الفتاة ـ الدكتور مانيت ـ فى حانة « ديفارج » وقد فقد ذاكرته لفرط ما لقى من عذاب فى سجنه الطويل ، فى (الباستيل) . وينقلان الطبيب التعس الى لندن ، حيث

تتوفر « لوسى » على العناية به ، وحيث تغدق عليه حبها وحدبها ، فلا يلبث أن يتماثل للشفاء .

وتدعى « لوسى » و « لورى » الى المحكمة لأداء الشهادة ضد « تشارلز دارنى » ـ الذى كان بين ركاب السفينة العابرة للقنال الانجليزى (المانش) ـ بعد أن اتهم بالخيانة العظمى . ويتصادف وجود محام خامل فى المحكمة ، هو « سيدنى كارتون » ، يذهل لفرط الشبه بينه وبين المتهم ، فيلهمه ذكاؤه وسرعة بديهته الى أن يستغل هذا الشبه فى تحطيم الادعاء وشهادات الشهود . ويفلح « كارتون » فى خطته ، فتقضى المحكمة بتبرئة ساحة « دارنى » .

ومع أن «دارنى» كان ـ فى الواقع ـ نبيلا فرنسيا ، فانه يسعى لكسب عيشه بالعمل فى انجلترا ، لأنه كان يكره مظالم النبلاء فى فرنسا ، وفى طليعتهم أهله !

ويقع « تشارلز دارنى » فى حب « لوسى » ، ويتفقان على الزواج .. وكم تكون صدمة الدكتور مانيت ، عندما يصارحه « دارنى » بحقيقة أصله ، وبأنه كان نبيلا فرنسيا يدعى « شارل مركيز سانت ايفريموند » .. أى أنه سليل أسرة « ايفريموند » ، التى كانت سبب مصائبه وسجنه فى (الباستيل) ! ..

.. ذلك أن أسرة « سانت ايفريموند » كانت من أقسى وأعتى الأسر الاقطاعية فى فرنسا ، حتى لقد احتجز والد « تشارلز » وعمه طبيبا ـ هو الدكتور « مانيت » ـ ليعالج امرأة اختطفاها وعذبا زوجها بقسوة ، بعد أن كانا قد تسببا فى وفاة أبيها ، ثم لم يلبثا أن جرحا أخاها .

ولكن المرأة ماتت ، وتكشفت هذه الحقائق للطبيب ، فرفعها الى وزير العدل .. فكان جزاؤه أن سجن فى (الباستيل) ـ بحكم نفوذ الأسرة ! ـ بينما تزوج خادمه « ديفارج » من أخت المرأة المتوفاة ـ وكانت تدعى « تيريز »

ـ وراحا يعيشان على دخلهما من حانة افتتحاها فى باريس ، وهما يغذيان كراهيتهما للأوضاع السائدة .. وكانت « تيريز » أشد من زوجها حقدا ، وأكثر ميلا الى العنف ، فى كراهيتهـا للنبلاء ، ولآل « سانت ايفريموند » بالذات !

كل هذا الماضى ، يتذكره الدكتور « مانيت » .. ولكن حبه لابنته ، وشعوره بأن سعادتها فى زواجها من « تشارلز » ، يحملانه على أن يقر زواجهما ، بعد أن يلح على الشاب بألا يطلع أحدا قط على حقيقة شخصيته !

وفى الوقت ذاته ، يكون « سيدنى كارتون » قد أحب « لوسى » هو الآخر ، ولكنه يدرك أنه غير أهل لها ، فيعدها بأن يجود بحياته « فى سبيل من تحبين » اذا دعت الضرورة .. ويقنع بأن يكون « صديقا » للأسرة !

وتقوم الثورة فى فرنسا ، ويبرز « ديفارج » فى أحـداث أجتياح (الباستيل) ، كما تبرز زوجته « تيريز » فى أعمـال العنف والقسـوة التى تحولت الى ما أطلق عليـه « عهـد الارهاب » ..

وتنتقل الشخصيات تباعا الى باريس : « مستر لورى » ، ثم « تشارلز دارنى » الذى يذهب لانقاذ خادم لأسرته ، فيقبض عليه ويسجن كواحد من النبلاء .. ويخف الدكتور مانيت ولوسى الى باريس ، فيسعى الطبيب حتى يحصل على قرار باطلاق سراح زوج ابنته السجين . ولكن « تشارلز » يتعرض لمحاكمة أخرى ، وتشاء سخرية القدر أن تكون أداة إدانته ، هى اليوميات التى كان يكتبها الدكتور مانيت ، أثناء سجنه فى الباستيل .. إذ كانت « مدام ديفارج » قد حثت زوجها على البحث عنها ، عند اقتحام السجن .. وفى هـذه اليوميات ، روى الطبيب جرائم آل « سانت ايفريموند » ، وذكر كيف أن عداء عم « تشارلز » له ، هو الذى طوح به الى السجن !

وتقضى محكمة الارهاب على « تشارلز » بالاعدام ..

وهنا ، يخف ((سيدنى كارتون)) ليبر بوعده للوسى ، بأن يسعى لانقاذ حياة ((تشارلز)) ، ولا يضن بحياته فى سبيل ذلك . واعتمادا على ما بينهما من شبه كبير ، يحل ((سيدنى)) محل ((تشارلز)) بين المحكوم عليهم بالاعدام !

وبينما يتولى مستر لورى تهريب لوسى وزوجها وأبيها الى انجلترا ، يواجه « سيدنى » مصيره ، ويتقدم الى « الجيلوتين » بشجاعة فذة !

* * *

هذا هو المحور الرئيسى ، الذى نسج « ديكنز » حوله القصة ، وكساه بايضاح واف للظروف والأحوال التى كانت سائدة فى الوقت الذى اختاره ، ودعمه ببعض الشخصيات الثانوية التى ابتدعها لتساهم فى إبراز ما الهمه به خياله ، فى صورة واقعية ، كما دعمه ببعض الأدوار التى ابتكرها لتساند الأحداث ، أو تمهد لها ، أو تربط بعضها ببعض .

فتعال الآن نتعرف على أهم الشخصيات الرئيسية ..

تحليل للشخصيات الرئيسية

● **الدكتور مانيت :** طبيب أدت به مشاعره الانسانية الى أن يجلب على نفسه نقمة احدى الأسر النبيلة الفرنسية ، مما انتهى به الى (الباستيل) . وعانى من قسوة ظروف السجن ما أنهك صحته ، وما أفقده ذاكرته . ولكنه لا يلبث أن يتعافى بفضل رعاية ابنته وحبها ، وان ظل معرضا لنكسات الذاكرة كلما تعرض للشدائد . على أنه كان — فى غير أويقات النكسات — شديد الذكاء ، قادرا على تفهم الأمور . وهو فوق هذا — وقبل كل شىء — أب صادق الأبوة ، شديد الشغف بابنته ، ولهذا يتقبل « تشارلز دارنى » زوجا لها ،

عندما يتبين حبها له ، حتى بعد أن يعلم أنه ابن الأسرة التى كانت سبب بلائه وسجنه !

● **لوسى مانيت** : ابنة الطبيب . بارعة الجمال ، تجذب القارىء — خلال الرواية كلها — بلطفها ، ورقة مشاعرها ، وكرم نفسها ، وحسن تمييزها للأمور ، مما يجعلها تدرك حقيقة شخصية « سيدنى كارتون » ، وتفهم حقيقة عواطفه . وبرغم أنوثتها ، فانها شجاعة ، لها من القوة ما يمكنها من معالجة أى موقف بمجرد قيامه . وبقدر وفائها لمن تعتز بهم — وهم : أبوها ، وزوجها ، وسيدنى كارتون ، ومس بروس ، خادمتها — فانها أوتيت ما يؤهلها لأن تكتسب أعظم قدر من وفائهم لها .

● **جارفيس لورى** : موظف مسن ، عمل سنوات طويلة فى مصرف « تيلسون » ، فأصبح مثالا للمصرفيين فى حذرهم ، ودقتهم ، ولباقتهم ، وحسن تصرفهم . وهو محافظ ، مقتصد فى علاقاته ونشاطاته الاجتماعية ، ولكن هذا لم يمنعه من أن يكون صديقا حميما ونافعا للدكتور مانيت وابنته ، ومن أن يكون قادرا — فى كل وقت — على أن يقدم الرأى الصائب ، والمشورة الطيبة . وهو كريم النفس الى أقصى حد ، حتى أنه يسعى لفعل الخير فى كل وقت ، ومهما يتكبد فى سبيل ذلك . اذ أن آلية عمله لم تطغ على انسانية مشاعره وفطرته . وهو أعزب ، ولكن هذا لم يمنعه من أن يولى « لوسى » أسمى مشاعر الأبوة . ومع أنه يعتقد بأنه هياب ، فانه فى الأزمات شجاع ، مقدام .

● **تشارلز دارنى** : فرنسى من النبلاء : يدعى « شارل سانت ايفريموند » ، يهجر وطنه وأسرته الى انجلترا ، ويغير اسمه ، لأنه لا يرضى عن مظالم النبلاء فى فرنسا .. ويفضل السعى لكسب عيشه بالعمل فى بلد أجنبى ، على المطالبة بميراث تجمع من حرمان الغير والاستبداد بالضعفاء ! ..

وهو رجل موفور الرجولة ، كريم النفس ، لطيف الطباع ، طيب القلب ، ذو نزعة خيالية . وفوق هذا كله ، فهو شجاع تتجلى شجاعته فى إقدامه على السفر الى فرنسا لانقاذ خادم لأسرته ، برغم علمه بما يكتنف وجوده هناك من أخطار .. كما تتضح شجاعته فى صموده للمصائب . وتوحى كل صفاته بأنه ما كان ليسمح لسيدنى كارتون بأن يضحى بحياته بدلا منه ، لو أنه فطن الى ما دبره « سيدنى » .

● **سيدنى كارتون** : محام لندنى ، قدير ولكنه خمول . وهو أكثر شخصيات الرواية تعقيدا . فهو شديد الشبه بتشارلز دارنى فى الشكل ، ولكنه — على النقيض منه — مهمل فى مظهره ، مقصر فى طموحه ، يؤثر الخمول على العمل ، ويسرف فى احتساء الخمر . على أنه شديد الذكاء ، قوى الملاحظة ، سريع البديهة والادراك ، وان لم يستغل هذه الصفات فى رفع شأنه . وهو يدرك حق الادراك قدراته ومؤهلاته ، ولكنه قانط ، ضعيف الثقة بنفسه ، ولعل هذا راجع الى أنه منى بفقد والديه فى سن مبكرة . على أنه عندما يقع فى حب « لوسى » ، يتحرر من قنوطه وخموله ، ويثبت مقدرته على المجهود الذهنى ، وعلى الاقدام على أمور كثيرة مفيدة ، وعلى نبذ الخمر لينصرف الى العمل الجاد ، وعلى التضحية فى سبيل حبه ، وفى سبيل الغير .. حتى أنه ينسى محنته — أمام « الجيلوتين » — ليخفف عن حائكة ثياب بائسة ، كانت مسوقة مثله الى المصير البشع !

● **ارنست ديفارج** : ويدعى — أحيانا — « جاك » .. صاحب حانة لبيع الخمور فى باريس ، ومثال لذلك الصنف من الرجال الذى دفعته الظروف لتزعم الثورة الفرنسية . كان — فى صباه — خادما للدكتور مانيت . صلب وخطير ، لا سيما إذا انساق لنفوذ زوجته ، وغالبا ما ينساق !.. ولكنه — فى قرارة نفسه — طيب القلب ، عطوف ، كما يتجلى من

موقفه بالنسبة للدكتور مانيت . ومع أنه يقوم بدور كبير فى الثورة ، فانه ليس قاسيا فى حقده ، عنيفا فى بطشه ، مثل زوجته . ويلاحظ أن انسياقه لهذه الزوجة ، ينبعث عن اعجاب بمقدرتها وكفاءتها .

● **مدام ديفارج :** زوجة ارنست ديفارج ، ومن ضحايا أسرة « سانت ايفريموند » الاقطاعية ، التى ينتمى اليها « تشارلز دارنى » ، لهذا فان حقدها على النبلاء عامة ، وعلى هذه الأسرة بالذات ، جعلها ماكرة ، خبيثة ، حاقدة ، تدبر للانتقام ، حتى قبل قيام الثورة . واذ يبدأ النضال للخلاص من الظلم والطبقات الجائرة ، تبرز فى المقدمة كزعيمة للنساء ، وتتجلى قسوتها الانتقامية ، وجبروتها الذى لا يرحم ، وتفرض سلطانها على كل من يتصل بها ـ لا سيما زوجها ـ كما تفرض رأيها فى حركات العنف ، فتسوق الآلاف الى المقصلة ، ولا ترحم من يقع فى طريقها !

● **مس بروس :** قد لا تعتبر من الشخصيات الرئيسية ، ولكنا نضيفها الى هذه الشخصيات ، لأنها النقيض المقابل لشخصية مدام ديفارج . وهى خادم شديدة الحب والولاء للوسى مانيت ، حتى لتكاد تعبدها . قوية البنية ، تبدى القسوة وان لم تكن قاسية .. ولعل السبب فى ذلك يرجع الى صراحة تدفعها الى أن تقول كل ما بنفسها ، وأن توضح آراءها دون مواربة .. والى أنها ربطت حياتها بحياة « لوسى » ، فاذا بهذا الارتباط يملى عليها مسلكها نحو العالم الخارجى . هذا الى جانب أنها أوتيت جرأة وشجاعة فى الأحداث الجسام ، جعلتاها أكثر من ند لمدام ديفارج ، ودفعتاها لأن تكون على استعداد لأن تحارب كاللبؤة الضارية فى سبيل حماية « لوسى » . فهى لا تفكر فى نفسها ، بقدر ما تفكر فى « لوسى » كأمانة فى عنقها . والهم الأكبر ، الذى يعكر عليها صفو حياتها ، هو أخوها « سولومون بروس » السىء

السمعة ، الذى يعمل جاسوسا ومخبرا سريا .. ولكنها تحبه برغم ذلك .

* * *

والآن ، وقد استعرضنا أهم الشخصيات الرئيسية فى الرواية ـ بعد أن قرأناها ، ثم استرجعنا صورها ـ نرى أنفسنا أمام سؤال ، لا ينبغى أن نتجاهله :

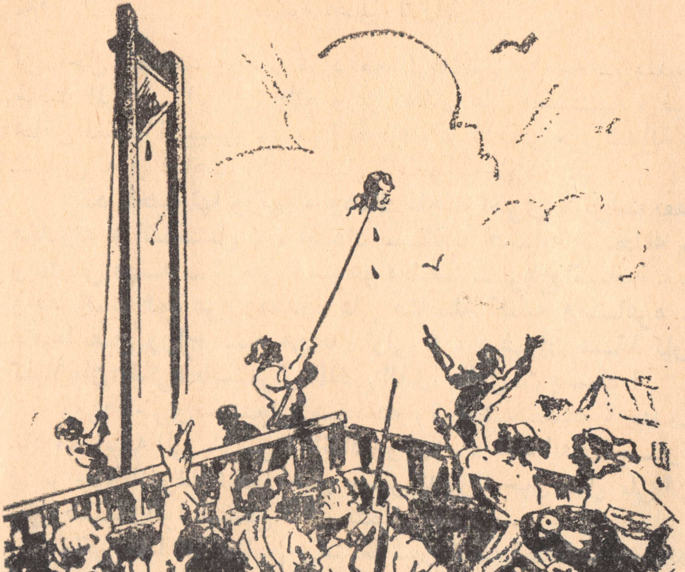
من هو البطل الحقيقى للرواية ؟

● من سياق القصة ، نجد أن البطولة تظل متأرجحة ـ حتى تبلغ الفصول الختامية ـ بين « الدكتور مانيت » و « تشارلز دارنى » ..

ولكن التعمق فى دراسة الشخصيتين ، للمفاضلة بينهما ، يكشف لنا عن أن أيا من الرجلين ـ الطبيب ودارنى ـ لم يؤت المؤهلات الكاملة للبطل الحقيقى ، وان أوتى بعضها ..

وفجأة ، وفى الفصول الختامية ، يدفع « ديكنز » شخصية « سيدنى كارتون » ـ التى لم تظهر الا فى المرحلة الوسطى من القصة ، وكانت فى معظم فصولها خاملة ـ فاذا بها تنشط ، وتلمع ، وتطغى على غيرها ! .. فتصبح البطولة مؤرجحة بين الثلاثة : الدكتور مانيت ، وتشارلز دارنى ، وسيدنى كارتون :

أما الدكتور مانيت ، فلا إنكار فى أنه أوتى قدرا من خصال البطل ومؤهلاته : فقد كان ـ فى شبابه ـ طبيبا قادرا ، ذا كفاءة ، وانسانا رحيما أمينا .. وعندما احتجزه الأخوان « سانت ايفريموند » ـ والد تشارلز دارنى وعمه ـ لعلاج المرأة التى اختطفاها ونكلا بزوجها ، ثم لعلاج أخيها الذى جرحه عم « تشارلز » بسيفه ، وجد نفسه أمام أعمال اجرامية .. فرفض المال الذى عرضه عليه النبيلان ، وأخذ يبذل قصارى وسعه ـ كأى انسان رحيم ، وطبيب نزيه ـ



المقصلة (الجيلوتين) تطيح بالرقاب !

من أجل الضحيتين .. ثم دفعه الاخلاص لواجبه ــ عندما ماتت المرأة ــ الى أن يطلع وزير العدل على القضـية ، غير حافل بمكانة النبيلين .. فاذا نفوذهما ــ الأقوى من العدالة ! ــ يلقى به فى غياهب (الباستيل) سنوات طويلة .

هذه ناحية لها وزنها . وهناك ناحية أخرى ، تجلت بعد مغادرته (الباستيل) ، اذ عاد يستأنف حيـاته بشجاعة ، ويمارس مهنته ــ فى حى (سوهو) بلندن ــ بروح انسانية .. ولقد أثبت قوة عزم ومقدرة على مناضلة نفسه ومشاعره ، عندما تقبل زواج ابنته من « دارنى » ، برغم أن هـذا كان كفيلا بأن يذكره باستمرار الماضى الذى حاول أن ينساه !

ومرة أخرى ، تتجلى شجاعته وقوة شخصيته ، عندما عاد مع ابنته الى باريس ، لانقاذ زوجها .. فقد أبدى جسارة فى مواجهة الغوغاء ، كما أبدى حسن تدبير ، حين عمل على أن يعين طبيبا زائرا للسجن ، كى يتصل بدارنى .

ولكن هذا كله تداعى ، عندما تبين كيف استغلت يومياته أبشـع استغلال ، للقضـاء على زوج ابنتـه .. فتحطمت معنوياته ، واستولى الشرود على ذهنه ..

دارنى : كان ذكيا ، قوى الخلق وقوى الشخصية ، وفيا لزوجته ولأصدقائه ، فلم يحجم عن المبـادرة بالرحيل الى فرنسا ــ برغم ما كان يعرف عن الأخطار التى كانت فى انتظاره ــ لنجدة « جابيل » ، خادم أسرته ..

ولقد تجلت قوة خلقه وشخصيته ، فى استنكاره فظائع طبقته ، ونبذه حياة الارستقراطية فى فرنسا ، ونزوحه الى انجلترا ليكسب عيشه من كده .. ولكن هـذه النقطة بالذات ، هى موطن الضعف فى مؤهلاته للبطولة .. اذ أنها تعنى الهروب من مواجهة الشرور ..

فكان مسلكه ــ فى هذا ــ سلبيا .. وكان الأحرى به أن يبقى فى فرنسـا ، وأن يعلن سخطه على طبقته ، وأن

يكافح مساوئها ، لكى تكتمل له عناصر البطولة .. ولكنه لم يفعل !

كارتون : وهكذا يبقى « سيدنى كارتون » الذى ظهر – لأول مرة – أثناء محاكمة « دارنى » فى لندن ، فأسعفه ذكاؤه وحضور بديهته ، كى يستغل الشبه الكبير بينهما لتحطيم الادعاء وشهادات الأثبات .

ولقد أحب « لوسى » منذ أول وهلة ، كما يشهد اهتمامه بها – اذ كان أول من فطن الى اغمائها فى المحكمة – ولعل هذا كان سر جفائه نحو « دارنى » ، الذى اختصته الفتاة بحبها ، والذى كان يشبهه تماما ، ولكنه كان مستقيما ، قادرا ، أوتى كل ما كان « كارتون » جديرا بأن يحرزه لو أنه شحذ عزيمته ، وأذكى طموحه .. بيد أن « كارتون » آثر أن يستسلم للتخاذل والخمول ، ولأن يسخر ذكاءه لخدمة سواه ، ولعل هذا كان رد فعل لنكبتـه فى والديه وهو صغير ، الأمر الذى جعله يحس بأنه وحيد فى الحياة ..

و « كارتون » هو الشخصية الوحيـدة التى عنى « ديكنز » بأن يرسمها فى خلواتها ، ومناقشاتها مع نفسها .. وهذا يوحى بأن المؤلف كان يعده للبطولة الحقيقية ، اذ أن النقد الذاتى ، والحنين الى أن يرقى بنفسه – بعد أن تبين أن خموله أضاع فرصة اجتـذابه عواطف لوسى – ولدا فى نفسه الطموح الى أن يجعـل من نفسه شخصا نافعـا .. للوسى ، على الأقل .. كما أن تقبله الهزيمة فى الحب ، ثم حرصه على اسعاد من أحب ، كانا أولى خطواته نحو العمل البطولى !

.. لذلك نراه يذهب الى لوسى فيصارحها بحبه ، لا طمعا فى شىء ، وانما ليبين لها أنها بعثت فى نفسه نزوعا الى السمو لم يكن يخطـر بباله ، ومن ثم يعدها بأن لا يضن بتضحية فى سبيلها وسبيل من تحب . وهذا التجرد من

الأنانية ، هو بداية تبلور البطولة لدى « كارتون » .. فقد أصبحت سعادة « لوسى » غاية له فى الحياة ، وحافزا على العمل ..

وتتجلى قوة سيطرته على نفسه ومشاعره ، فى اعتذاره لدارنى – بعد الزواج – عن جفائه ، وتقبله لأن يصبح صديقا للأسرة ، وليس ربا لها !

ومع أن « ديكنز » أغفله فى بداية القصة ، ثم خصه بدور صغير فى وسطها ، فانه سلط عليه كل الأضواء فى النهاية ، فأبرز بطولته .. بطولة الشهم الذى يسعى لانقاذ غريمه فى الحب ، بدلا من أن يتمنى موته عسى أن يحل محله .. وبطولة الذى يضحى لغير ما غاية شخصية .. وبطولة الذى ينسى محنته وبلواه ، ليواسى سواه (الحائكة الصغيرة) أمام الموت .. ثم بطولة الذى أراد أن يكفر عن سنوات الخمول ، فأثبت قدرته على المنح والعطاء دون طمع – بل دون أمل – فى جزاء !

بقية شخصيات الرواية

وفيما يلى بقية الشخصيات « غير الرئيسية » فى الرواية :

روجر كلاى : جاسوس أدلى بشهادته أمام محكمة جنايات لندن المشهورة باسم « أولد بيلى » .

جيرى كرانشر : ساع يعمل فى بنك تلسون .

مسيو جابيل : وكيل لأعمال المركيز « سان ايفريموند » .

جاسبار : قاتل .

جاك رقم (١) ، ورقم (٢) ، ورقم (٣) : ثوريون وشركاء لمسيو ديفارج .

جاك رقم (٤) : اسم اتخذه ديفارج لنفسه ، ليتخفى تحته .

جاك رقم (٥) : شريك لديفارج ، كان يعمل فى إصلاح الطرق ، ثم اشتغل قاطعا للأشجار فى الغابة .

جون بارساد (أو « سولومون بروس ») : جاسوس ومخبر سرى ، شقيق للمربية « مس بروس » .

المركيز سان ايفريموند : نبيل متعجرف ، عم شارل سان ايفريموند .

مستر سترايفر : محام من لندن .

لوسى سان ايفريموند : ابنة شارل سان ايفريموند .

فنجانس (الانتقام) : امرأة ثورية من زعيمات نساء حى (سان انطوان) .

ملاحظات عامة .. تلقى أضواء جديدة

● **يعتبر** النقاد أن « قصة مدينتين » تختلف عن كل روايات « ديكنز » الأخرى ، ويبنون حكمهم على عاملين :

١ ــ نسيج القصة ومسرح أحداثها ..

اذ أنه اختار حقبة من أحرج الحقب فى تاريخ بلاده .. ثم اختار نفس الحقبة فى تاريخ فرنسا ، وكانت أكثر حرجا ، وأكثر تغيرا ، نظرا لقيام الثورة الفرنسية .. وهكذا خرج بمجال خياله وكتابته عن نطاق بلاده ، دون أن يشعر القارىء بأنه أجنبى عن البلاد الأخرى التى اختارها (فرنسا) ..

كذلك يلاحظ أنه فى سرد الوقائع وربطها بعضها ببعض ، اتبع أسلوبا متطورا ، يميز هذه القصة عن قصصه الأخرى ، وان لم يقلل هذا من قيمة وقدر تلك القصص .

٢ ــ الأسلوب الذى اتبعه فى تكوين وابراز شخصياتها .

ذلك انه حرص على أن يدمج الشخصيات فى الأحداث ببراعة وابداع ، لتبرز الشخصيات وتتطور بشكل أقرب الى الشكل الواقعى الطبيعى .. وبمعنى آخر ، تخيل « ديكنز »

موضوع القصة ، وحرص على أن يصهر عناصر الشخصيات فى بوتقة الأحداث ، بحيث تتشكل الشخصيات مع الأحداث وفى جوها .. أى أنها هى التى تظهر ميزات كل شخصية ، وهى التى تعبر عن الشخصيات وتشرحها ، أكثر مما تعبر هذه الشخصيات عن نفسها فى الحوار ..

ومن المهم أن نتذكر أن « ديكنز » كتب القصة منذ أكثر من مائة عام . وقد تغيرت الأذواق والمفاهيم ـ خلال هذه المدة ـ تغيرا كبيرا ، ومع ذلك ظلت شخصيات القصة غنية ، دسمة ، تشوق القراء ، وتتيح للدارسين مادة للتفكير والتعمق والتحليل .

● **وبالرغم** من الاطار التاريخى ، نجد أن « قصة مدينتين » تتمشى مع بقية روايات « ديكنز » ـ مثل « بيكويك » و « أوليفر تويست » و « ديفيد كوبر فيلد » ـ فى ابراز الرسالة التى التزمها « ديكنز » فى كتاباته الروائية ، وهى : كشف النقاب عن آلام البشر ، وعناء الانسان ، وظلم القوى للضعيف ..

● **ويعتبر** « ديكنز » مثالا للكاتب القصصى المخلص لمادته .. فهو يستمد من الخيال موضوعات قصصه ، ولكنه يكسوها بوقائع من تجاربه وخبرته .. وساعده على ذلك ، أنه كان ـ قبل أن يعالج القصة ـ مخبرا صحفيا ، وقد حرص فى هذه الفترة المبكرة من عمره ، على أن يلاحظ الناس الذين كان يصادفهم ، وأن يتأمل مظاهرهم ، وكلامهم ، وتصرفاتهم ، وان يدرس شخصياتهم .. وهو حين يجيد وصف مركبات البريد مثلا ، لا يصدر عن خيال ، وانما يستمد من تجاربه . فقد استخدم هذه المركبات فى أسفاره ـ فى طول انجلترا وعرضها ـ جريا وراء الأخبار ، أثناء عمله الصحفى .. وكذلك الشأن حين يصف المحاكم ، والقضاة ، والمحامين ، والشهود ، والنظارة ، واجراءات

المحاكمات ، فقد عمل فترة فى مكتب للمحاماة ، وشاهد المحاكمات بوعى الدارس الدقيق الملاحظة .. وحين يصف عيوب القضاء - سواء فى هذه القصة أو سواها - يصدر عن محنة ألمت به ، وهو فى الثانية عشرة من عمره ، اذ وجد نفسه مسئولا عن أسرته (وكان له خمسة أخوة) لأن اباه سجن من أجل دين لم يستطع الوفاء به ، وكان القانون الانجليزى يومئذ يقضى بأن يظل المدين سجينا حتى يسدد دينه .. وكان « ديكنز » يتردد على أبيه فى السجن ، ولهذا أجاد وصف السجن من الداخل .

فرق بين المؤرخ وكاتب القصة

● **عنى** « ديكنز » - فى « قصة مدينتين » - بوصف الأوضاع فى انجلترا وفرنسا - فى العهد الذى قامت فيه الثورة الفرنسية .

ولقد استمد أحداث الثورة من كتاب توماس كارليل « الثورة الفرنسية » ، ولكن اهتمامه كان منصبا على معاناة المظلوم ، وجور القوى ، أكثر منه على رسم صورة تاريخية ، ومن ثم نراه لا يعنى من أحداث التاريخ الا بالقدر اللازم لجو قصته ، ولا يحفل بملء الثغرات فى رواية الأحداث التاريخية ، وانما يتتبع أحداث الثورة الفرنسية بالقدر الذى يبين تأثيرها على شخصيات القصة .

وبمعنى آخر ، ان « ديكنز » لم ينزلق الى ما ينزلق اليه كثير من كتاب القصة التاريخية عادة ، فيسرد الأحداث بطريقة التسلسل التأريخى - الذى يعتمد على التتابع الزمنى ، وعلى الأشخاص - وانما اختار من الأحداث ما يكفى لسير وقائع قصته فقط ، وحرص على الابهام الذى يفرق بين سرد المؤرخ وسرد القصصى .

ولا يعيب هذا « ديكنز » ، فان غايته الأولى هى أن يبث فى القارىء الكراهية للظلم والطغيـان .. وهى كراهيـة رسخت فى ذهنه منذ قاسى العناء فى صغره ، نتيجة للظلم . ولكن هذا يجعل لزاما على القارىء أن يلم بتاريخ الفترة ـ من مراجع أخرى ـ اذا شاء أن يستوعب القصة ويتعمق أحداثها وشخصياتها .

● ((**قصـة مدينتين**)) من القصص التى تتطلب من القارىء أن يطالعهـا مرتين : مرة بسرعة ، فى كثير من المتعة والاهتمام اللذين يداخلان المرء وهو يشاهد قطا يداعب فأرا قبل أن يلتهمه .. فهو ينبهر بالأحـداث المثيرة ، ويتعجلهـا لاستنباط حلول للمواقف ، ويشـعر بالقـلق ، والأسى ، والفرح ، تبعا لمواقف الشخصيات وانفعالاتها ..

أما المرة الثانية ، فتتحول فيها الشخصيات الخيالية الى أشخاص واقعيين ، يمثلون حياة المدينتين ، أو حيـاة انجلترا وفرنسا فى تلك الحقبة من الزمن : عهد الملك جورج الثالث فى الأولى ، والملك لويس السادس عشر فى الثانية ، ثم عهد الثورة ..

ذلك لأن القصة تمثل ـ فى روحها وتفصيلها ـ كل نواحى الحياة فى الدولتين ، فى تلك الحقبة .. فهى ليست مجـرد وسيلة لتسلية القارىء وملء فراغه ، وانما هى ـ الى جانب هذا ـ مصدر للمعرفة .. المعرفة التى يهيىء « ديكنز » للقارىء بعض موادها ، باطلاعه على أحوال السجون والمحاكم والقوانين والأوضاع فى تلك الحقبة من الزمن .. بل المعرفة التى ترشده أو تحفزه الى مواصلة الاطلاع ، فى مصـــادر أخرى .. فما أورده « ديكنز » عن الثـورة الفرنسـية ـ مثلا ـ والطريقة التى انتهجها فى ربط حوادثها بحيـاة شخصيات الرواية ، تغرى القارىء بمزيد من الاطلاع على ما كتب عن هذه الثورة ..

عنصر « المصادفة » فى الرواية

● **وقد اعتمد** « ديكنز » ـ الى حـد كبير ـ على المصادفة ، فى سرد حوادث القصة .. ومرة أخرى ، يجب ألا نتسرع فى اعتبار هذا الاتجاه حسنة أو سيئة ، اذ يجب أن نراعى تغير المفاهيم والمقاييس منذ كتب القصة حتى يوم قرأناها .. فمن أمثـلة المصادفات التى تضمنتها الرواية ، تلك التى جمعت بين خـادم الدكتور مانيت ، والشقيقة الصغرى للمرأة التى اختطفها « سانت ايفريموند » ، وأرغم الطبيب على علاجها ، فأتاح له فرصة معرفة مأساتها ، ومدى طغيان النبلاء فى فرنسا ..

.. ومنها تلك المصادفة التى ساقت « شـارل دى سانت ايفريموند » ـ أو تشـارلز دارنى ـ الى عبور (المـانش) على نفس السفينـة التى حملت « لوسى » و « لورى » ، مما أدى الى استدعائهما للشهادة ضـده فى محكمة (أولد بيلى) .. وكان هذا الظرف القاسى بداية حب الشاب للفتاة ..

ثم كان مصادفة أن يظهر ـ بعد ذلك ـ أن الشاب هو ابن الأسرة التى عانى بسببها الدكتور مانيت عذاب السجن .

وكانت مصادفة أخرى أن يكون « سيدنى كارتون » شديد الشبه بتشارلز ، وأن يجد ـ وهو الرجل الخمول ، السلبى الشخصية فى تلك الفترة من القصة ـ ما يحفزه لأن يستغل هذا الشبه لانقاذ « تشارلز » من الادانة ..

وكانت مصادفة خامسة ، أن يحب « سيدنى » نفس الفتاة التى أحبها « تشارلز » ..

مصادفات كثيرة حفلت بها القصة ، وقد يراها فريق من النقاد المعاصرين معيبة ، ولكنها ـ فى الفترة التى كتب فيها « ديكنز » القصة ـ لم تكن كذلك ، فضلا عن أن طريقة

علاجه للأحداث والشخصيات ، استطاعت أن تحجب هذا العيب ..

الحب والكراهية .. كحافزين فى الحياة !

● **وقد** استغل « ديكنز » الحب والكراهية ـ كحافزين فى الحياة ـ أبدع استغلال ، ولايضاح أكثر من ناحية :

استغل الحب ليبين مدى كرم شخصية الدكتور مانيت .. فان حبه لابنته وسعادتها ، حملاه على أن يتقبل زواج « تشارلز » من « لوسى » ، برغم ما عرفه عن انتماء الشاب الى أولئك الذين تعرض بسببهم لأقسى ألوان العذاب ، وبرغم قسوة جهاده لمشاعره ، اذ لم يكن من العسير عليه أن ينسى ما عاناه .. الأمر الذى أسلمه الى نكسة عقلية ، جعلته يعود الى صناعة الأحذية .. أى أن ذاكرته ارتدت الى أيام السجن ، هروبا من واقع الحاضر .. وهذا ابداع فى الدراسة النفسية من « ديكنز » ، فى عهد لم يكن فيه علم النفس قد بلغ مبلغه اليوم ..

واستغل الحب ـ كذلك ـ ليكشف عن نبل معدن « سيدنى كارتون » ، وطبيعته البطولية .. فهو ، ليقينه من حب « لوسى » لتشارلز ، يطوى جوانحه على حبه لها ، ويرضى بأن يكون على هامش حياتها .. ثم يضحى بحياته هو ، لينقذ لها الشخص الذى كان يدرك أنها لن تسعد مع سواه .. برغم أنه غريمه فى هواها !

ومن ناحية أخرى ، استغل ديكنز الكراهية ـ عند مدام ديفارج ـ ليبين نقمة المظلومين فى فرنسا على الطبقات التى ظلمتهم .. فكانت مظالم أسرة واحدة ، سببا فى ان حقدت « مدام ديفارج » على النبلاء وعلية القوم جميعا .. ثم كانت نقمة هذه المرأة وسواها سببا فى انفجار العنف الذى صاحب

بداية الثورة الفرنسية ، والمذابح التى سادته خلال « عهد الارهاب » ..

***

● **واستكمالا** للنقطة السابقة ، نلاحظ أنه برغم تعدد مفارقات الحب والكراهية فى القصة ، فان « ديكنز » لم يغفل عن أن يسلط الأضواء على مفارقة واحدة بالذات ، تبرز خلال تسلسل الأحداث : فهو قد اتخذ من الحب لدى « سيدنى كارتون » بالذات ، ومن الكراهية لدى « مدام ديفارج » بالذات ، دافعين رئيسيين للأحداث والتصرفات فى القصة ، بحيث ينتهى مجرى الأحداث والتصرفات الى مغزى أراد أن يبرزه أمام بصر القارىء ، وأن يقره فى نفسه .. وهذا المغزى هو أنه مهما تكن بواعث الكراهية ، فان الحب أقوى من الكراهية ! .. ومهما تكن نتائج الحب ، فانه القوة الوحيدة القادرة على شحذ الهمة ، وتطهير النفس ، والسمو بالروح ..

ولقد كانت الكراهية الحاقدة ـ لدى مدام « ديفارج » ـ اداة مكنتها من الثأر لنفسها وأسرتها من الظالمين ، ولكن شدة الحقد جمحت بها فلم تقتصر نقمتها على ظالميها وظالمى أسرتها ، بل امتدت الى كل الطبقات الظالمة ، ثم الى المعتدلين من الثوار .. وانتهى الجموح بهذا الحقد الى أن قضى على « مدام ديفارج » نفسها !

.. وكان الحب لدى « سيدنى كارتون » أداة انتشلته من السلبية ، واللامبالاة ، والخمول .. ثم سمت به عن نطاق شخصه ، وعن مجال الارضاء الذاتى لنفسه .. ومع أن الحب كلفه حياته ، وانتهى به الى عين المصير الذى انتهت اليه الكراهية بمدام ديفارج ، فقد بقيت هناك مفارقة واضحة بارزة : تلك هى أن « مدام ديفارج » ماتت مخذولة ، مكروهة

.. فى حين أن « كارتون » مات منتصرا ، وقد رفعت تضحيته من قيمة حياته !

ملكان .. وملكتان

● **كان** الملوك الذين ذكرهم « ديكنز » فى « قصة مدينتين » هم :

لويس السادس عشر ، وزوجته مارى أنتوانيت ، فى فرنسا
وجورج الثالث ، وزوجته صوفيا شارلوت ، فى انجلترا .
وكان بين الفريقين تناقض كبير :

لويس : نشأ فى ترف وبذخ وإسراف ـ فى كل شىء ـ فى بلاط استشرى فيه الفساد والانحلال ، فكانت نشأته ، وكل ماتعلمه ، وكل ما ابصره وسمعه منذ حداثته ، عوامل أدت به الى المصير الذى أوردته اياه الثورة .. فقد كان ثقيل الفهم والتفكير ، بطيئا فى كلامه وتصرفاته .. وكان عنيدا ، رسخت فى ذهنه بضعة أفكار ومبادىء ، تحجرت فيه ، بحيث لم يقدر للأشخاص ، ولا للظروف والأحداث أن تؤثر عليها .. ومن هنا كانت طامته الكبرى .. **فلو أننا سلمنا جدلا بما يؤكده بعض المؤرخين ، من أنه كان تقيا ، أمينا ، شريفا ـ وكم من ادلة تزعزع من هذا التأكيد ـ فان ضيق عقله ، وثقل تفكيره وجمود أفكاره ومبادئه ، أدت به الى ألا يدرك بجلاء أنه كان يعيش وسط « تململ » يتطور الى ثورة قومية !**

أما مارى أنتوانيت ـ زوجته ـ فكانت شديدة الولع بالأبهة ، والشغف بالمظاهر .. وقد جرفها تيار البذخ والفساد فى البلاط الفرنسى ، بعيدا عن ان تفطن الى محنة الشعب ، وحقيقة الأوضاع فى البلاد .. بل ان التاريخ أثبت أنها كانت تناصر النبلاء الذين كانوا يعارضون أى اصلاح يقتنع به الملك !

جورج : أما جورج الثالث ، ملك انجلترا ، فكان قد حظى فى صغره بكل رعاية تمكنه من أن يتعلم ، وكان ثمة عدد من خيرة المعلمين ، مكلفين بأن يلقنوه وأخاه كثيرا من الموضوعات. ومع ذلك ، فقد نشأ غبيا ، ثقيل الفهم ، ضعيف الشخصية .. برغم انه كان طيبا وتقيا .. وقد أحبه الشعب لأنه كان أقرب الى الروح الانجليزية من سلفيه اللذين كان الأصل الألمانى طاغيا عليهما ..

ومع ذلك ، فان انجلترا كانت فى عهده تعانى مرحلة من أسوأ مراحل الحكم ، اذ انه كان يعتمد على وزراء ومستشارين لم يعنوا بغير مصالحهم .. وبينما كان بلاطه يزخر بالحسان ، وبالمساوىء ، والأثام ، كان الشعب يشكو الضيق ، واضطراب الأمن ، وسطوة قطاع الطرق .. وكان التهريب ، والاختطاف ، وتزييف العملات من الجرائم الشائعة .. كما كانت العدالة مفتقدة ، والقضاء مهتزا ، والسجون فى أبشع حالاتها .. وكانت العاصمة لندن تعانى من الشوارع الضيقة ، السيئة الرصف والاضاءة .. الخ

أما الملكة « صوفيا شارلوت » ، فكانت على النقيض من ملكة فرنسا « مارى أنتوانيت » . كانت قد نشأت فى بلاط دوق (ميكلنبيرج ـ سترليتز) الفقير ، فكانت تكره الأبهة والمظاهر ، وتؤثر أن تقضى أوقاتها مع زوجها ، أو فى القراءة والتطريز .. ولم تكن جميلة ، ولكنها كانت لطيفة المنظر والطباع ..

***

وأخيرا يا عزيزى القارىء ..

هذه طائفة من المعلومات التاريخية والأدبية ، سقناها اليك ، لا لتكون دراسة تحليلية « مكتملة » ، وانما لتكون أشبه بخيوط من النور على الأحداث والشخصيات ، تنبهك

الى الأسلوب الذى يجب أن تقرأ به قصة من هذا النوع .. بل القصص التاريخية بوجه عام .

ذلك لأن الروائى الذى يستمد روايته من التاريخ ، يكلف نفسه عنـاء الدراسة والبحث ، مهما يكن موضوعه خياليا .. وهو لا يفعل ذلك عبثا ، وانما هو يسعى لكى يكتب لانتاجه الخلود ، ويجعل الرواية وسيلة لزيادة معلومات القارىء ومفهوماته ، وليست مجرد أداة لقتل الفراغ ..

وأعتقد أن « ديكنز » قد أفلح فى هذا كله ، وحقق لاسمه الخلود !



سيدني كارتون

مطبوعات كتابى

صدر من هذه المجمـوعة حتى الآن :

الكتاب	المؤلف
١ ـ قصة مدينتين	تشارلز ديكنز
٢ ـ ذات الثوب الأبيض	ويلكى كولينز
٣ ـ الخالدون	ديل كارنيجى
٤ ـ الخاطئة	سومرست موم
٥،٦ ـ حياة امرأة (جزءان)	جى دى موباسان
٧ ـ الخطيئة الأولى ، وفتـاة من الاقاليم	البرتو مورافيا
٨ ـ أوديب	سوفوكليس واندريه جيد
٩،١٠ ـ مدام بوفارى (جزءان)	جوستاف فلوبير
١١ ـ عاشقات فى الخريف	ستيفان زفايج
١٢ ـ قلوب ضالة	رابندرانات طاغور
١٣ ـ ديكاميرون	جيوفانى بوكاشيو
١٤ ـ الظمأ للحب	ميكا والتارى
١٥ الى ١٧ ـ جين اير (٣ أجزاء)	شارلوت برونتى
١٨ ـ فاتنات الرجال	مارجورى كورجين
١٩ ـ رجال ونساء	مكسيم جوركى
٢٠ ـ الثأر للوطن	جون شتاينبك
٢١ ـ فرنسا الجريحة على ضفاف النيل	ادوين جون ديفيز
٢٢ ـ الابن الضال	هنرى بوردو
٢٣ ـ أسرار الجاسوسية	برنارد نيومان
٢٤ الى ٢٦ ـ بيلادونا (٣ أجزاء)	روبرت هتشنز
٢٧ ـ بوشكين	ليديا لاميير
٢٨ الى ٣٢ ـ اعترافات جان جاك روسو (خمسة أجزاء)	
٣٣ ـ قصص من الصين	لطائفة من المؤلفين
٣٤ ليالى بازاك	أونوريه دى بلزاك
٣٥ الى ٣٧ ـ الالياذة (٣ أجزاء)	هوميروس

٣٨ ـ قصص من روما	ألبرتو مورافيا
٣٩،٤٠ ـ المسبحة (جزءان)	فلورنس باركلى
٤١ ـ سفينة الملذات	موريس ديكوبرا
٤٢ ـ دم .. وخمر !	ليو تولستوى
٤٣ ـ تحت ظلال الليلا !	مبرورة سامى
٤٤ ـ أرواح هائمة !	سومرست موم
٤٥ الى ٤٧ ـ القلعة (٣ أجزاء)	دكتور أ.ج. كرونين
٤٨ ـ هل تحبين « برامس »	فرانسواز ساجان
٤٩ الى ٥٠ ـ مرتفعات ويذرينج (٣ أجزاء)	اميلى برونتى
٥٢،٥٣ ـ مدموازيل جوفر (جزءان)	مرسيل بريفو
٥٤ ـ العذراء المفتونة	هنرى باتاى
٥٥،٥٦ ـ مياه الربيع (جزءان)	ايفان ترجنيف
٥٧ ـ ضحكة فى الظلام	فلاديمير نابوكوف
٥٨ ـ ماريا ايفانوفا	الكسندر بوشكين
٥٩ ـ لوكريشيا بورجيا	جوان هاسليب
٦٠ ـ كلهم أبنائى ، ومن فوق الجسر	آرثر ميللر
٦١،٦٢ ـ نيتوتشكا (جزءان)	فيدور دستويفسكى
٦٣ ـ السحب الرائعة	فرانسواز ساجان
٦٤،٦٥ ـ الآلهة عطشى (جزءان)	اناتول فرانس
٦٦ ـ قصص من تولستوى	ليو تولستوى
٦٧ ـ مارى ستيوارت	فردريك شيللر
٦٨ ـ ألف ليلة وليلة الهندية	لطائفة من المؤلفين
٦٩ ـ فاتنة الكونغو !	شارل ميرسيه
٧٠ ـ قاتل بلا أجر !	أوجين يونسكو
٧١ ـ قصص من «ايبانيز»	بلاسكو ايبانيز
٧٢،٧٣ ـ الطريق الى بئر سبع (جزءان)	ايثيل مانين
٧٤ ـ انا كارنينا	ليو تولستوى
خارج السلسلة : دكتورجيفاجو (جزءان)	بوريس باسترناك

هذه القصة

بين آلاف الكتب والقصص التى صورت عصر الثورة الفرنسية الكبرى وأحداثها الرهيبة ، تبقى « قصة مدينتين » نموذجا وحدها لأروع ما خطه قلم كاتب انسانى من آيات الفن الروائى ، والحبكة القصصية الجبارة - التى تبلغ حد الاعجاز ! - ثم التصوير البارع لأعمق خلجات النفس البشرية .. النفس التى اذا أحبت - صادق الحب وخالصه - وهبت وافتدت وأعطت أضعاف ما أخذت !.

والمدينتان اللتان عناهما « ديكنز » بعنوان روايته هما باريس ولندن ، اللتان تجرى فيهما حوادث القصة ، وتتأرجح بينهما مصائر أبطالها فى تسلسل شائق تلهث منه أنفاس قارئها فيخال نفسه يعيش مع هؤلاء الابطال فى ذلك الاطار الدموى المروع من الحديد والنار : يواجه ما يواجهون من أخطار واحتمالات ، ويعانى ما يعانون من كروب ومحن ، ويعشق من يعشقون من نفوس جديرة بأن تعشق .. وبالاختصار ، يشارك أبطال القصة عواطفهم المتأججة المتضاربة ، النبيلة والوضيعة .. العفيفة والعنيفة .. عواطف الحب والبغضاء ، والخيانة والوفاء ، والأنانية والفداء جميعًا !

مطبوعات
كتابى
يصدرها حلمى مراد